المندوبية السامية الاسبانية بالمغرب
نيابة الامور الوطنية

مكتب الترجمة الاسبانية - العربية

سرفانطيس
امير الادب الاسبانى

بقلم الاستاذين

نجيب ابو ملهم - موسى عبود



مطبعة المخزن - تطوان

1947



سرفانطيس

ملك اليراع بمنطق الاسبان

شرف يكـلل مفرق الاوطـان

قد غصت في لجج الحياة مشمرا

ونشلت درا حافلا بمعـاني

وجسست من هذي البرية منبضا

نبضاته غابت عن الاقـران

ياذا البصيرة والبلاغة والنهى

هذا مقامك في بني الانسان

مقدمة

لا نكتشف مجهولا اذا قلنا ان الشعب الاسباني كان في غابر الزمان اكثر الشعوب اتصالا بالعالم العربي، وان اسبانيا العربية كانت الصلة الوحيدة بين الشرق والغرب، وغير خفي على احد ان لغة العرب وادبهم تركا في اللغة والادب الاسبانيين من الآثار ما لايشاهد في لغة وادب اية امة اخرى. كما ان الادب العربي الأندلسي اقتبس من البيئة الاسبانية صبغة خاصة بحيث يستحيل احيانا فهمه على القارئ الشرقي الذي يجهل تلك البيئة بجغرافيتها وتاريخها. وبالرغم من هذا التماسك والتقارب بين اللغتين والادبين يمكن الجزم بان الادب الاسباني اقل الاداب الاوروبية انتشارا في الاقطار العربية وان تاريخ الادب الاسباني يكاد يكون مجهولا كل الجهل حتى بين اعلى الطبقات العربية المثقفة.

فالى نلافي هذه الوضعية نرمي بسلسلة المؤلفات والترجمات التي نؤمل نشرها لننقل الى اللغة العربية امهات المؤلفات الادبية الاسبانية على ممر العصور ولنترحم

لمؤلفيها ونعرف بتطور الحركة الادبية والفكرية في اسبانيا حتى يومنا هذا.

وهو لعمري مشروع خطير واسع الارجاء وعر المسالك لكننا اقدمنا عليه بجرأة متكلين على الله راجين منه العون والتوفيق.

وقد آثرنا ان نبدأ المشروع بهذا الكتاب الذي هو ترجمة لسرفانطيس ودرس مسهب لمؤلفاته لسببين: اولا لان سرفانطيس علم من اعلام الادب العالمي وامير الادباء الاسبان على الاطلاق فمن حقه ان يقدم على الاخرين. وثانيا لانه يحتفل في هذه السنة بالذكرى المئوية الرابعة لمولده. وقد نظمت الامة الاسبانية وبلدان اميركا الجنوبية حفلات ومهرجانات فخمة بهذه المناسبة. فكان حقا علينا ان نخرج هذا المؤلف ليكون بمثابة مساهمة عربية في تكريم أمير الادباء.

نطوان (المغرب) ابريل - يوليو 1947

المؤلفان

توطئة

هيا بنا ايها القارئ العزيز لنرجع القهقرى الى سنة 1547 فنجد على عرش اسبانيا ذلك العاهل العظيم الذي يحمل فوق جبينه في آن واحد تاج اسبانيا وتاج الامبراطورية الالمانية، ذلك الذي خلد التاريخ ذكره تحت اسم كارلوس الخامس.

ها هو ذا الامبراطور الكبير يتنقل في الربوع الالمانية لايعرف للكلل الى جسمه سبيلا ولا للياس الى نفسه منفذا. وها هي يده الحديدية لاتني عن ملاحقة المبتدعين الذين اتخذوا لنفوسهم لقب المصلحين وعرفوا فيما بعد باسم البروتستانت .

اجل! ان مؤسس البدعة لوتير كان قد انسحب من الميدان لكنه ترك وراءه بركانا متفجرا لم تخمد نيرانه وصدعا في الدين لم يسد وبابا للحرب لن يغلق.

وها هو ذا الامبراطور منذ ان تقلد العرش وحسامه لم يزر غمده يحدوه الى هذا الصراع الجبار امل مكين في قطع دابر البدعة لتبقى امبراطوريته الواسعة الاطراف متماسكة الاجزاء موحدة العقيدة .

والى جانب هذا الشغل الشاغل نشأ خطر آخر اقض على العاهل العظيم مضجعه، الا وهو خطر الاتراك فان السلطان سليمان القانوني كان قد وسع ممتلكاته الاوروبية واحتل بلغراد وبلاد المجر وبالرغم عن امتناع فيينا عليه فقد اصبح سيفا مصلتا على الامبراطورية الالمانية لايؤمن شره ولا يعرف من أين يسدد الطعنة. ولم يقف الخطر التركي على البر فان الاساطيل العثمانية كانت تمخر عباب البحر المتوسط وتزداد يوما بعد يوم عددا وقوة وجرأة في مهاجمة الاساطيل والممتلكات الاسبانية. وبلغت بها الجرأة الى مهاجمة الشواطئ الاوروبية نفسها من حيث كان يحمل القرصان غنائم واسعة واسارى عديدين يبيعونهم فيما بعد في اسواق الرقيق في الجزائر والقسطنطينية. فالخطر التركي كان اذاً على كارلوس الخامس مزدوجا : في البر على ممتلكاته كامبراطور المانيا وفي البحر على اساطيله وممتلكاته كملك اسبانيا.

وبالرغم من انتصار كارلوس الخامس على المبتدعين في معركة «مولهبرغ» وعن اتساع الممتلكات الاسبانية التي كانت تشمل في الشمال بلاد فلانديس (ويقوم

مقامها اليوم البلجيك وهولندة) وفي الجنوب مملكة
نابولي وصقلية في ايطالية ومعظم جزر البحر المتوسط،
وفي اميركا والشرق الاقصى تمتد حتى اليابان بحيث
امكن ابنه فيليب الثاني ان يقول بحق ان الشمس لا
تغيب عن ممتلكاته، بالرغم عن هذا كله كانت دلائل
السقم قد اخذت تبدو في افق اسبانيا وشرع العدو
يضرب حولها حصارا لن تلبث ان ترى نفسها فيه
اسيرة: فمعركة مولهبرغ، من جهة لم تسفر عن
النتائج التى كانت ترجى منها في بادىء الامر في استئصال
شأفة البدعة واذا بهذه ترفع رأسها بعد الهزيمة بعزم
امضى وهمة اشد. ومن جهة اخرى عاد الخطر التركي
الى الميدان ـ وقد استفحل شره وجاوزت كل حد جرأته
فاصبحت تقتحم مراكبه السواحل وتدخل قرصانه خليج
قادس ومرفأ اشبيلية فتأسر المراكب الاسبانية وتذهب
بها غنيمة باردة. وفي الشمال بدأت بوادر الفتنة في
فلانديس ومن وراءها بريطانيا العظمى والمبتدعون في
المانيا. اضف الى هذا كله سياسة هنري الثاني ملك
فرنسا الذي كان يعمل في الخفاء مع اعداء كارلوس
الخامس. وفي الاخير يجب ان لاننسى خطرا آخر بدأ

نجمه يتألق في سماء الشمال، نعني به انكلترا التي كان سلطانها على نمو مطرد ولن تلبث ان تصبح الخطر الاكبر على السلطان الاسباني.

فهذه الاخطار كلها تصدت لكارلوس الخامس. وان يكن قابلها بعزمه الثابت وتغلب عليها كلها فان نفسه كانت الى الراحة قد اخذت تميل وقلبه الى الهدوء يسكن ولم تكن اسبانيا الى الراحة والهدوء باقل ميلا من عاهلها العظيم. لان الجهاد المتواصل سنة تلو سنة في المانيا وفلاندبس، في ايطاليا وجزر البحر المتوسط، في الجزائر وتونس ووهران، في اميركا والشرق الاقصى قد استنفد قوى الامة وعصرها عصرا. فاصبحت ترنو بطرف الاشتياق الى السلم والهدوء مكتفية من الماضي المجيد بذكراه الخالدة فتحييها في قصصها واناشيدها. وما ذلك الاستقبال الفخم الذي احاطت به مقدم ايزابل دي فالوا بعد ذلك بسنوات حين تزوجت بالملك فيليب الثاني الا دلالة قاطعة على اشتياق الامة الى الهدوء والسلم لما يفرضه ذلك الزواج من وئام بين الامتين وذلك ما حملهم على منح الاميرة الفرنسية لقب ايزابيل حاملة السلم.

ومجمل القول ان النصف الثاني من القرن السادس عشر هو فترة الانتقال في تاريخ اسبانيا، فترة تطوى فيها صفحة العهد المجيد ويبدأ في نهايتها عهد الانحطاط، فترة ككل فتر الانتقال من مجد الى هوان يكثر فيها المنافقون ويقل ذوو النفوس الرفيعة والهمم الشماء، فترة تتغلب فيها السعايات والاهواء الخاصة على مصالح الدولة ومنافع الامة وتختنق في جوها الفاسد تلك القلوب الكبيرة التي تعد على الاصابع هذه القلوب التي قيض الله لها ان تساير الماضي المجيد في عظمته وتترفع عن الحاضر الذليل في سفالته فتحيا بين بيئتها كأنها عنها غريبة وفي مجتمعها وكأنها منه بعيدة، لاتلين قناتها لغمز ممزوج بنفاق، ولا لعلو تسنده خيانة.

ومن هذه القلوب الكبيرة التي عاشت في ذلك النصف الثاني من القرن السادس عشر امير ادباء الاسبان واحد نوابغ الانسانية جمعاء ميغيل دي سرفانطيس سافيدرا.

القسم الاول

حيـــــاته

الفصل الاول

أين ولد سرفانطيس؟

مسألتان حام حولهما الخلاف بين المؤرخين: أين ولد سرفانطيس ومتى ولد. وقد اكثر البحاثون في الكلام حول هاتين القضيتين واشبعوهما درسا واسفرت ابحاثهم عن رأي يكاد يكون مؤكدا في كليهما.

اما البلدة التي ابصر النور فيها كاتبنا فهى حسب هذا الرأي مدينة قلعة هناريس وقد نازعتها هذا الحق سبع بلدات اخرى لكل على دعواها حجج وهـى :

، اسكيفيا بدعوى ان سرفانطيس نفسه وصف هذه البلدة بانها شهيرة. و اشبيلية وقد حمل لـواء دعواها الاديب الشهيـر نقولا انطونيـو وحجته ان اسمـي سرفانطيس وسافيدرا هما اسما عائلات اشبيليـة . وان ،كاتبنا ابصر في صباه الروائي والممثل ،لوبي دي رويدا، يمثل مسرحياته في اشبيلية. لكن هذه الحجة الواهنة تنهار أمام الادلة القاطعة، التي قدمها المؤرخـون الحداث، على ان لوبي دي رويدا انما كان يتنقل في مدن قشتالـة حين كان سرفانطيس لم يزل في عهد الصبا

ونازعتها بلدة لوسينا ولا سند لها على دعواهـا

سوى اسطورة تناقلها اهلها خلفاً عن سلف لا يؤيدها برهان ولا تدعمها بينة .

وزعم آخرون أن مسقط رأس سرفانطيس مدينة مدريد، ولا دليل يؤيد هذه الدعوى سوى رأي لوبي دي فيغا وغيره من معاصري كاتبنا وتسمية سرفانطيس اياها بوطنه في مؤلفه الشعري رحلة البارناس . وقد فات اصحاب هذا الرأي ان الكاتب انما ضمن هذه الكلمة في مؤلفه المذكور معنى مجازيا كما اوضح ذلك في غير ما مقطع من المؤلف نفسه .

وهنالك من يزعم انه ولد في بلدة كونسويغرا ومن يدعي انه ابصر النور في مدينة طليطلة . لكن كلا الرأيين ضعيف واه لايستند على حجج ثابتة .

وكان فريق آخر يزعم انه ولد في بلدة الكاسار دي سان خوان وله على دعواه حجة قوية. لكنه ظهر في الربع الاخير من القرن الماضي ضعف هذه الحجة وفسادها.

وهكذا انتهى الخلاف بين البلدات السبع دانهيار دعواها كلها. وقد اصبح الان كما قدمنا من الصحيح الثابت الذي لايقبل النزاع ولا الجدل ان كاتبنا ولد في مدينة قلعة هناريس .

قلعـة هناريس

تقع هذه المدينة على ضفة نهر هناريس على ثلاثة وثلاثين كيلومترا من مدريد. وقد لعبت في تاريخ اسبانيا الثقافي دورا خطيرا بفضل جامعتها الشهيرة التي اسسها الكردينال سيسنيروس سنة 1498 وفتحت ابوابها لقبول الطلاب سنة 1508. وكانت خلال القرن السادس عشر الى جانب جامعة سلمنكة (او طلمنكة كما يسميها العرب) من اهم الجامعات الاوروبية. وقد ظلت مركزا ثقافيا ذات قيمة حتى سنة 1836 اذ نقلت الى مدريد.

ففي هذه البلدة الصغيرة بمساحتها وعدد سكانها العظيمة بمركزها واثرها. في يوم من سنة سبع واربعين وخمسمائة والف. لم يعرف بالضبط. وانما يرجح انه التاسع والعشرون من شهر سبتمبر (ايلول) ولد ميغيل دي سرفانطيس سافيدرا. وفي التاسع من شهر اكتوبر (تشرين الاول) عمد في كنيسة القديسة مريم الكبرى . كما يستفاد من سجل العمادات الذي لم يزل محفوظا في تلك الكنيسة وبواسطته امكن الجزم بان سرفانطيس ولد في مدينة القلعة.

اما الذي حمل المؤرخين على تعيين التاسع والعشرين

من سبتمبر تاريخا لولادته فهي العادة التي الفها الاسبان بتسمية المولود باسم القديس الذي خصص له في التقويم يوم ولادته. فتسمية كاتبنا باسم ميغيل انما تعود اذا لولادته يوم عيد القديس ميغيل (او ميخائيل) وبه يحتفل في 29 من الشهر المذكور.

عائلة سرفانطيس

كان والد سرفانطيس واسمه ضون رودريغو طبيبا يتعاطى مهنته في مدينة القلعة. وفي سنة 1540 تزوج من ضونيا ليونور كورتيناس ورزق منها سبعة اولاد نخص بالذكر منهم فضلا عن ميغيل اخاه رودريغو المولود سنة 1550 واخته اندربا ولويزا المولودتين الاولى سنة 1544 والثانية سنة 1546.

ولم يكن ضون رودريغو موفقا في مهنتـه. فكانت عائلته تعيش في حالة الى الفقر اقرب منها الى اليسر، وفي هذا الجو العائلي المغطى بغيوم الفقر وسحب الحاجة قضى ميغيل سني فتوته حتى قارب الخامسة عشرة من عمره. وفي هذه السنوات تردد على مدارس القلعة وحصل فيها العلوم الابتدائية وشيئا من الادب واللغة اللاتينية والعلوم التي كانت تدرس في ذلك العهد.

وكان من المتفوقين في الدراسة يشار اليه بتوقد الذهن وقوة الادراك ودقة الملاحظة والرغبة الشديدة في الاطلاع على ابواب المعرفة، قوي الميل الى الشعر والمسرح، كما عبر عن ذلك مرارا فيما بعد في غير واحد من مؤلفاته.

فى اشبيليـة

في احد ايـام الربيـع من سنة 1563 اذا بالفتـى ميغيل دي سرفانطيس يصل الى مدينة اشبيلية بصحبة ابيه واخوته. فان ضيق العيش وعسر ذات اليد في القلعة دفعا بضون رودريغو الى هذا الانتقال عسى ان يجد في عاصمة الجنوب بابا للرزق اكثر اتساعا ومجالا للعمـل اجدى وانفع.

فقد كانت اشبيلية في ذلك العهد مدينة زاهرة نامية والسفن بين اميركا الحديثة الاكتشاف والاندلس لاتبرح تمخر عباب البحر المحيط جيئة وذهابا ومرساها في الغالب اشبيلية. وهذا الاتصال فتح ميدان السعة واغـدق على المدينة سوابغ النعمة فنمت التجـارة وازدادت الثـروة وازهرت الاداب والفنون بحيث كانت تعتبر بحق من اهم العواصم الاسبانية ان لم نقل اهمها على الاطلاق.

فلاعجب ان يفد اليها ضون رودريغو دي سرفانطيس وفي نفسه امل بان تبتسم له فيها الثروة فتزدهر حالـه مسايرة للبيئة الجديدة.

وبالرغم عن ان حالة ضون رودريغو المـالية لـم

تتحسن فانه لم يحجم عن ارسال ابنه ميغيل الى خير مدارس اشبيلية. وكان الاباء اليسوعيون قد فتحوا سنة 1554 مدرسة يتلقى العلوم فيها ابناء الاشراف والاعيان. ففيها تلقى كاتبنا بعض الدروس العليا. وقد اثر في نفسه تاثيرا عميقا ما كان هؤلاء الاساتذة يمتازون به من عناية واخلاص وتضحية في التدريس. فذكرهم في كتابه «محاورة الكلاب بالثناء والمدح اذ قال: «ومما يستلفت النظر ما كان يغدقه هؤلاء الاساتذة والاباء المباركون من محبة وعطف ورعاية وعناية في تعليمهم اولئك الصبيان فيقومون غصون شبابهم لئلا تعوج او تضل عن طريق الفضيلة التي كانوا يدلونهم عليها الى جانب طريق المعرفة.»

وفي هذه المدرسة تعرف ميغيل الى بعض الفتيان من نخبة المجتمع الاشبيلي. ومن الراجح ايضا انه تعرف هنالك «بماتيو فاسكيس» الذي اصبح فيما بعد كاتم اسرار الملك فيليب الثاني.

وفي اشبيلية شاهد تمثيل روايات المؤلف الشهير «لوبي دي رويدا» مؤسس المسرح الاسباني. فنبهت في نفسه حسبما يقال ميلا الى الفن المسرحي.

وفي اشبيلية ابصر الحياة على حقيقتها واختلاف الوانها ومظاهرها. وفيها اغرم بالبحر وعظمته ومغامراته واحس برغبة ملحة في ان يلمس بيده هذه الحياة التي طالما سمع البحارة يتحدثون عنها في تنزهاته العديدة على ضفاف الوادي الكبير.

مدريد

لم تبتسم لضون رودريغو آلهة الثروة في اشبيلية كما كان يؤمل يوم أمها متفائلا. وها هو بعد اربع سنوات يجر عثار الخيبة والفشل فيلم آماله المبعثرة ويحول وجهه شطر مدريد سعيا وراء حظ اكثر افترار ثغر.

وكانت مدريد قد اصبحت منذ مدة قريبة قاعدة المملكة فقطعت في طريق العمران شوطا بعيدا واخذت تمتد وتتسع فوق الهضاب التي تنساب بينها مياه نهر «مانسناريس» فناهيك عن شوارع جديدة تفتح مستقيمة وسيعة في كل جهة وشوارع قديمة تمدد وخنادق تطمر وغابات كثيفة تقوم مقام اشجارها الباسقة اديار وقصور.

وفوق هذه المدينة الحديثة تغلي مراجل الحياة المتقدة فمن حفلات تقام ومجالس ادب تعقد ونواد تنشأ ومسارح تفتح. فالحياة الادبية تدفقت من كل فج وصوب على العاصمة. واصبحت تشد اليها الرحال من سائر المقاطعات حتى كبرت بسرعة غير مألوفة.

فالى هذه المدينة الناشئة وصل كاتبنا وهو في العشرين من عمره بصحبة ابيه واخوته. وفيهاسمع دروس

الاستاذ «فرنسيسكو دل بايو» في النحو. ولكن هذا لم يلبث ان مات فحل محله الاستاذ «خوان لوبيث دي اويوس» واتصل به سرفانطيس اتصالا وثيقا. وقرأ عليه وكان من المبرزين وكان «لوبيث دي اويوس» يسميه «بالتلميذ العزيز الحبيب».

لكن ثقافة سرفانطيس كانت ناقصة لو قيست بثقافة الطبقة المفكرة من رجال عصره ولذلك النقص سببان: حياته المتنقلة وعدم استقراره الداخلي الذي لم يكن ليتيح له ان يتقيد ببرامج دراسة لاتوافق مزاجه النفسي. ولايستفاد من هذا انه كان كسولا! لا! فقد قال عن نفسه انه كان يقرأ حتى الاوراق المزقة التي يعثر عليها. لكنه كان يقرأ ما تجد فيه نفسه لذة. وبنوع خاص كان يقرأ في كتاب الحياة الذي اصبح مفتوحا امام ناظريه فانى القاهما ان على الناس وان على الطبيعة التى تحيط به تلقى درسا جديداً في الحياة.

وفي مدريد اتصل سرفانطيس بطائفة من الشعراء الشباب الذين كانت العاصمة تعج بهم آنئذ وسيصبحون فيما بعد نجوما تتالق في سماء الادب والشعر. فأم نواديهم وحلقاتهم واستمع الى منظوماتهم وشاطرهم لذة السمر وحلاوة الحديث

الانتصار الاول

في اواخر سنة 1568 قطفت يد المنون زهرة حياة الملكة ايزابيل دي فالوا ولما تتجاوز اثنين وعشرين ربيعا. فجاءت وفاتها طعنة نجلاء في صدر الملك فيليب الثاني الذي كان يكن لها اسمى وانبل عواطف الحب وقد برهن عن ذلك باوضح بينة ابان مرضها فكان لايفارق سريرها ويعتني بها بنفسه ويقدم لها الادوية بيده فتركت بموتها في نفسه فراغا لن يسد وحزنا لن يمحى. وعاد العبوس يخيم على البلاط الملكى واطلت من جديد سحب الكآبة والقلق بعد ان غاب ذلك النجم البسام الذي حيته الامة الاسبانية جمعاء لثمان سنوات خلت باسم «اميرة السلم»، وانهار امل الامة في استمرار الطمأنينة في علاقات الدولة الخارجية.

وبهذه المناسبة كلف الكردينال ضون دييغو دي اسبينوثا ـ وهو اذاك رئيس المجلس الملكى ـ الاستاذ لوبيث دي اويوس استاذ سرفانطيس ان يكتب «سيرة مرض ووفاة مولاتنا ضونيا ايزابيل دي فالوا ملكة اسبانيا مع المراثى التى قيلت فيها». وقد ادرج الاستاذ

في هذه المجموعة مرثية قيد تحتها انها من نظم «تلميذه الحبيب» وهو اللقب الذي كان يشير به الى سرفانطيس.

ولاقت منظومة كاتبنا نجاحا كبيرا. فقابله رفقاؤه بالتهنئة والاكرام واستاذه بالثناء والتكبير. ومما هو اعظم واخطر ان هذه المناسبة فتحت امامه بابا للمغامرة في طريق المستقبل المجهول.

ايطاليا

كان سرفانطيس يقطف باكورة الانتصار في ميدان الادب حين قدم مدريد الايطالي «خوليو اكوافيف اراغون» نجل الدوكي دي اتري الذي اصبح فيما بعد كردينالا. وقد جاء مبعوثا من جانب البابا بمهمة رسميا لدى الملك فيليب الثاني

وكان خوليو اكوافيفا ينتمي الى احدى العائلات الشهيرة في ايطاليا وينحدر من سلالة هؤلا الذين كانوا فيما مضى نبراسا يضيء في ايطاليا ابان النهضة وقد اخذ نورهم ينكمش في هذا العهد. لكنه كان من طبقة هؤلاء الامراء الذين ينعمون بان يحاطوا بالادبا والشعراء والفنانين فيغدقون عليهم حمايتهم ونعمهم. فقبل ان يغادر مدريد احب ان يستسفر عن احوال ادبائه وشعرائها الشباب ويستصحب بعضهم الى بلاطه. فلا غرو اذاً ان يقع اختياره على سرفانطيس الذي كان حينئذ في اوج الانتصار على اثر مرثيته. ولعل الكردينال ضون دييغو اسبينوثا نفسه هو الذي عرف خوليو اكوافيف

به. ولم يتردد كاتبنا في قبول الدعوة بل وجدها فرصة سانحة اتاحها له القدر ليتعرف الى عالم احلامه .

وقبل ان تنتهي سنة 1568 كان سرفانطيس يغادر التراب الاسباني وفي القلب حسرة على ما يخلفه ولهفة على ما سيلقاه، الم على ما يودعه واشتياق الى ما سيقتبله.

اجل ! ودع سرفانطيس اسبانيا وقد رآها ضيقة امام طموحه الواسع وصغيرة امام آماله العظام وسار وفي النفس امان كبار يود ان تتحق في عالم الغربة الفسيح الارجاء فيعود الى وطنه مظفرا مكللا باكاليل الغار والعظمة. غادر سرفانطيس اسبانيا كما غادر ذات يوم بطله ضون كيخوطي ـ على حد قول احد مؤرخيه ـ قريته ساعيا وراء عظمة خفية ومستقبل مجهول لاقى فيه بدلا من العز والعظمة انواعا من الضيم واصنافا من الآلام. وفي هذه الرحلة زار مدينة بلنسية وطركونة وبرشلونة وجنوب فرنسا. ثم عبر جبال الالب وبلغ مدينة ميلان اولا وبعدها روما.

وها هو ذا كاتبنا في بلاط الامير حيث كان يؤمل ان يرى العظمة منه على قاب قوسين. لكن تلك العظمة لم تكن سوى حلم من الاحلام احتل في ذهن سرفانطيس مقام

الحقيقة. وسرعان ما تبدد هذا الحلم امام يقظة الوصول فان الامير اكوافيفا بعد ان حل في قصره وانصرف الى اعماله لم يعد يعره كبير اهتمام وبقى سرفانطيس واحدا من جملة ذلك العدد الوافر من الفتيان ابناء العائلات النبيلة الذين يعج بهم بلاط الامير وكلهم يتسابقون الى خدمته وتنفيذ اوامره ولم يكن كاتبنا باعجلهم الى ذلك، فلا غرو ان يسري الى نفسه شيء من الخيبة ويستحوذ الاسى على قلبه وينهار ذلك البنيان الرفيع الذي اقامه من امان مذهبة واحلام مرصعة، لكن نفسه لم تكن لترضخ الى هذا الخمول ولا لتسكن الى هذا النسيان، فما كاد ينهار صرح آمالها حتى شرعت باقامة صرح جديد لما يتبين لها مدى ارتفاعه لكن اساسه في اعماقها قائم وعلى نبضات قلبه مستند.

ذلك الاساس هو الجيش....

سرفانطيس
جندي في جيش ايطاليا

ودع سرفانطيس قصر الامير لينخرط في الجيش لعله يجد في المغامرات الحربية ما يبرد غليل نفسه المتعطشة الى الحركة والمجد، فانخرط كجندي في الجيش الاسباني المرابط في ايطاليا تحت اوامر القائد ميغيل دي مونكادا، في سنة 1569 نفسها وبرفقة هذا الجيش تجول في كل انحاء ايطاليا فشاهد روما والبندقية وجنوة وفلورنسا وميلان ونابولي، وقد تركت هذه المشاهدات في نفسه اثرا عميقا: فرؤية الكنوز الفنية التي ملات المدن الايطالية، والاطلاع على امهات المؤلفات من الادب الكلاسيكي وادب النهضة، وجمال الطبيعة في هذه البقعة التي تعتبر من اجمل واخصب التراب الاوروبي كل هذا زاد حسه ارهافاً وتفكيره نضوجا، وان عبقريته الفطرية وذكاءه المتقد وحافظته الغريبة وذوقه الادبي الرفيع تحالفت كلها في هذا الطور من حياته فرسمت له تصميم خير مؤلفاته العاطفية.

اما المدينة التي سلبت لبه وسحرت فؤاده ـ ولعله بسبب امرأة احبها فيها اكثر منه بسبب جمالها الطبيعي ـ فهي مدينة نابولي التي حفظ لها في قلبه حتى الوفاة خير الذكريات.

وفي الخامس عشر من شهر سبتمبر (ايلول) سنة 1571 كان سرفانطيس يركب البحر على متن احدى سفن ذلك الاسطول الضخم الذي اقلع من مرسى مسينا تحت قيادة الامير ضون خوان دي اوستريا ليصطدم بالاسطول التركي في معركة ليبانطو.

الخطر التركي ـ ليبانطو

ان القرن السادس عشر شهد بلوغ السلطان التركي اوج العظمة والمجد، ففي اواسط ذلك القرن كانت تركيا من اعظم الممالك ولعلها كانت واسبانيا تحتلان اوسع امبراطوريتين عرفهما ذلك العهد، وكانت حدود الامبراطورية التركية في اوروبا تمتد من تخوم روسيا ـ التي كانت تحتل منها جزاء غير يسير ـ حتى فيينا نفسها، وفي الشرق كانت تبلغ حدود الهند ومن جهة اخرى كانت تسيطر على جميع البلدان الواقعة على شواطىء البحر المتوسط الشرقية حتى حدود المغرب الاقصى. وقد تحول اذاك قطرا الجزائر وتونس الى قواعد للقرصنة تخرج منها المراكب التركية فتغير على المراكب والشواطىء الاوروبية ثم تعود بالغنائم وبالاسارى فيباعون في اسواق الرقيق ولا ينجو منهم الا من امكن اهله افتداؤه باموال تبلغ احيانا قدرا هائلا. وقد تأسست في البلدان المسيحية رهبنات مهمتها افتداء الاسرى لما بلغ هذا الامر من خطورة. وقد كان استفحال شان القرصنة باعثا على نمو الاسطول التركي حتى اصبح قوة تخشى

اوروبا باسها بقدر ما كانت تخشى باس جيش تركيا البري. وكان امير البحر، العلج علي، هو القلب النابض واليد المحركة لهذا الاسطول. وفي عهده كانت المراكب العثمانية تمخر عباب البحر المتوسط بجرأة تزرع الرعب في قلوب سكان الشواطئ الاوروبية كلها وكفى دليلا على منعة هذا الاسطول ان اساطيل اسبانيا والبندقية وروما وفلورنسا متحدة لم تفقه في موقعة ليبانطو بعدد مراكبها وان المعركة ظلت متوازية خلال ساعات طوال.

لكنه لم يكن اذاك ما يدل على اقتراب العاصفة لان السلطان سليم الثاني كان قد عقد مع جمهورية البندقية معاهدة تجارية جرت المعاملات في ظلها بامان لايشوبه قلق. غير ان السلطان وقد رأى تلك الجمهورية في حالة ضعف كبير احب ان يسترجع جزيرة قبرص واثقا من ان اسطوله الضخم كفيل بان يضمن له استرجاعها، فوجه رسولا الى حكومتها يعرض عليها مطلبه فساء البندقيين ذلك الطلب واوشكت العامة في احتدامهم ان يقضوا على الرسول الذي اضطر ان يفر سرا، وبحجة اساءة البندقيين معاملة رسوله امر السلطان اسطوله ان يزحف على قبرص. فطلبت البندقية النجدة من الامراء

المسيحيين فلبى النداء البابا وملك اسبانيا فيليب الثاني وشرع البابا بتاسيس رابطة اوروبية لدرأ الخطر التركي لكنه لم ينضم اليها زيادة عن روما واسبانيا الا فلورنسا.

واجتمع ممثلو تلك البلدان، لكنهم لم يتفقوا على القيادة، وبينما كانوا يقضون الاسابيع والاشهر في المناقشة والمنافسة كان الاتراك يطأون شواطئ قبرص ثم يضربون حصارا شديدا حول مدينة نيغوسيا، وما عتمت ان بلغت الانباء باحتلالهم تلك المدينة مع ما رافق دخولهم اياها من فظائع واهوال. فكانت هذه الانباء حافزا لتوحيد الكلمة. وفي 20 مايو (ايار) من سنة 1571 وقع البابا بيوس الخامس وملك اسبانيا وجمهورية البندقية معاهدة واسندت القيادة الى ضون خوان دي اوستريا شقيق الملك فيليب الثاني الذي كان اذاك في الخامسة والعشرين من عمره وبعد ذلك بنحو اربعة اشهر اي في الخامس والعشرين من شهر سبتمبر (ايلول) من السنة نفسها اقلع من مرفأ مسينا اسطول الرابطة المؤلف من 300 مركب تحمل 30.000 رجل

وعلى متن احدى سفن ذلك الاسطول المسماة «لاماركيزا» ابحر الجندي ميغيل دي سرفانطيس، لكنه لم يلبث ان اصيب بحمى شديدة الوطأة اجبرته على ملازمة

الفراش طيلة ايام السفر، غير انه حين سمع الطلقة الاولى المؤذنة ببلوغ اسطول الرابطة خليج ليبانطو الذي يصل خليج كورنتيا بالبحر اليوناني هب من فراشه ناهضا وصعد مترنحا من الحمى حتى مثل بين يدي قبطانه شاحب الوجه غائر العينين مما حمل قبطانه على امره بالعودة الى الفراش، لكن كاتبنا ابى الا ان ياخذ نصيبه من شرف العراك واصر على البقاء قائلا انه يفضل الموت مجاهدا في سبيل ربه وملكه على الحياة. والح على ان يعهد اليه اخطر مكان في المركب ليحارب ويموت فيه، فما كان من القبطان الا ان نزل عند رغبته واسند اليه شغل اخطر مكان في مركبه «لاماركيزا» على رأس اثني عشر جنديا، وما ان بدأت المعركة حتى اخذ سرفانطيس يبدي من الجرأة والاقدام والحماس ما لايوصف، وبعد زمن يسير اصابه طلق ناري في صدره اسال دمه غزيرا، لكنه لم يلبث ان استجمع قواه وعاود الكرة ضاربا صفحا عن دمه المتفجر، وما مرت برهة قصيرة حتى اصابه طلق ثان في صدره، غير انه ظل ثابتا في مركزه لا تلين له قناة ولا تبدو عليه بوادي الضعف لايقيم لدمه وزنا ولا لحياته قيمة .

وبعد قليل تلقى في يده اليسرى طلقا جديدا تركها معطوبة الى آخر حياته، وكم من مرة اضطر سرفانطيس في سني حياته التعيسة ان يلوح بهذه اليد المعطوبة مذكرا، ولكن كمن ينفخ في رماد! ولم تثن جراحه الجديدة همته عن مواصلة القتال فبقي يدافع ويكافح الى ان رأى المراكب التركية تنكص اعلامها وتتراجع هزيمة. وتم النصر في هذه الموقعة لاسطول الرابطة وسقطت بين اياديه غنائم وافرة واسارى لا يحصون وافتك ثلاثة عشر الف اسير من النصارى كانوا قد ربطوا بالمراكب التركية وكلفوا بجدفها.

وها نحن نترك الكلام هنا للمؤرخ الاسباني المعاصر سباستيان خوان اربو ليصف تأثيرات سرفانطيس بعد هذه المعركة: ما كادت المعركة تنتهي ويحل الليل بظلامه حتى هبت زوبعة هوجاء وعصفت الاعاصير وابرقت السماء وارعدت وظلت الارياح تعبث طيلة الليل ببقايا السفن المكسرة وجثث القتلى والاشلاء المبعثرة والدماء العائمة التي كانت تحتل بقعة فسيحة من البحر وقد القى الليل عليها بساط رأفته، وفي ذلك البحر وذلك الليل كانت المراكب المظفرة تنشد مرفأها القريب، وها

هو ذا ميغيل سرفانطيس ممددا فوق فراشه وقد اثقلت الحمى جفونه ونشبت الام الجراح في بدنه يسمع في اعماق تلك الظلمات نشيدا محزنا يصعده من بعيد البحر الهائج ويسمع تلاطم الامواج واصطدام الارياح بالمركب الذي يحمله ودوي الرعد الذي يخنق بين فترة واخرى دوي الامواج. ولعله كان يسمع وسط هذا النشيد الوحشي المشؤوم صياح المحاربين وتجديفهم واصوات الفرح واصطدام المراكب ممزوجة بدوي الضربات وتاوهات الجرحى الذين يسقطون ليرقدوا الى الابد في جوف ذلك البحر. اجل! انه رجل سلم ومن اجل السلم وحده يقبل الحرب ويقدسها كما قال بعد ذلك بزمن طويل بلسان مجنونه النبيل . ولعله الان، وهو ينصت الى دوي العاصفة هابة على المياه المغطاة بالجثث، بعد ان هدأت حدة الدم وتلاشت نشوة الظفر وتحرر من كل شئ وارتفع الى تلك الاجواء الرفيعة التي تكاد تكون سماوية، تلك الاجواء التي عرف ان يرتفع اليها مرارا وتكرارا في صفحات كتابه الخالد، وراء الزمن والفضاء وقد تناسى حينا وطنه وشمل بفكره الانسانية جمعاء متذكرا النكبات التي خلفها وراءه ذلك اليوم

الدامي، لعله اذاك قد فكر في هذه الحاجة السرية الهائلة
الى الحروب البشرية التي تنقض على العالم كـلعنة الهية
بين حين وآخر، ولعل فؤاده قد امتلا اذاك للمرة الاولى
من الحنين الى حلم سلم وسعادة يخـيم على البشريـة
المعذبة ذلك الحلم اللذيذ الذي سيحييه يوما في مؤلـفه
«ضون كيخوطي والذي طالما لامس نفسه، ولعله لم يشعر
قط بذلك الحـلم شعوره به تلك الليلـة بينما كانت
المراكب عائدة وسط ثورة الاعاصير من مذبحة ليبانطو».

بعد المعركـــة

ما كاد نبأ النصر يبلغ ايطاليا حتى اسرعت مدنها الى اقامة الحفلات والاعياد، وعم الفرح اسبانيا ايضا، وبلغ اسكوسيانفسها، وتغنى الشعراء بذلك اليوم وحفظ الرسامون ذكره بلوحاتهم وتنافست المدن الايطالية في الاستعدادات الفخمة لاستقبال ضون خوان دي اوستريا، واستولـت على المنتصرين نشوة اذهلتهم عن الواقع فظنـوا انهـم قضوا على الاسطول التركي للابد، وصمموا على استرجاع قبرص وفتح المرافئ الافريقية، وبلغ التفاؤل بفريق منهم ان حلموا بفتح القسطنطينية وبيت المقدس لكن يـد الفرقةلم تلبث ان دخلت بينهم فلم تتعد تلك المشاريـع حدود الخيال.

ام الاتراك فما كادت تتلاشى الـدهشة الاولى التي احدثها في نفوسهم نبأ الهزيمة حتـى استرجعـوا عزيمتهم واستجمعوا قـواهم وشرعت دور الصناعـة في القسطنطينية تشغل بنشاط وعزم تحت ادارة العلج علي في تجديد الاسطول التركي، وقبل ان تنقضي سنة كان الاسطول الجديد يعاود الـكرة على المرافئ المعادية.

سرفانطيس
جريح ـ عودته الى الجيش

عاد سرفانطيس من معركة ليبانطو معطوب اليد جريح الصدر فادخل احد مستشفيات مسينا وبامر من ضون خوان دي اوستريا زيد راتبه ثلاث دكات ذهبية في الشهر.

وقد اكسبته الاقامة في مسينا معرفة باخلاق القرويين وسذاجتهم وطيب قلوبهم وحصل من معاشرتهم والاتصال بهم خبرة واسعة ومعلومات دقيقة اودعها بعد اعوام كتابه الخالد، ولاغرو ان يكون قد نظم في هذ الفترة بعض المنظومات وصرف بعض نواحي تفكيره الى الادب وشيئا من وقته في المطالعة.

وما كادت تندمل جراحه حتى احس بالرغبة في العودة الى الجيش، وفي 29 ابريل (نيسان) سنة 1572 اذا به ينخرط من جديد في كتيبة اليوزباشي مانويل ونسى دي ليون المنتمية الى فريق لوبي دي فيغيروا

سرفانطيس
يعود الى الميدان الحربى

ظن النصارى في بادىء الامر ان معركة ليبانطو قضت على سلطان الاتراك في البحر وانه لن تقوم لهم قائمة بعدها، ولكن سرعان ما خاب ظنهم وتلاشت احلامهم، فرأوا الترك ولم يمض عليهم سوى نيف وسنة قد استرجعوا نشاطهم وجددوا اساطيلهم وعادت سفائنهم تمخر عباب البحر المتوسط متصدية لمراكب النصارى وتغير على مرافئهم العديدة ملقية الرعب في قلوب سكانها، فادرك النصارى حينئذ ان الميدان مازال مفتوحا وان الحرب لم تقل كلمتها الاخيرة. ففكروا في معاودة الكرة عسى ان يقضوا هذه المرة قضاء حاسما على عدوهم الخطر، وجمع ضون خوان دي اوستريا من جديد اساطيل الرابطة في مرفأ مسينا بعد ان آب المتحالفون الى الوفاق فيما بينهم واصبح متاهبا للابحار لا ينتظر سوى الامر بالاقلاع من اخيه الملك فيليب الثاني.

لكن الدسائس لم تكن لتهدأ في البلاط الملكي

ولذلك لما وصل ضون خوان الامر بالابحار كان الطقس قد اصبح رديئا، فاقلع على كره وركب سرفانطيس هذه المرة ايضا احد مراكب ذلك الاسطول رغم يده المعطوبة

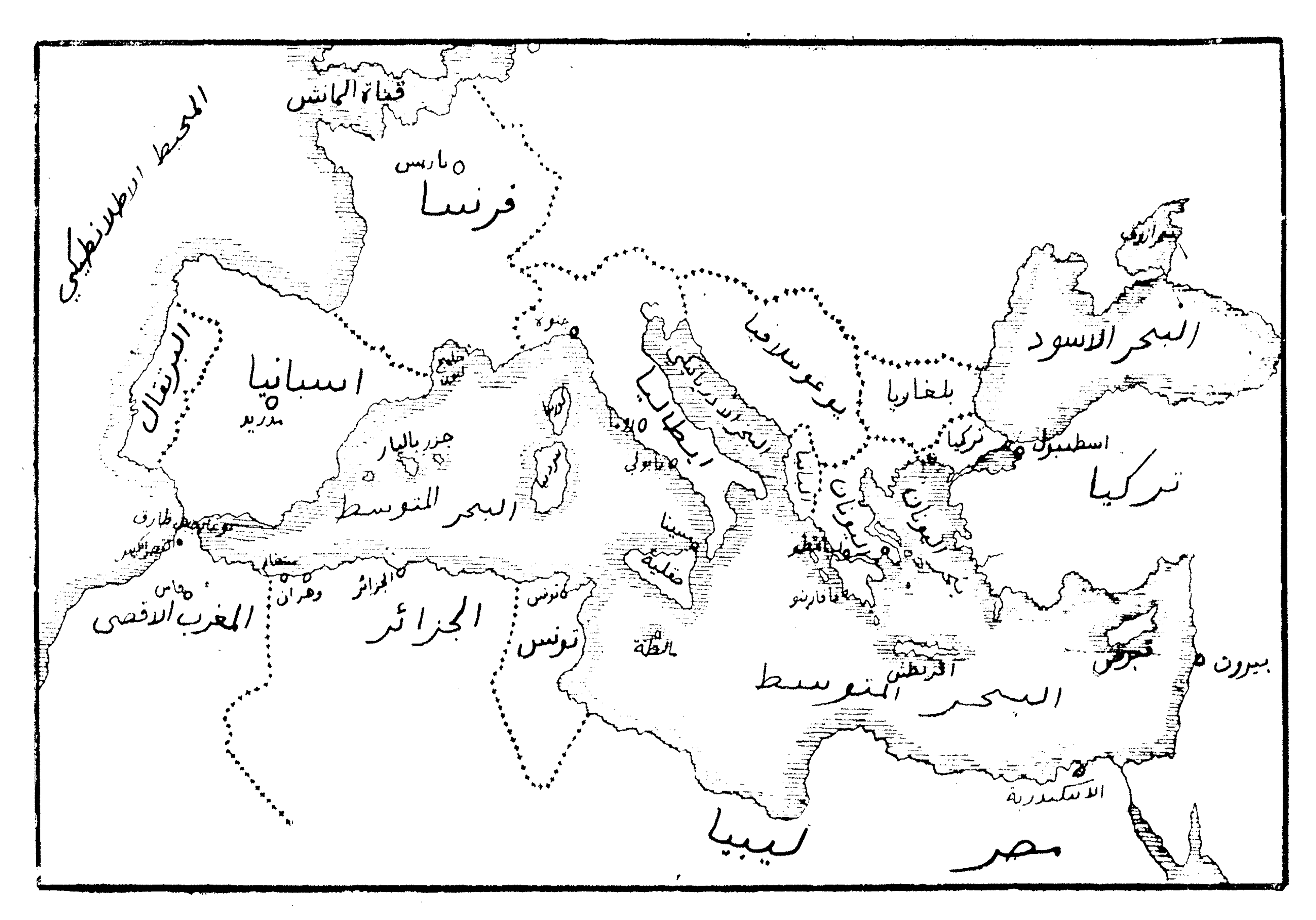
لكن هذه الحملة لم تكن موفقة واصطدم الاسطولان المعاديان في خليج نافارينو الواقع الى جانب شاطئ البيلوبونيز الغربي في اليونان، في 7 اكتوبر (تشرين الاول) من سنة 1572، ولم تسفر هذه المعركة التى عرفت في التاريخ باسم معركة نافارينو عن نتيجة معينة لاحد الجانبين، ورجعت اساطيل الرابطة الى مرفأ مسينا بعد ان فقدت عددا كبيرا من البواخر بسبب العواصف التى هبت عليها، وما كادت تبلغ ذلك المرفأ حتى فوجئ ضون خوان بنبأ عقد صلح منفرد بين البندقية والترك تخلت بمقتضاه تلك الجمهورية عن جزيرة قبرص التى تألفت الرابطة من اجل حمايتها.

وفي السنة التالية جهز ضون خوان حملة جديدة وكان سرفانطيس من جملة الجنود الذين اشتركوا فيها وتوجه الاسطول الى الشاطئ الافريقى فاحتل مدينة تونس دون كبير جهد وعناء، وكان ضون خوان يؤمل ان يمنح مملكة تونس لكن اخاه فيليب الثانى لم

يرض بذلك، وبعد ان جدد بناء حصونصا ترك فيها حامية وعاد باسطوله الى ايطاليا وعاد سرفانطيس ايضا واقام في هذه المرة في جزيرة سردينيا.

وفي سنة 1574 بينما كان ضون خوان في مدينة جنوة بلغه نبأ بان اسطولا تركيا ضخما اقلع من القسطنطينية تحت قيادة العلج على قاصدا شواطئ افريقيا، فتبادر الى ذهن القائد الاسباني ان الترك سيهجمون لامحالة على تونس، فكتب الى اخيه مستنجدا لكن الدسائس كانت تعمل عملها، وحين وصله الامر بنجدة حامية تونس كانت تلك المدينة قد سقطت بين يدي الترك منذ زمن ولاقت حاميتها اشنع ميتة.

فابحر ضون خوان وابحر معه سرفانطيس من جديد لكنه لم يكتب له النصر هذه المرة. وغرق الكثير من مراكب اسطوله وبقيت تونس بين يدي الترك وكذلك سقط بين ايديهم حصن لاغوليطا، وعاد ضون خوان الى ايطاليا خائبا، وقد تركت هذه الخسائر في نفس سرفانطيس اثرا عميقا من الاسى وبدأ يدرك مدى الدسائس والاهواء الفردية الجشعة التى لا تحجم عن التضحية بدماء الجنود المساكين في سبيل مطامعها.



خريطة البلدان الواقعة حول البحر المتوسط وفيها جرت الحوادث التاريخية الدولية المشار اليها في هذا الكتاب

في نابولى

قضى سرفانطيس ذلك الشتاء في نابولى مدينة احلامه وكان هذا آخر عهده بايطاليا، لكن هذا الطور الاخير من اقامته ترك في قلبه اثرا لن يمحى، فقد كانت نابولى عهدئذ مدينة زاخرة بالجنود الاسبانيين وبالشعراء والملاهي. وفي كل هذه الاجواء يجد سرفانطيس ما يسري عن نفسه آلام الخيبة، وفي نابولى التقى باخيه رودريغو الذي كان منخرطا في احد الجيوش ايضا، وفي نابولى اغرم كاتبنا بامرأة لم يحفظ التاريخ لنا اسمها بادلته الحب والقت على جراح قلبه المتألم بلسما عذبا ظلت ذكراه في نفسه حتى اواخر ايامه، ولعل هذا الحب هو السبب الرئيسى الذي جعله يتشوق طول حياته الى تلك المدينة الايطالية، وقد ادعى بعض المؤرخين انه رزق صبيا من تلك المرأة التي احبها ويستندون في دعواهم على ابيات له وردت في مؤلفه الشعري رحلة البارناس" وفيها يقول مشيرا الى التقائه بشاب ـ بالخيال طبعا ـ في شوارع نابولي:

، وبكل حنو عانقني صديقي، ولما صرت بين ذراعيه قال لي انه يشك ببقائي هنالك طويلا، وناداني "أبت" وناديته: "بني" وهكذا احق الحق ،

لكن هذه المسألة لما تتضح كل الوضوح،

❀ ❀ ❀

خرج سرفانطيس من وطنه منذ ثلاث سنوات سعيا وراء المجد وها هو ذا الان بعد ان اشترك بمعركة شلت فيها يده وظنها الضربة القاضية على العدو والسلم لارتقائه درجات العلى يرى آماله تنهار واحلامه تتلاشى ومعركة ليبانطو اصبحت على قربها حلما بائداً لايؤبه له، ومن الاسطول الجبار الذي انتصر في ليبانطو لم تبق سوى بقايا سفن محطمة تعود من نافارينو وتونس لكن نفس كاتبنا الوثابة لم تكن لتخلد الى الهدوء، فما كاد يسدل الستار على هذا الفصل من حياته حتى ازاحه عن مسرح آخر ليمثل عليه فصلا جديداً، اي انه بعد ان اخفق في نيل امانيه من رحلته الى ايطاليا تحولت افكاره من جديد شطر الوطن واخذ يتبادل الحديث في الموضوع مع اخيه رودريغو الى ان استقر رأيهما على العودة معا

لكنه كـان بحاجة الى رسائل توصية يحملها الى مدريد، وكـانت تربطه بالذوكى دي سيسا نائب الملـك في صقلية بعض روابط الصداقـة لعل مصدرهـا شغـف الدوكى بالادب وما ابداه كاتبنا من اقدام يوم ليبانطو، فقابله وعرض له فكرته، ويظهر ان الدوكى وافق عليها لكنه اشار عليه ان ينتظر عودة ضـون خـوان الى ايطاليا واعدا اياه بان يسهل له اذاك مقابلة الامير الفتى،

الرحيل

في اواسط يونيو (حزيران) من سنة 1575 وصل ضون خوان دي اوستريا الى نابولى وبعد وصوله بايام قلائل حظي سرفانطيس بمقابلته بواسطة الدوكي دي سيسا· وقد اسفرت المقابلة عن اعطاء الامير كاتبنا رسائل توصية الى اخيه الملك فيليب الثاني ليقلده قيادة كتيبة وهو تقليد يستحقه ـ حسبما جاء في الرسالة ـ لما ابداه من شجاعة واقدام ودل عليه من نبل وكرم واتصف به من مواهب وذكاء.

وكانت رسائل ضون خوان ورسائل الدوكي دي سيسا ويده المعطوبة كافية في ظنه ليقلد ما يتمناه فيعود للانضواء من جديد تحت لواء قائده الشاب لكن الاقدار كانت تخبئ لهما غير ما حسباه، فدفعتهما في طريقين لن يلتقيا: الواحد نحو الموت الزؤام في سهول فلانديس والاخر الى الاسر الشديد في سجون الجزائر، فكانت هذه المقابلة آخر عهدهما الواحد بالآخر.

وفي العشرين من شهر سبتمبر (ايلول) من تلـك السنة اقلعت من مرفأ نابولي السفينة صول اي (شمس) حاملة على متنها في جملة من حملتهم الجندي المعطـوب اليد ميغيل دي سرفانطيس واخاه رودريغو.

أمل خائب

اقلعت السفينة صول وبمعيتها سفينتان اخريان «لامندوثا» و «ايغيرا» والفرح يملا قلوب ركابها وبالخصوص كاتبنا الذي كان يعلل النفس بالاجتماع قريبا بالاهل والخلان بعد غياب اربع سنوات ومشاهدة تربة الوطن والحصول على امنيته الغالية التي ستساعده على نيلها رسائل التوصية التي يحملها من ايطاليا.

وبعد ان قطعت شوطا بعيدا من الطريق وتوغلت داخل خليج ليون وابصرت مرفأ المريمات الثلاث» الصغير اذا بالبحري المكلف بالحراسة فوق مقدمها يبصر في تلك الليلة وقد اشرف قمرها على المغيب اشباح سفن تركية تقترب فاخذ يصيح ملقيا الرعب بين البحارة والركاب، لكن قبطان المركب حافظ على رباطة جأشه ولم يبد ادنى خوف او قلق.

وكانت السفن التركية اربعة يقودها امير القرصنة الجزائرية ارناؤوط مامي، وقد خرجت من الجزائر كعادتها تبحث عن سفن نصرانية لتنقض عليها، وكانت السفينة «صول» قد سبقت رفيقتيها فاصبحت منفردة،

ولما ابصر قبطانها الخطر حاول ان يبلغ بها الشاطئ قبل ان يدركها القراصنة فأمر برفع الشراع واعداد المدفعية بقصد ان يمر بين السفن التركية مسرعاً بينما المدفعية تطلق عليها نيرانها. لكنه لم يتمكن من تنفيذ خطته لان الارياح هدأت فجأة وبقيت السفينة في مأزق حرج، غير ان الترك لم يحركوا ساكنا في الليل بل اقتصروا على مراقبتها الى ان اصبح الصباح. واذاك ارسلوا وفدا على فلك صغير يدعو قبطان المركب الاسباني الى الاستسلام فرفض الاجابة الى طلبهم واستعد للمدافعة.

وكان ذلك في السادس والعشرين من سبتمبر (ايلول) وبعد قليل بدأت المعركة وظلت ناشبة من الفجر حتى المغيب. وابدت السفينة جرأة كبيرة في مدافعة السفن التركية الاربع وصمدت في وجهها النهار كله، وابلى سرفانطيس في هذا اليوم ابلاءه في معركة ليبانطو وظل يكافح حتى الليل اذ بدأت النيران تدب في السفينة من جهاتها الاربع وقتل معظم رجالها وتعطلت مدافعها وتمزقت قلوعها ولم يبق في الامكان اخماد النيران المندلعة الالسن، واذاك فهم سرفانطيس ان كل

شيء قد انتهى وانه لم يبق له من الواقع المر الاليم مفر ولا نجاة.

وماهو الا القليل حتى رأى احدى السفن التركية تتقدم الى المركب الاسباني ويصعد رجالها الى متنه، فيستولون على كل ما فيه من اناس وغنائم. ومن جملة الذين لم يلاقوا حتفهم فسقطوا اسارى كاتبنا ميغيل واخوه رودريغو، وانها والحق يقال لساعة اليمة تلك التي ابصر نفسه فيها يقيد كالعبيد وينقل الى السفينة التركية كما تنقل السلع ليباع فيما بعد او يتاجر به في اسواق الجزائر والقسطنطينية، وها هي احلامه تتبدد كالسحاب وآماله تنقشع كالغيوم وافراحه تذوب كالثلج تحت حرارة الشمس. وها هو ذا حاجز حصين يرتفع بينه وبين الوطن ووراء هذا الحاجز ليل الاسر المظلم الذي لايدرك نهايته سوى عالم الغيب، فلا يتمالك عن ان تمر امام عينيه تلك الصور المؤلمة المخيفة : صور الاسارى المشدودين الى مقاعد المراكب ليجدفوا ساعات تلو ساعات دون ان يكل لهم ساعد او تهدأ لهم يد وويل لمن تقاعس فجزاءه ان يكون غداء الحيتان وصور الاسارى الذين يحاولون الفرار يموتون فوق المشانق

والخـوازيق، وصور الجلد والتعذيب والنزاع البطـيء في مطامير الجزائر المظلمة، وكم من مرة سمـع الاسارى المفتكين يقصون على مسمعيه هذه المشاهد فاقشعـر لها بدنه وذابت لها نفسه الما وحسرة، واذا بالاقدار ترمي به الان وسط هذا العالم الذي كان يخشاه ويحارب للقضاء عليه، وعوضا عن مشاهدة الوطن والاهل ونيل الامنيـة المنشودة ها هو ذا يلقى الاسر مع ما يخبئ وراه مـن الام. واهوال.

الفصل الثاني

في الاسر

الجزائر

قضى سرفانطيس ساعات في حالة ذهول عميق لم يشعر خلالها بما جرى حوله ولا باقتراع الاسارى ووقوعه في نصيب «دالي مالي» شقيق ارناؤوط مالـي واقسى القراصنة قلبا واغلظهم معاملة، ولما استفاق من ذهولـه ابصر الى جانبه اخاه رودريغـو وبعض رفقـاء رحلتـه، والكل مقيد بقيود غليظة لكن قيوده اعظمها واوثقها ففهم ان سبب ذلك رسائل التوصية التي كان يحملها وعليهـا توقيع ضون خوان دي اوستريا مما حمل القراصنة على الظن بان حاملها ذو مكانة رفيعة وان في الامكان قبض كمية وافرة مقابل افتكاكه. عبث الدهر الخؤون! يقدم للمرء كأس الحلاوة حتى اذا قاربت شفتاه انقلبت علقما وما كان بالامس محط الامل لنيل العلى اذا به اليوم سبب في التضييق والتشديد.

❀ ❀ ❀

ما كادت السفن التركية تبلغ مرفأ الجزائر حتـى انتشر الخبر في المدينة كالبرق فاقبل الناس زرافـات ووحدانا كعادتهم كلما عاد القراصنة مـن غزواتهـم

ليتفرجوا على الاسارى والغنائم، وكانت عودة القراصنة كالاعياد في حياة الجزائـر ويعم الفرح الجميع لان كـل واحد يرى سبيلا للكسب والطرب.

ونزل رؤساء المراكب ثم انزل الاسارى واقتيد كل الى سجن مولاه، وكانت دار دالي مامي واقعة في الناحية المرتفعة من الجزائر وفي منتهاها مطمورة يئن في داخلها مئات من المساجين الاسبان، واليهـا سيق سرفانطيس، وبعد ان ربطت قيوده برزات مدقوقة في حائط المطمورة ترك في تلك البؤرة المظلمة العفنة التي لايكاد يدخلها النور يحرق الارم الما وغيظا ويبلل بدموعه تلك التربة القاسية التي سيفترشها في اسره المر.

اما اخوه رودريغو فوقع في نصيب اميـر الجزائـر رمضان باشا.

❀ ❀ ❀

لا نعلم بالضبط كم من الزمن امضى سرفـانطيس في حبسه المظلم محروما من الاتصال بالعالم ومن استنشاق الهواء النقى مكبلا بالقيود الثقيلة، وسبب هذه المعاملـة الشاذة كما قلنا قبل رسائل التوصية التي كان يحملها وخوفا عليه من الفرار امر سيده بزجه في تلك المطمورة

المظلمة. لكن نفس كاتبنا التواقة الى الحرية كانت من تلك الحالة في جحيم، وفقد كل شهوة للطعام وهزل جسمه هزالا ادخل الخوف على حياته في قلوب حراسه من ان يودي ذلك الضعف بحياته فينقم عليهم مولاهم دالى مامى اذا خسر ما يؤمله من دية لافتكاكه، وويل لهم من نقمته! فاسرعوا الى ابلاغه حالة الاسير فامر بان يخفف من قيوده ولم يلبث ان سمح له بالخروج الى المدينة والتجول في شوارعها، فكان ذلك القسط اليسير من الحرية بلسما لنفسه المعذبة وباب فرج امام عينيه وحافزا لهمته للسعي رغم الاخطار العظيمة عن سبيل الحرية لانه حسبما قال فيما بعد في كتابه الخالد «في سبيل الحرية وحدها يمكن ويجب بذل الحياة». وفكرة الحصول على الحرية ستكون شغله الشاغل خلال سنوات اسره الخمس.

وقد قال فيما بعد «لم آيس قط من الحصول على الحرية، وكنت اذا عرض لي خاطر وفكرت فيه مليا وباشرت تنفيذه ثم جاء الواقع مخالفا لمبتغاي لا اتراجع ولا الين بل ابحث عن امل آخر استند عليه مهما كان ضئيلا وهزيلا». ويقول الاب هايدو في تاريخ الجزائر «انه كاد يفقد الحياة اربع مرات فوق الخازوق او مبقورا

بالكلاب او محروقا حيا . وكانت هذه هى الميتات الثلاث التى تستعمل للاعدام والثانية اشنعها وهى عبارة عن نوع من المشنقة غرز في وسطها كلاب حاد من الفولاذ فيعرى المحكوم عليه وتكتف يداه على ظهره ويرفع بالحبل حتى اعلى المشنقة ثم يفلت فيسقط ويعلق الكلاب بذراعه او بساقه او ببطنه ويبقى يتلوى على هذه الحالة حتى يلفظ النفس الاخير.

فهذه الميتات الشنيعة ابصرها سرفانطيس بام عينيه لكنها لم تكن لتوهن عزمه وتثنى همته عن تدبير الحيل للفرار، فكلما اخفقت حيلة عاد الى تدبير غيرها وهو اقوى املا واشد عزما واكثر ثقة بالنجاح.

المحاولة الاولى

لم يكن قد انقضى على سرفانطيس في الاسر سوى بضعة اشهر حين دبر الحيلة الاولى للفرار. فذات ليلة استدعى بضعة اصحاب له وافشى اليهم بقصده، واتفقوا سرا على تنفيذ الحيلة وكان عددهم لايتجاوز الثمانية، وكانت الخطة التي رسمها سرفانطيس تقوم على الفرار عن طريق البر الى مدينة وهران التي كانت حينئذ واقعة تحت حكم الاسبان. ولكن العقبات في سبيل تنفيذ هذه الخطة كانت عديدة، فالطريق وعرة المسلك محفوفة بالاخطار وحراس الحدود لايغمض لهم جفن والبدو يخيمون في تلك الجهات ولايسهون عن مطاردة الاسارى الفارين مقابل مكافآت ينالونها. اما العقبة الكؤود فهي جهلهم الطريق، وحاجتهم الى دليل وفي يقودهم الى وهران فالخطة اذاً لم تكن بسهلة التنفيذ ولا بمضمونة النجاح لكن نفس سرفانطيس الكبيرة المعذبة في الاسر جعلته يغض الطرف عن بقية الاخطار بعد ان اتصل باحد المسلمين واكتسب ثقته واتفق معه على ان يكون دليلا له ولرفاقه في هذه المغامرة التى وراءها الحرية المنشودة او الموت الزؤام.

وفي اليوم المعين اجتمع سرفانطيس ورفاقه العازمون على الفرار وتزودوا بما قدروا على جمعه من الزاد والاحذية وتنكروا بزي المسلمين، وباشروا السير ليلا وما ان جازوا المروج المحيطة بالجزائر حتى تصدت لهم المسالك الوعرة والبراري الخشنة .المغطاة بالاشواك والصخور وواصلوا المشي طيلة الليل رغم العقبات كلها فاصبحوا منهوكي القوى خائر العزم متورمي الارجل يكادون لايقوون على مواصلة السير.

وبعد ان بلغوا احد الاماكن ابصروا الدليل يتردد متحيرا يقدم رجلا ويؤخر اخرى وقد التبست عليه الطريق، فاصبح من امره في حيرة كبيرة، وما عتم ان صرح لهم.بحيرته واشكال الامر عليه وحاجته الى العودة على عقبه ليسترشد بمن له بتلك الاراضي معرفة ثابتة فلم ير هؤلاء مخرجا سوى النزول عند رغبته، فابتعد عنهم ابتعاد غراب نوح.

مرت ساعة وتلتها ساعة اخرى ومن بعدها ساعات وهم ينتظرون عودة الدليل، ولما اخذت الشمس تميل الى المغيب بدأت امالهم برؤيته تتلاشى وما ان حل الليل بظلامه حتى فقدوا كل امل واظلمت الدنيا في

وجوههم اذ ما عساهم ان يفعلوا الان؟ ان واصلوا السير نحو وهران بلا دليل فذلك معناه الموت الاكيد، وان عادوا الى الجزائر فالموت في انتظارهم ايضا ولكن قد يسعدهم الحظ باختلاق معذرة تبرر تغيبهم ان امكنهم ان يبلغوا المدينة دون ان يلقى القبض عليهم فبعد اخذ ورد قرروا العودة وفي تلك الليلة نفسها سلكوا طريق الاياب.

وهكذا فشلت المحاولة الاولى للفرار.

اما كيف بلغوا الجزائر في اوبتهم وما اختلقوه من اعذار مقنعة دفعا لكل عقوبة فذلك ما لانعلمه بالتفصيل وكل ما في علمنا هو انهم لم يعذبوا وانما نعرف مما رواه سرفانطيس انه اودع السجن وفرضت عليه مراقبة اقسى واضيق مما كان عليه في حاله الاولى، ولعل السبب في عدم معاقبتم بالجلد والتعذيب او غير ذلك حسب نعليل بعض المؤرخين ان امير الجزائر الذي لم يكن من القساوة في درجة خلفه حسان باشا . كان يستعد في تلك الاونة لتسليم مقالد الحكم الى خلفه المذكور الذي كان ينتظر وصوله بين حين وآخر.

ومع هذا كله فقد خيم الظلام من جديد على نفس سرفانطيس وحياته.

مساعى عائلة سرفانطيس لافتكاكه من الاسر

في سنة 1596 افتك بعض الاسارى الاسبان ومن جملتهم الفارس عبربال دي كاسطنببدا. وقبل ان يغادر الجزائر حمله سرفانطيس رسالة الى والديه، بشكو اليهما فيها مرارة الاسر ويدلهما على الطرق التي يجدر بهما ان يسلكاها لنجاح مسعاهما. وكانت رسالة ميغيل تمليها نفس معذبة يحز الالم في اعماقها لانه قد ضيق عليه تضييقا شديدا بعد محاولته الفرار. ويقول احد الاسارى المسمى خوان بالكارسيل في مذكراته انه سمعه يشكو مرارا من سوء معاملة مولاه له. ويستفاد من احدى الوثائق انه اضطر ان يقترض مالا لياكل لان مولاه لم يكن ليعطيه طعاما ولا لباسا.

ويظهر ان كاسطنييدا دخل اسبانيا في اواسط السنة وما كاد يبلغ مدريد حتى قصد توا عائلة سرفانطيس ليبلغها رسالته ويعلمها بحالته وحال اخيه.

وبوسعنا ان نقدر ما تحدثه هذه المفاجأة في قلوب افراد تلك العائلة من فرح وألم ممتزجين : فرح بالعلم

بان الاخوين اللذين انقطعت اخبارهما منذ أسرت السفينة صول. ما زالا على قيد الحياة. والم لما يسمعونه من تفاصيل عن تلك العيشة البائسة المحفوفة بالاخطار والمهددة بالموت في كل اونة.

وكانت العائلة كعادتها في حالة مادية صعبة لكن الامل بافتكاك الولدين الاسيرين جعلها تتغلب على العقبات وحملها على التضحية بكل غال ورخيص. فرهن الابوان بقية ثروتهما الضئيلة وتنازلت الاختان عن مهريهما لجمع الكمية الكافية لافتداء الاخوين.

لكن كل ما جمعوه بشق النفس وعظيم التضحية لم يكن بالشيء الكثير اذا قيس بالكمية المطلوبة للفدية، فلم يكن اذاك بد من افراغ جعبة الوسائل كلها: من طلب توصيات والحاح وجهد واجهاد، وعملت العائلة بمقتضى نصائح ميغيل في رسالته، وزيادة في التاثير ارتدت امه ملابس الارامل واستصحبت ابنتيها وبدأت تطوف على ابواب العظماء مستعطفة مستنجدة وكان ميغيل يلح في رسالته ان يقصدوا خاصة ضون خوان دي اوستريا.

غير ان الحالة السياسية في اسبانيا كانت غير

مستقرة لان ثورة فلانديس ـ التي كانت تدعمها انكلترا وفرنسا في الخفاء ـ على الحكم الاسباني كانت على ازدياد بحيث لم ينجح في تهدئة الخواطر واحد من التدابير المتخذة، فلا غرو ألا يعار كبير اهتمام لمصير الخمسة وعشرين الف اسير الذين كانوا يموتون موتا بطيئا في مطامير الجزائر ولا غرو ان تذهب سدى دموع ضونيا ليونور والدة كاتبنا ودموع بنتيها، اما ضون خوان دي اوستريا فلم تتمكن من مقابلته.

وفي نهاية الامر جمعت العائلة بعد بذلها كل تضحية ما قدرت عليه من المال وتوجهت الام مصحوبة ببنتيها وكلهن مرتديات لباس الحداد الى دير لامرسيد ودفعن ما جمعنه الى الراهب خورخي دي اوليفار الذى عينته رهبنته تلك السنة لافتداء الاسارى واوصينه بميغيل خاصة لان الانباء التي كانت تبلغهن عن تصرفاته وعن تعرضه الدائم للاخطار كانت تجعلهن يقلقن عليه اكثر من قلقهن على اخيه رودريغو فلذا كان همهن الان افتداءه اولا، وبعد ذلك يفكر في افتداء رودريغو.

وبعد ايام قلائل ابحر الراهب نحو الجزائر حاملا ثروة آل سرفانطيس وآمالهم.

افتداء رودريغو
المحاولات الجديدة

ما ان حل الراهب خورخي دي اوليفار في الجزائر حتى شرع بالمفاوضات مع موالي الاسارى لافتداء من يقدر عليه، ولم يلبث ميغيل ان اتصل به ونفسه مفعمة بامل في نيل الحرية عاجلا، لكن آماله خابت حين علم مبلغ ما دفعته الى الراهب عائلته، فانه وان كان عظيما اذا قيس بثروتها فانه ضئيل جدا اذا قيس بما يطلبه مولاه دالي مالي. ولم تسفر مساعي الراهب عن نتيجة في هذا الباب لان دالي مالي كان اذاك غائبا عن الجزائر في احدى جولاته البحرية المعتادة على رأس قراصنته وقد ترك تعليمات حاسمة لنوابه بان لا يطلق سراح اسيره باقل من الفدية المعينة، ولما رأى ميغيل انه لاسبيل لاطلاق سراحه قرر ان يفتدى بالمبلغ المرسل اخوه رودريغو عسى ان يكون ذلك الخطوة الاولى في سبيل تنفيذ مشروع جديد للفرار كان قد اعده من ذي قبل.

وخبر هذا المشروع هو انه كانت لحاكم مدينة الجزائر دار تقع شرقي المدينة على فرسخ منها، وكانت تحيط بالدار حديقة فسيحة الارجاء كثيفة الاشجار يعتني بها اسير اسباني نافاري الاصل يدعى خوان. فاستحكمت بينه وبين ميغيل سرفانطيس صداقة منينة وزار ميغيل الحديقة وتفقد انحاءها. وكان في طرفها كهف واسع لا يعرف بوجوده الا القليلون. فرأى كاتبنا في الكهف وكثافة الحديقة وموقعها طريقا سهلا لتدبير حيلة جديدة للفرار. وكانت هذه تقوم على ان يقترب ليلا من الشاطئ بالقرب من الكهف مركب اسباني يقوده بحري ماهر عالم بتلك الانحاء، ويومي الى الاسارى المختبئين في الكهف باشارة معهودة فيغادرون الكهف ويسرعون الى المركب ثم يقلع هذا موليا وجهه شطر اسبانيا.

وكان سرفانطيس قد ادلى بمشروعه هذا الى عدد من الاسارى ومن بينهم من ينتمون الى كبار العائلات فوافقوا عليه، ووافق ايضا البستاني خوان على ان يكون من جملة الفارين.

وحيث كان هذا المشروع قد اعد قبل وصول الراهب خورخي دي اوليفار رأى ميغيل ان اطلاق سراح

اخيه سيساعده على تنفيذه لانه سيقدر اداك ان يعهد اليه بالقيام بكل ما يوصيه به لنجاح المشروع، ثم استحصل على رسائل توصية من ضون انطونيو دي طوليدو من عائلة الدوكي دي البا ومن ضون فرنسيسكو دي فالنسيا وكلاهما من فرسان سان خوان الى نواب الملك في بلنسية وميورقة ويابسة يرجوانهم فيها ان يبذلوا الجهد في ارسال مركب مسلح باقرب وقت ممكن الى الجزائر ودفع الرسائل الى اخيه واوصاه بما يجب عليه ان يعمله لينجح في مهمته بعد ان يبلغ مدينة بلنسية او جزيرة ميورقة.

❁ ❁ ❁

كان الرهبان الافتدائيون قد فرغوا من جميع المعاملات وتاهبوا لمغادرة المدينة بالاسرى المفتدين. لكنهم فوجئوا بوصول امير الجزائر الجديد حسان باشا الذي كان في اول امره نصرانيا من البندقية ثم جحد النصرانية واعتنق الاسلام وبلغ بدهائه هذا المنصب الرفيع وفاق من سبقه من الامراء والقراصنة بالظلم والاستبدادوالقساوة وقبل ان يقلع المركب حاملا الرهبان والاسارى المفتدين اصدر حسان باشا امرا بان يسلم اليه الكاهن فيانويفا

والفارس تامورا بدعوى انهما اهانا بعض المسلمين وان يحرقا حيين، فخاف الرهبان الافتدائيون على الاسيرين واخرجوهما سرا من الجزائر، فثارت ثائرة الامير وتهدد بان يصب نقمته على الاسارى اجمعين واذاك تقدم الراهب خورخي دي اوليفار وعرض نفسه رهينة بدل الاسيرين المهددين بالموت، فقبل حسان باشا لما رآه في اسر الراهب من باب للمكسب لان رهبنة الافتدائيين لن تحجم عن بذل الفدية مهما عظمت مقابل افتكاك رئيسها خورخي دي اوليفار. فزج في السجن وكبل بالقيود، بينما كان المركب يقلع من مرفأ الجزائر حاملا عددا كبيرا من الاسارى المفتدين ومن جملتهم رودريغو دي سرفانطيس ومعه رسائل ميغيل، وكان من جملتهم ايضا اسير آخر يدعى فيانا، وكان هذا بحريا ماهرا ومغامرا مقداما عالما بشواطئ افريقيا، وقد تعهد بان يتولى قيادة المركب الذي سيوجه من اسبانيا الى الجزائر لتنفيذ خطة سرفانطيس.

وبعد ذلك بنحو اربعة اشهر اقلع من ميورقة شطر الجزائر مركب مسلح يقوده البحري فيانا

أمل يخيب

حوالي العشرين من شهر سبتمبر من تلك السنة تلقى سرفانطيس علما بان المركب الذي يقوده البحري فيانا اقلع من ميورقة. فاخذ يسرع في اتخاد التدابير النهائية واعداد العدة للفرار حين يبصر العلامة المتفق عليها المؤذنة بوصول المركب. وكان الاسارى العازمون على الفرار مجتمعين في الكهف وقد مضى على بعضهم مدة طويلة فيه فهزلت ابدانهم وانحطت قواهم لانهم لم يكونوا يجرأون على الخروج لاستنشاق الهواء الا في الليل واحدا واحدا لئلا يثيروا الريبة او يقع عليهم بصر المسلمين وكان سرفانطيس خلال هذه المدة كلها يتعهدهم بما يحتاجون اليه من مأكل وملبس بعاونه في مهمته هذه البستاني خوان وجاحد اسباني اصله من مليلية يلقب بدورادور.

وفي ليلة 28 سبتمبر بلغ المركب المنتظر شاطئ الجزائر وابصر سرفانطيس علامة التعارف فخفق لها قلبه طربا، واقبل على رفقاء اسره ينبئهم بالخبر ويدعوهم الى الخروج من مخبئهم والاسراع الى المركب.

ونزل بعض البحارة الى الشاطئ ينتظرون الاسارى لينقلوهم حال وصولهم الى السفينة، ولكن وقع ما لم يكن في الحسبان، وذلك ان بعض الجزائريين مروا حينئذ صدفة بتلك الناحية فشاهدوا البحارة والمركب، فداخلهم الريب واطلقوا ارجلهم للريح يفشون الخبر في المدينة وقد كان بوسع الاسارى ان يركبوا السفينة ويفروا قبل ان يصل النبأ الى المدينة وتأتي النجدة، لكن الذهول الذي احدثته في نفوس البحارة تلك المفاجأة جعلتهم يركبون السفينة ويبتعدون بها على عجل ووقع الاسارى في حيص بيص، ورأى سرفانطيس ما شيده من آمال عظام ينهار من جديد ولايبقى بين يديه سوى مرارة الخيبة والم الفشل الذريع.

وما ان ابصر الاسارى السفينة تعود على اعقابها حتى هرعوا الى مخبئهم واجمين وقد احسوا بسيف الموت مصلتا فوق رؤوسهم، لكن نفس سرفانطيس الكبيرة التي لم يكن الخوف ليعرف اليها منفذا القت عليهم درسا في رباطة الجأش وبذل الذات وانعشت نفوسهم اليائسة بنور تضحيتها، فطمأنهم بقوله انه يأخذ على عاتقه تبعة كل هذا المشروع فلا داعي لهم الى الخوف واليأس

غير ان نفس ميغيل لم تكن في اعماقها مطمئنة الى نتيجة هذه المغامرة، وبدأت تساورها الشكوك، ولعله بدأ يقض عليه مضجعه شبح الخيانة مجسما في شخص ذلك الجاحد المسمى دورادور ولم تكن ظنونه خطئة فان دورادور بعد ان ساعده طيلة تلك المدة لتنفيذ خطته اذا به الان ينقلب عليه وعلى رفاقه، ولعله وقد اكتشف امر المركب ظن ان المشروع سينكشف بكامله فتلحقه العقوبة كالاخرين فظهر له ان يسبق الحوادث قبل ان تسبقه ويكون هو المخبر قبل ان يكون المخبر عنه، وفي 30 سبتمبر اي بعد وصول المركب بيومين التمس مقابلة الامير ليفشي اليه بسر خطير، فاستقبله حسان باشا وانصت اليه، فاعلمه دورادور بالقضية من الفها الى يائها وان الاسارى مختبئون في الكهف وان سرفانطيس هو قلب تلك الخطة النابض ودماغها المفكر.

وكان حسان باشا كما قلنا سابقا من اقسى القراصنة واغلظهم وقدسجل في سنوات امارته ابشع صفحة في تاريخ الجزائر بفظاظته وقساوته في معاملة الاسارى النصارى، ولعل السر في هذه القساوة رغبته في ان يبرهن للترك وللمسلمين كافة بانه قطع كل صلة بالنصرانية

واتباعها لانه كما ذكرنا ايضا كان نصراني الاصل من البندقية، فوقع اسيرا بين يدي العلج علي ثم جحد النصرانية واكتسب ثقة مولاه وبمساعدته بلغ هذا المنصب الرفيع، ويقول سرفانطيس في مذكراته انه لم يكن يمضي يوم دون ان يبرد حسان باشا غليله في تعذيب او اعدام احد الاسارى لاتفه الاسباب او بدون سبب البتة، فمن السهل ان نتصور ما احدثه هذا النبأ في نفسه من غضب ممزوج بالفرح لان العادة كانت بينهم في ان الاسارى الذين يقبض عليهم وهم يحاولون الفرار يقعون تحت سلطة الامير مباشرة فيصير من حقه ان يعاقبهم على هواه دون ما التفات الى مواليهم.

ولذلك ما كاد يفشى اليه بهذا الخبر حتى امر رئيس حرسه بان يسير على رأس عشرة خيالة واربعة وعشرين رجالة مصحوبين بالدورادور كدليل الى بستان الحاكم حيث الاسارى مختبئون، ويأتي بهم مكبلين بالحديد، فتوجه الجنود ورئيسهم الى المكان المعهود، وعند وصولهم القوا القبض على البستاني خوان ثم تقدموا الى الكهف، وما ان بلغوه حتى تصدى لهم سرفانطيس قائلا ان التبعة في كل ما جرى تقع عليه وحده، اما

هؤلاء النصارى فليس لاحد منهم ذنب يعاقب عليه، فدهش رئيس الجنود لرباطة جأشه وارسل واحدامنهم يعلم الامير بما وقع، فعاد الجندي يحمل امرا دزج الجميع في السجن وسوق سرفانطيس امام الامير، فقيدوا يديه ورجليه واقتادوه بين خيالين في شوارع المدينة الى قصر الامير.

على هذه الحالة اخترق شوارع المدينة، والله يعلم كم كان الالم يحز في نفسه وهو يسير مكبلا بالحديد عرضة لهزء الصبيان وسخريتهم ليمثل بين يدي أمير عتي لايعرف للشفقة وجها ويسمع من شفتيه العقوبة المفروضة عليه لمخالفته الجسيمة، ولم يكن بوسع ميغيل وهو العارف باستبداد الامير ان يتصور عقوبة غير الموت الشنيع على احدى الصور المألوفة، لكن رباطة جأشه لم تغادره وقناته لم تلن ولا خفف الخطر من حدة عزمه فما ان مثل امام الامير حتى ردد على مسمعيه ما صرح به امام الجنود وهو انه هو المسؤول وحده عن تنظيم المحاولة للفرار وان الاخرين لايد لهم البتة في هذا كله، وخلافا لما كان ينتظره الجميع وفي مقدمتهم سرفانطيس ذاته اقتصر الامير على اصدار امره بان يحبس في سجن الامير نفسه.

وبينما كان ميغيل ورفقاؤه يودعون السجن كان الجزء الثاني من المأساة يتمثل على الشاطئ وهو ان المركب الذي جاء بالامس لنقل سرفانطيس ورفاقه ثم ابتعد حين اكتشف امره لم يقلع عن تنفيذ المشروع: وابصر الترك عن بعد انه لم يغادر تلك الناحية نهائيا ففطنوا لقصده ودبروا حيلة لايقاع بحارته في الشرك، فخبأوا بعض الجنود على الشاطئ ولما نزل البحارة الى البر خرج الجنود من مخابئهم وانقضوا عليهم وامسكوهم ومن جملتهم فيانا نفسه، وهكذا انتهت هذه الصفحة.

❀

دخل ميغيل المطمورة منتظرا ان ينقل منها الى ساحة الاعدام بين ساعة واخرى، وانقضت بضعة ايام وهو يرى الموت بين جفونه، وذات يوم دخل المطمورة بعض الجنود وفكوا قيوده وامروه ان يتبعهم، فتقدم ميغيل بخطى ثابتة حاسبا انه الى الموت يسير.

لكن ساعته كانت لم تدق بعد فقد اختارت يد القدر ذلك اليوم ضحية أخرى، وما تلك الضحية سوى البستاني خوان الذي كان في طليعة المشتركين بمحاولة الفرار، ولعله يعد سرفانطيس المسؤول الاكبر عن كل

ما جرى بتسهيله للاسارى المغارة التي كانت في البستان المعهودة حراسته اليه· ولذا طلب مولاه من الامير ان يسمح له بتنفيذ حكم الاعدام بيده وها هو ذا سرفانطيس وبقية المساجين يقتادون ليروا كيف يعدم البستاني ولتكون هذه المشاهدة لنفوسهم عبرة ولجماحهم كابحا ولحماسهم رادعا.

وكان المشهد رهيبا مريعا احس خلاله سرفانطيس بنفسه تطير من جسمه وباحشائه تتقطع اسى وحزنا واحس بالساعات كأنها قرون· وشاهد كيف نصب الحبل فوق غصن من احدى الشجرات العالية في بستان الحاكم وكيف ربطت احدى رجلي ذلك المسكين وكيف كان يرفع حتى اعلى الغصن ثم يفلت الحبل حتى يبلغ الارض مرارا ومرارا، ثم شاهد ورفاقه كيف بقي على هذه الحالة معلقا في الجو يتلوى ويتاوه الى ان فارق الحياة.

وعاد سرفانطيس الى مطمورته وكأن لسانه قد انعقد ونفسه قد افلتت، وغمره حزن عميق زاده شدة تفكيره بان هذا المسكين قد لاقى حتفه بسببه· وبعد ان مرت ايام عديدة اخذ ميغيل يستفيق من شبه سبات عميق واخذت نفسه تنفتح للحياة من جديد وتحس

بالكيان الذي يحيط بها، واول ما بادر الى خاطره التفكير بالفرار، لان نيل الحرية كان كما قلنا شغله الشاغل وفكرته الثابتة، والاهوال التى مر بها في محاولتيه السابقتين لم يكن من شأنها الا ان تزيده عزما واقداما.

وكانت مطمورة الامير اقبح مطامير المدينة كما كان هو نفسه اقسى الناس قلبا، ويقول سرفانطيس بهذا الصدد:
انه وان كان الجوع والعري يتعبابننا احيانا بل غالبا لم يكن ليتعبنا شيء مثل ان نسمع ونرى كل يوم الفظائع المنعدمة النظير التي كان الملك حسان يرتكبها في معاملته النصارى، ففي كل يوم يشنق واحدا او يخوزق آخر او يقطع اذن ثالث وكل هذا لاتفه الاسباب ان لم نقل بلا سبب البتة بحيث ان الاتراك نفسهم كانوا يعلمون انه انما كان يفعل ذلك حبا بفعله لاغير ولان القتل من طبيعته . لكن ميغيل الذي شاهد هذه الفظائع بام عينيه لم يكن لتلين له قناة او ليتراجع عن عزمه، ولم يكن حسان باشا ليطمئن اليه ان لم يكن تحت رقابته الشديدة فاشتراه من مولاه دالي مالي بخمسمائة دينار وكان يقول: متى ضمنت هذا الاسبني لمعطوب ضمنت النصارى كلهم بل والمدينة كلها ايضا،

المحاولة الثالثة

قلنا ان ميغيل ما كاد يستفيق من هذا الذهول الذي اعقب المأساة التي ختمت بها محاولته الثانية للفرار حتى شرع يفكر بحيلة جديدة، وكأنه هذه المرة ابصر نور الفرج يشع من جهة وهران التي فكر بالفرار اليها في محاولته الاولى، وهو يعلم الان ان حاكمها ضون مارتين دي قرطبة كان لعشرين سنة خلت اسيرا مثله في الجزائر، وقد سجل خلال اسره صفحة مجيدة من صفحات الشجاعة والاقدام لما يزل ذكرها يتردد على شفاه سكان المدينة من اسارى ومسلمين، فهو لاشك يقدر الامور حق قدرها ولن يتردد عن مساعدة فريق من الاسارى يبغون النجاة والفرار.

ولاحت لميغيل هذه الفكرة كأنها نجمة الخلاص فسار وراءها مؤملا، وكتب رسالة مسهبة الى ضون مارتين دي قرطبة يسأله فيها ان يبعث ببعض رجال من ذوي ثقته تكون لهم خبرة بتلك الاراضي ليساعدوه على الفرار مع بعض الاسارى الاخرين، ودفع الرسالة الى رجل مسلم كان قد اتصل به واكتسب ثقته، فخرج الرسول لكنه ما

كاد يبلغ ابواب المدينة حتى اوقفه الحراس لريبتهم في امره، وفتشوه فعثروا على الرسالة وعليها توقيع ميغيل دي سرفانطيس فرفع الامر الى حسان باشا، فامر به ان يعدم على الخازوق، فلفظ انفاسه الاخيرة دون ان يفشي بسر مرسله ضاربا بتضحيته مثلا في الوفاء لايقل نبلا عن وفاء سرفانطيس.

واقتيد كاتبنا الى مجلس الامير، وهي المرة الثانية التي يقف فيها امامه هذا الموقف، فصدر الامر بضربه على بطنه الفي عصا ومعنى هذا الاعدام لان اقل من هذا بكثير يكفي للقضاء على حياة اقوى الناس جسما واصلبهم بنية.

لكن الايام انقضت والحكم لم ينفذ، فاخذ الامل يعود رويدا رويدا الى نفس ميغيل، غير انه هذه المرة توقف قليلا يتامل ويعتبر في محاولاته الفائتة، ولايسعنا هنا الا ان ننقل الصفحة الفتانة التي دبجتها يراع المؤرخ سباستيان خوان اربو في وصفه وضعية سرفانطيس النفسية في هذه الاونة من حياته. قال: لقد انقضى الوقت وابتعد الامل، والان ما عساه ان يفعل؟ فاذا التفت وراءه وجد الف موضوع للفخر بما قام به ولكنه يجد اكثر منها

للخوف على مصيره فيقشعر بدنه كانه يرى فجأة اعماق هذه اللعبة الخطرة التي تحركه الاقدار ضمنها، اذ اين هي عظمة اعماله؟ وما هو الذي حصله مقابل ما بذله من جهد وتعرض له من خطر؟ فذات يوم التقى ببستاني مسكين اسير من نافارة ان لم يكن فرحا كان على الاقل قانعا بالاعتناء ببستانه في انتظار ساعة الافتداء دون ان يعكر صفو هدوئه اي فكر آخر، فذهب سرفانطيس لزيارته مرة وتحدث واياه ولان البستاني امام كلماته وقد سحر لبه الحلم بالعودة الى الوطن، وبعد ذلك بمدة كان يقضي معلقا باحدى رجليه في اعالي شجرة نخل على مرأى من رفاقه.

وكان هنالك رجل مسلم ساذج من مسلمي الجزائر ولعله كان يعيش سعيدا بصحبة زوجه وابنائه فتصدى له سرفانطيس ذات مرة وسلمه رسالة الى وهران وبعد ذلك بايام اذا به ينفذ فيه الحكم بالاعدام، الايقف سرفانطيس امام هذه الصدف متشائما؟

وباي نور تنصب هذه الاعمال على خيبة ضون كيخوطي المتكررة؟ انها تنصب بنور براق الى حد انها تكاد تثير عواطفنا كما لو اننا كنا نرى فيها صميم سره الرئيسي

على وشك ان ينكشف امام اعيننا، فهنالك ايضا كما هو الامر هنا، نية مقدسة وضعت تحت خدمة فكرة صالحة تصطدم عند كل خطوة بعقبة كأداء وهنالك مثل هنا ينقلب الخير شرا والسعي في طريق الفضيلة ينقلب ضررا على الساعي وحتى على من سعي من اجلهم

ولكن هنا ايضا مثل هنالك فوق كل شيء نبل الدافع العاطفي الذي لايحجم عن اي وسيلة او تضحية دون ما نظر الى النتائج، وهنا مثل هنالك فكرة الخير تحرك سيف الفارس، وهنا مثل هنالك نبل مقاصد وطيبة نفس وكرم قلب لاينضب بل يعود الى المعركة بعد كل خيبة بقوى جديدة. فحسبه هذا، حسبه ان ينقاد الى خوالج قلبه، فان لم تأت النتائج حسب المقاصد فان الله في السماء وهو يرى ما في القلوب فالتأمل يدوم اذاً قليلا.

انقشعت هذه السحابة التي كانت تخيم على نفسه وعاد الامل اليها، وعادت تبتسم له الحياة، ومن بعيد اخذت تلوح له من جديد فكرة الفرار.

❀ ❀ ❀

بدأ ميغيل يفكر في الحرية وسبحت افكاره في الفضاء لتبحث عن محط آمالها الاوحد ضون خوان دي اوستريا

وكم كان يتلهب للاتصال بذلك القائد خصوصا حين يسمع صبيان الجزائر ينشدون متهكمين على الاسارى:

«ضون خوان لن ياتي
والنصراني هنا يموت»

وفي هذه السنة (1578) حصلت وقعة وادي المخازن التي تغلب فيها المغاربة على البرتقاليين وقتل فيها ملك البرتقال ضون سباستيان ونخبة فرسان بلاده. ولما بلغ الجزائر نبأ نزول ضون سباستيان في الشاطئ المغربي هلعت قلوب المسلمين وسكتت الالسن عن شتم الاسارى وعم القلق والخوف جميع السكان، وبقدر ما كان القلق شديدا اذاك كان الفرح عظيما حين بلغت بعد ايام الانباء بانتصار المغاربة.

لكن ذلك المشهد ترك في قلب سرفانطيس نوعا من الامل وفتح امام خياله بابا فسيحا للتصور. ورأى في ذلك القلق الذي استحوذ على الجزائريين لمجرد علمهم بنزول جيش البرتقال في شواطئ المغرب مفتاح باب الحرية. فكتب الى صديقه ماتيو باسكيس كاتم اسرار الملك فيليب الثاني رسالة شعرية مطولة يشرح له فيها الوضعية ويفهمه بانه اذا جرد الملك اسطولا تحت قيادة

ضون خوان دي اوستريا ودفع به الى مهاجمة الجزائر فان فتح هذه المدينة يتم بسهولة كبيرة: لانه متى بلغها الاسطول عم الخوف جميع السكان واذاك يثور الخمسة وعشرون الف اسير وينضمون الى الاسطول المهاجم فلا تلبث المدينة ان تسقط بين ايديهم.

لكن هذا الحلم لم يتجاوز حد الاحلام ولم يبال احد درسالة سرفانطيس ولم يعرها ادنى اهتمام.

المحاولة الرابعة
1579

نحن الان في سنة 1579 وقد مر على ميغيل اربع سنوات في الاسر كأنها اربعة قرون! وكم اصبح يرى بعيدا كل ما خلفه وراءه من اهل وخلان وامال واماني! ان فكرة الفرار قد عادت الى رأسه لكن أنى له ان يحققها والطرق مسدودة والابواب موصدة، وقد زاد في الطين بلة بلوغه نبأ وفاة ضون خوان دي اوستريا في فلانديس، فتلاشى معه كل امل في قلب سرفانطيس بزحف اسطول اسباني على الجزائر واحتلالها وافتكاك الاسارى الذين فيها.

ولكنه مع هذا كله لم يفتح لليأس الى قلبه طريقا وظل يترقب الفرص باذن صاغية وعين يقظة.

ففي سبتمبر من تلك السنة تعرف بجاحد اسباني اسمه خيرون اصله من غرناطة كان ينتمي الى عائلة رفيعة من تلك المدينة، وقد تسمى بعد اسلامه باسم عبد الرحمن، ويظهر ان «خيرون» هذا قد ساورت نفسه

الشكوك وداخل قلبه الندم على استبداله دينه بدين آخر ونزعت نفسه الى العودة الى احضان النصرانية، وكان تعرف سرفانطيس به وهو في هذه الحالة من الشك، فحفز به كاتبنا الى العمل بما يوحيه اليه قلبه من الندم والعودة الى دين آبائه، واقترح عليه ان يسهل له السبيل للعودة الى اسبانيا، فقبل خيرون فرحا شاكرا، وهنا اخذ ميغيل يهيئ مشروعه الجديد، وكان قد اتصل سابقا بتاجر اسباني من بلنسبة اسمه ايكساركي . من اهم التجار الذين كانوا يتاجرون بين اسبانيا والجزائر، وكانت له متاجر عظيمة في الجزائر وفي بلنسية وتربطه صداقة بكثير من الجزائريين، ويتمتع باحترام كبير بين النصارى والمسلمين ولا يتاخر متى دعى الامر عن افتداء بعض الاسارى، فاليه افضى ميغيل بمشروعه الجديد وقوامه ان يقدم ايكساركي . المال الكافي على سبيل القرض لشراء مركب مسلح باسم خيزون الذي لم يكن ليثير الريبة لاعتباره مسلما، ويعلن ان المركب معد للقرصنة تحت قيادة صاحبه عبد الرحمن اي خيرون، وفي حقيقة الامر يكون معدا لفرار خيرون وسرفانطيس وعدد كبير من الاسارى.

وبدأ تنفيذ المشروع فاشتري المركب واعلم ميغيل اصحابه المقربون واعدت العدةوتاهب الاسارى العازمون على الفرار وعددهم يبلغ الستين· ولما لم يبق سوى يومين لركوبهم البحر اذا بمفاجأة جديدة تهدم كل ما بنوه من امل!

وخبر ذلك انه كان في الجزائر في تلك الآونة رجل اسباني اسمه خوان بلانكو دي باث اصله من مونتموليـن في مقاطعة اكستريمادورا يدعي انه راهب وانه مفوض محكمة التفتيش· وكان ذا طبع حاد وخلق سيء يخشاه جميع الاسارى· ولايعرف بالتحقيق سبب قدومه الى الجزائر وكل ما يعرف انه كان ينافق ويخاتل، وذات يوم التقى به القس خوان خيل من رهبنة الاباء المثلثين وسأله ان يثبت باوراق رسمية صحة دعواه فلم يمكنه ذلك وظهر نفاقه وكذبه وتجاوز الشك الى صحة ترهبه، ولعله ان كان في الحقيقة قسا كان من هؤلاء الافراد القلائل الذين يتخذون من الدين ستارا يخفون وراءه مطامعهم واهواءهم.

فهذا الرجل الحسود كانت تؤلمه شهرة سرفانطيس

بين الاسارى· وبلغ به الحد ان امتنع عن مبادلته التحية ولم يكن يفتأ يحوك له الشباك ليوقعه فيها.

وكان عدد كبير من الاسارى على علم بمشروع سرفانطيس لكن بلانكو دي باث لم يكن على بينة من هذا الامر· وقد عني كاتبنا عناية خاصة بالا يتسرب الى علمه· غير ان الاقدار شاءت ان يبلغه الخبر قبل موعد الاقلاع من المرسى بيومين· فثارت ثائرته على اقصائه عن تدبير مشروع كهذا واعتبره طعنة نجلاء في صميم عجرفته· فآلى على نفسه ان يثأر من ميغيل ومناصريه· واعمل التفكير في طريقة يبلغ بها الخبر الى مسامع الامير دون ان يمثل بين يديه بنفسه· فافضى بالامر الى جاحد فلورنتيني الاصل اسمه كايبان وهذا بدوره نقل الخبر الى حسان باشا· فاستفسره هذا عن مصدر النبأ فلم يسعه الا ان يدلي باسم بلانكو دي باث فاستدعاه الامير وسأله عن القصة فاطلعه على كل ما في علمه· وامره حسان باشا ان يترك الامر سرا وغرضه من ذلك ان يتيح للاسارى الفرصة ليجتمعوا في المركب كي يلقي القبض عليهم اجمعين.

بالرغم عن احتياطات الامير ما لبث الخبر ان انتشر

في المدينة فجزع الاسارى وهلعت قلوبهم خوفا وشرع كل من له اشتراك في المحاولة يبحث عن مختبأ يتقي فيه غضب حسان باشا. وقد تسرب الذعر الى قلب سرفانطيس نفسه لان هذه هي المرة الثالثة التي يطلع فيها الامير على محاولته للفرار، فلا عجب ان يحاول النجاة، فهرب من دار مولاه واختبأ في دار صديقه الفارس دييغو كاسطيانو الذي كان اسيرا ايضا، ولما رأى حسان باشا ان خطته للقبض على مدبري المشروع قد افسدت عليه ابرق وارعد، وارسل مناديا ينادي بان من يخبئ سرفانطيس يعاقب بالاعدام، فازداد الخوف بين الاسارى واضطرب التاجر البلنسي «ايكساركي» وخشي سوء العاقبة على ماله وحياته ان اكتشف الامر.

لكن سرفانطيس لم يلبث ان بدد مخاوفه اذ ما كاد يطلع على الامر الذي اصدره حسان بان الموت جزاء من يخبئه حتى خرج من دار صديقه وهرع الى دار التاجر «ايكساركي» فطيب خاطره واعلمه بانه قد عزم على الاستسلام الى الامير، فعرض عليه «ايكساركي» ان يخفيه ثم يبعث به على متن احد مراكبه الى اسبانيا ويدفع من جيبه فديته، لكن نفس سرفانطيس الابية لم تكن

لترضى بالنجاة تاركة عرضة للخطر الرفاق الذين شاركوه في تدبير الامر، فرد على ايكساركي بقوله: «بوسعك ان تعود مطمئن البال وان تكون على ثقة بانه لاعذاب مهما عظم حتى ولا الموت نفسه بكاف بان ادلي باسم واحد سواي وقل للاخرين ان يطرحوا الخوف جانبا لاني اخذت على عاتقي عبء هذه القضية كله وان كنت متأكدا بان الموت ينتظرني وراءها وقد اشار الى عزمه هذا بعد سنوات بكلمات وديعة يرى خلال بساطتها نبل تلك النفسية قال: عزمت على الاستسلام لئلا يلحق الاذى بنصراني خبأني عنده ولئلا يبحث الملك ان لم يعثر علي على اسير آخر يعذبه ويعرف منه حقيقة الامر».

وهكذا اعطى ميغيل درساً جديداً في الوفاء والاخلاص رافضا النجاة ومفضلا عليها التضحية بذاته ليسلم الآخرون.

وذهب يبحث عن صديق له جاحد يسمى موراتو الريس ويلقب بمالطرابيو كان ذا مكانة لدى الامير، فاطلعه على ذنبه وعلى عزمه ان يقابل حسان باشا ليعترف له بالحقيقة. فطلب له مالطرابيو المقابلة، ولما مثل بين يدبه اعلمه بالامر والقى التبعة كلها على نفسه

كما فعل امامه في المرة السابقة، فهدد بالتعذيب والموت ليقر باسماء شركائه في المؤامرة. لكن لا الوعد ولا الوعيد كانا ليحملاه على البوح بسره الدفين واخيرا ربط حول عنقه حبل المشنقه ورأى الموت منه على قاب قوسين. فلم يلن عزمه ولم تتحرك شفتاه.

فما كان من حسان باشا الا ان ازداد عجبا وللاسير تقديرا واعتبارا، ومن اعجب العجاب انه لم يفرض على سرفانطيس اية عقوبة البتة. وهذا ما سمح له ان يقول بعد الحادثة بسنوات في معرض كلامه عن هذا العهد من حياته وعن فظائع حسان باشا: «ولم ينجح معه سوى جندي اسباني اسمه فلان دي سابيدرا فانه بالرغم عما قام به هذا من امور ستبقى في حافظة هؤلاء القوم سنين طويلة وكلها من اجل الحصول على الحرية لم يعصه قط ولم يامر بعصوه ولم يقل له كلمة سوء بينما كنا جميعا نخشى ان يخوزق على اقل واحد من الامور الكثيرة التي اتى بها، كما انه خشي ذلك هو نفسه اكثر ما من مرة».

لكنه وان لم يفرض عليه عقوبة تعذيبية فقد امر بسجنه والتضييق عليه دفعا لكل محاولة جديدة.

لم يبق امام سرفانطيس باب للفرج ولا طريق للخلاص. ومما نزع من قلبه كل امل علمه بانتهاء مدة امارة حسان باشا واستعداده للانتقال الى القسطنطينية باموالِه ونسائه وخدمه وعبيده، وكان سرفانطيس يؤمن بان الخلاص من القسطنطينية فيما اذا نقل اليها يكاد يكون مستحيلاً، فلا عجب ان يشتد حزنه وتجزع نفسه وتتراخى همته، ولكن ما العمل؟ ان الفرار مستحيل لان المراقبة حوله شديدة، وضون خوان دي اوستريا قد توفي بعيدا في فلانديس ورسالته الى ماتيو باسكيس بقيت بلا جواب، وزاد في الطين بلة انتشار وباء الطاعون في الجزائر فكان الاسارى يموتون بالمآت كل يوم. فرأى ميغيل ان الابواب قد اقفلت في وجهه كلها ولم يبق امامه سوى الاستسلام الى العناية الربانية لتفعل به ما تشاء.

ولكن هذه الحرية التي اصبح يبصرها في عالم المستحيلات كانت اقرب اليه منها في اي وقت مضى، وستاتيه من حيث لم تكن في الحسبان!

في طريق الحرية

في التاسع والعشرين من شهر مايو من سنة 1580 بلغ الجزائر راهبان من رهبانية الاباء المثلثين احدهم اسمه الاب خوان خيل والثاني الاخ انطونيو دي لابيلا وانتشر الخبر بين الاسارى كالبرق، فدب الامل الى القلوب وعم الفرح جميع النفوس. وسرعان ما اتصل سرفانطيس بالاب خوان خيل الذي انبأه عن حال اهله واصحابه وعن حالة البلاد عامة. واعلمه بان عائلته اعطته ثلاثمائة دينار (اسكودو) لافتدائه، فرأى ميغيل اماله تتلاشى من جديد لان حسان باشا يبغي به الف دينار، اذ قد اشتراه من دالي مامي بخمسمائة بقصد ان يربح به خمسمائة اخرى، ومن الصعب ان يرضى باقل من هذه الكمية. ولا سبيل الى جمع الفرق لانها كمية باهظة وحاول الراهب ان يطيب خاطره. واعدا اياه بانه لن يألو جهدا من اجل افتكاكه. لكن نفس كاتبنا لم تكن لتطمئن لما كان يعلمه من جشع حسان باشا وقساوته.

ولم يلبث الاب خيل ان تثبت بنفسه من ان ميغيل

كان شقا في تخوفه لان الامير لم يلن ولم يرض باقل من الالف دينار فلسا واحدا. فانصرف الى تدبير امور اسارى آخرين اسهل افتداء من ميغيل. وفي شهر اغسطس (آب) اقلع مركب يحمل البعثة الاولى المؤلفة من مائة وثماني اسارى وعلى رأسها الاخ انطونيو دي لابيلا، وبقي الاب خوان خيل يكافح في سبيل افتكاك اسارى آخرين.

واقبل شهر ستمبر (ايلول) واقترب موعد خروج حسان باشا من الجزائر. فاخذ يعد العدة للسفر. وامر بنقل امواله وحريمه وخدمه وعبيده واساراه الى المراكب المهيئة لنقله، ومن جملة الاسارى الذين نقلوا ميغيل سرفانطيس، وها هو ذا اليوم التاسع عشر من ذلك الشهر، يوم سفر حسان باشا قد حل والاسير لايرى سبيلا الى الحرية! وها هو ذا مكبل بالحديد في احد جوانب المركب ينتظر ان يقلع بين ساعة واخرى فيقاد الى القسطنطينية ليباع في اسواق رقيقها كما تباع الدواب فوداعا ايتها الحرية ووداعا ياتراب الوطن! وداعا الى الابد!

واطبق جفنيه كي لايرى القلوع تنشر والمراسي تقلع والمجاديف تحرك، لكنه ما لبث ان فتحها حين

سمع صوتا يناديه واذا به يرى امامه طلعة الراهب خوان خيل! فخيل له انه ملاك بزي انسان! لكن الراهب طمأنه وأكد له انه قد اصبح حرا فقد قبل حسان باشا في آخر ساعة ان يطلق سراحه مقابل خمسمائة دينار فاقترض المائتين اللتين كانتا تنقصان لتكمل الخمسمائة ودفعها الى الامير، ونزعت القيود من يدي الاسير ورجليه ورأى اذاك بملء عينيه انه في الحقيقة حر طليق، فتقدم الى الراهب وعانقه والدموع تقطر من عينيه وبصحبته غادر المركب.

سرفانطيس يجمع البينات على نبل تصرفه في الاسـر

خرج سرفانطيس من المركب الذي كان مزمعا ان ينقله الى القسطنطينية ليبـاع في اسواق رقيقهـا واطل على حياة الحرية كمن يستفيق من سبات عميـق، فها هو دا الان بعد خمس سنوات من العذاب الاليم ينال ما كانت تصبو اليه نفسه وما لم يكن ليانف من بذل حياته في سبيله، ولكنه لم يوجه همه الى الابحار حالا لانه كانت تشغله قضية اخرى تفـوق في نظـره قدرا الحرية نفسها، وذلك ان المسمى بلانـكو دي باث ذاك المارق الذي وشى به الى حسان باشا عـند محاولتـه الاخيرة للفرار كما اشرنا الى الامر سابقا لم يكن عزمه ليهن في ملاحقة كاتبنا والقدح به والحط من كرامته، فما كاد يطلع على خبر افتكاكه حتى اقبل على الاب خوان خيل ورفع اليه ان ميغيل سرفانطيس ارتكـب

اثناء المدة التي قضاها في الاسر عددا غير يسير من الجرائم العمومية والخصوصية، وبلغت وشايته كاتبنا فلم يصبر على هذا الضيم وفضل على الاسراع في الابحار مع ما كان في نفسه من شوق الى الوطن ان يبقى في الجزائر الوقت الكافي. ليبدد مزاعم عدوه ويثبت للملا بياض صفحته ونبل سيرته.

وفي فاتح شهر اكتوبر (تشرين الاول) من سنة 1580 التمس تقريرا عن حياته خلال اسره في الجزائر من الاب خوان خيل نفسه الذي كان يمثل في الوقت نفسه ملك اسبانيا والبابا اي السلطتين الزمنية والروحية ففتح التحقيق بالقضية امام الكاتب العدل الرسولي بيدرو دي ريبيرا وفرغ منه في الثاني والعشرين من الشهر نفسه واسفر عن منح الاب خيل كاتبنا شهادة مشرفة ختمت بما يلي: «واثناء اسره قام باعمال مجيدة تستحق من جلالتكم ان يكافأ عليها». وفي هذا التحقيق ادلى عدد كبير من نخبة الاسارى الاسبانيين بشهادتهم ونخص بالذكر منهم ذلك الرجل النزيه الفاضل مثال التضحية والصبر الدكتور ضون انطونيو دي سوسا مجمعين كلهم «على ان سرفانطيس كان مثالا في نكران

الذات والسعي وقدوة صالحة بسيرته وانه بذل في سبيل رفاقه في الاسر مجهودا كبيرا مخاطرا بحياته من اجلهم وانه بمختصر القول كان لهم ابا واما. ويشير المؤرخ ضون نيقولاس دياث دي بن خوميه في كتابه الحقيقة في امر الكيخوطي المنشور في مدريد سنة 1878 ان هذه الوثيقة اكتشفها ثيان برمودث في قصر اللونخة باشبيلية.

وتجدر بنا الاشارة هنا الى ان هذه الشهادة لم تنفع صاحبها كما كان يؤمل، ولعله كان يعتقد انه حسبه ان يبلغ مدريد ويعرض يده المعطوبة وشهادته المشرفة ويذكر باسم ضون خوان لينال جزاءه المنتظر، لكن الواقع جاء معاكسا لكل ما كان يؤمله.

الفصل الثالث

سرفانطيس يطأ تراب الوطن

في يوم لايعرف تاريخه بالضبط وانما يرجح انه حوالي الرابع والعشرين من شهر اكتوبر من سنة 1580 وطأت رجلا سرفانطيس تراب اسبانيا، فالمركب الذي كان يحمله ارسى في بلدة دانية من اعمال بلنسية، وقد خف جم غفير لاستقبال العائدين. ويقول سرفانطيس في وصف ساعة الوصول هذه ان الاسارى خرجوا الى البر واحدا واحدا كأنهم في طواف وقبلوا ترابه مرة تلو مرة ودموع الفرح تغمر عيونهم».

واقاموا اياما قليلة في دانية ريثما اعد استقبالهم رسميا في بلنسية، ثم قصدوها مشاة على الاقدام كأنهم يسيرون الى الاشتراك في احد الاعياد الشعبية مارين بالقرى والمدن الساحلية الى ان انتهى بهم السير الى عاصمة الاقليم الشرقي نعني بها بلنسية، وهناك استقبلوا استقبالا حافلا، وتوجهوا توا الى الكتدرائية ليؤدوا واجبات الشكر على وصولهم سالمين. وكانوا مكشوفي الرؤوس مرتدين جلباباً ازرق هو لباس الاسارى، ووراءهم بعض الصبيان يقرأون بصوت عال «لائحة الاسارى

المفتدين، وهي لائحة كان الاباء الافتدائيون يطبعونها ثم تباع ويوزع ريعها بين الاسارى المفتدين.

۞ ۞ ۞

على هذه الصورة دخل اسبانيا من كان يؤمل حين غادرها لعشر سنوات خلت ان يعود اليها عودة الابطال المظفرين!

۞ ۞ ۞

اقام ميغيل في بلنسية نحوا من شهرين درس خلالها حالة اسبانيا السياسية، ومنها كتب الى عائلته يعلمها بوصوله سالما ويطلب منها ان تفتح تحقيقا جديدا في قضيته ليضيفه الى الشهادات التي جاء بها من الجزائر وان تكون نتيجته مهيأة لوقت وصوله، وفي الرسالة نفسها يلتمس من والديه بعض المساعدة كاشفا لهما بالتماسه هذا عن حالة الفقر المدقع التي بلغها.

في مدريد

في اواخر سنة 1580 وصل ميغيل الى مدريد فاستقبلته عائلته بفرح عظيم وحنان كبير. وكانت حالتها المادية قد ازادت سوءًا بما اضطرت الى دفعه لافتداء الولدين ميغيل ورودريغو. وكان هذا قد انخرط برتبة ملازم ثان في لفيف ضون لوبي دي فيغيروا الذي انتقل بجنوده الى البرتغال. واما شقيقته اندريا فقد ترملت بوفاة زوجها الفلورنتيني اوفاندو وبقيت تقيم في دارها مع ابنتها كونسطانسادي اوفاندو بينما كانت شقيقته الاخرى ماغدلينا تزداد يوما بعد يوم ابتعادا عن امور الدنيا وانصرافا الى اعمال البر والتقوى. اما ابواه فقد اصبحا منهوكي القوى ضعيفي العزم.

وجد ميغيل في هذا الجو العائلي ما كانت تصبو اليه نفسه من حنان. لكنه لم تمض عليه سوى مدة قصيرة حتى عاد يفكر بامر مستقبله وما يحتاج اليه من اقدام وحزم. ولابد له للحصول على ما كان يؤمله وينتظره ان يتصل بالبلاط الملكي ولم يكن البلاط اذاك في مدريد، وخبر ذلك هو انه بعد وفاة ملك البرتغال

ضون سباستيان في وقعة وادي المخازن ولي العرش عمه الشيخ الكردينال هنريكي الذي لم يلبث ان لبى داعي ربه بعد قليل. وبقى العرش شاغرا. فتقدم عدة مطالبين من جملتهم رئيس دير اوكراتو. وكان من بين المطالبين ايضا ملك اسبانيا فيليب الثانى الذي كانت امه ابنة ملك البرتغال.

فاستدعى فيليب سفيره كريستوبال دي مورا وامره ان يبلغ اشراف البرتغال دعوى ملكه. ويظهر ان قسما منهم لم يكن راضيا على الامر. فلما رأى فيليب الثاني ان القضية لن تحل بالسبل الدبلوماسية امر قائده الدوكي دي البا ان يزحف على تلك البلاد. وانتقل هو ببلاطه الى مدينة بطليوس المجاورة للبرتغال ليتحول منها الى لشبونة متى اقتضى الحال.

✿ ✿ ✿

قضى ميغيل في مدريد مدة غير طويلة درس اثناءها الوضعية السياسية وبنوع خاص الوضعية النفسية في العاصمة. واني تردد وحل لم يجد الا التشاؤم وادرك بثاقب بصيرته الانحلال الاخلاقي المسيطر على اولي الامر المحيطين بالملك كالسوار بالمعصم، وعلم مما سمعه وشاهده

ان اصحاب المناصب الرفيعة انما يسعــون معظهم وراء ارضاء مطامعهم، وان الاستشفاع بما أتاه من مآثر كجندي اولا واسير ثانيا قد لا يؤدي الى نتيجة تذكــر، وان معركــة ليبانطو قد انطوت في عالم النسيــان انطــواء قائدها ضون خوان في عالم الموت، فلا فائدة ترجى من التلويح بيد معطوبة فيها وخمس سنوات في الاسر مليئة باعمال التضحية والاقدام، لكن هذا كله لم يثنه عن عزمه وظل متفائلا بمستقبله، ورأى شمسه الان طالعة من سماء البرتغــال فصمم على الانتقــال الى ذلــك البلد آمــلا ان يجد فيه من المجد ما لم يجده في ايطاليا، وكان مما يقوي فيه هذا الامل علمه بان في البرتغــال والبــلاط صاحبه القديم ماتيو باسكيس سكرتير الملك وضون انطونيو دي طوليدو شقيق الدوكي دي البا ورفيقه وصديقه في الاسر واحد الذين اختبأوا في الكهف حين كان ميغيل يعد العدة للفرار وقد نجا سالما بفضل اقدام ميغيل وتضحيته وكان يؤمل ان يجد من كلا الصديقين عونا كبيرا ولما يكن قد علم ان السلطان ينسي الاصحاب لكنه بعد ان يمر بهذه الخيبة ايضا سيقول يوما في كتابه الخالد على

لسان بطله: «تامل ياسانتشو! ان الوظائف تبدل العادات ولعلك ان رأيت نفسك حاكما تنسى امك التي ولدتك !

وبينما كان يعد الوثائق اللازمة في مدريد اخذ يتردد الى النوادي الادبية مجددا صلته القديمة بالادباء ومتعرفا الى غيرهم من الادباء الشباب الذين كانوا قد بدأ نجمهم يتألق. فتعرف الى التيارات الادبية الجديدة وقرأ المؤلفات الحديثة واحس بنشاطه الادبى يتجدد. وكان الفن الجديد الفاشي هو فن قصص الرعاة ولعل فكرة قصته «لاغالاطيا» نشأت في دماغه خلال هذه المدة.

❀ ❀ ❀

وكان ميغيل يتردد على دار اخته اندريا. وقد تكون في احدى زياراته اتت امامه على ذكر ضونيا كاطالينا سالازار ابنة احد الاشراف من بلدة اسكيفيا وكانت تربط عائلة سرفانطيس بعائلتها قرابة قديمة، لكن كاتبنا كان يسبح في عالم احلامه، فلم يعر تعريض شقيقته ادنى اهتمام. وانما همه الاوحد بلوغ البرتغال.

في البرتغال

اسناد مهمة سرية الى سرفانطيس

بعد ذلك بقليل وصل سرفانطيس الى البرتغال مصحوبا بصديقه رودريغو دي تشافيس، وكانت تلك البلاد قد خضعت كلها لسلطان فيليب الثانى، ما عدا جزر ترسيراس، التى ظلت موالية لرئيس دير اوكراتو الذي كان يتلقى مساعدة فرنسا وانكلترا، واصبح فيليب الثاني يستعد للانتقال الى مدينة طومار الى حيث استدعى مجلس الاعيان البرتغالى للانعقاد لان الوباء كان قد انتشر في لشبونة.

واتصل ميغيل بالبلاط وبدلا مما كان يؤمله من وظيف اداري او رتبة يوزباشى اسندت اليه موقتا مهمة سرية لدى حاكم قلعة مستغانم في الجزائر بالقرب من وهران، فقد كلف بحمل رسالة وتعليمات شفهية الى الحاكم المذكور، والقيام بهذه المهمة معناهمغادرة الوطن من

جديد والتعرض للاخطار التي تعرض لها سابقا من قتل او اسر بين ايدي القرصان، لكن نفسه الكبيرة لم تكن لتعير الاخطار عظيم اهتمام.

فحمل الرسالة وتوجه الى قادس لينتقل منها الى وهران، وفي قادس دفع اليه محاسب البحرية الملكية في 23 مايو (ايار) من سنة 1581 تنفيذا لامر ملكي مؤرخ في طومار خمسين اسكودو، على حساب المائة الاسكودو التي عينت له كنفقة للسفر، اما الخمسون الاخرى فستدفع له عند عودته، ومن هنالك ابحر شطر وهران.

قضى ميغيل مهمته على احسن وجه وعاد الى اسبانيا حالا وفي قرطاجنة في السادس والعشرين من شهر يونيو (حزيران) من السنة نفسها اي بعد خروجه من قادس باربعة وثلاثين يوما قبض الخمسين اسكودو الاخرى وواصل السير الى البرتغال على امل ان يلقى الان المنصب الذي كان يعلل النفس به، وفي 31 من شهر يوليو (تموز) كان يتفرج على دخول الملك فيليب الثاني مدينة لشبونة دخول الفاتحين. وكان يوما مشهودا ترك في نفس كاتبنا اثرا عميقا اذ تجلت له فيه عظمة امته.

ورأى سرفانطيس في جيبه مائة اسكودو والحياة

طافحة باللهو والسرور في العاصمة البرتغاليـة فاستسلم اليها مرحا كأنه نسي امر مستقبله ورأى مصيره أمينا، والحق يقال انه كان بحاجة الى الراحة بعد ما قاساه من الم وعذاب في السنوات الفائتة. وكان من حقه بعد ما قام به ان ينام مطمئنا واثقا من مصيره وان يرجو مما اتى به نيل ما يؤمله.

لكن جزر السعادة (آزورس) كانت كما قلنا لاتزال ثائرةعلى فيليب الثاني مؤيدة لرئيس دير اوكراتو تساعدها كل من انكلترا وفرنسا الاولى سرا والثانية علانيـة. فقر رأي الملك ان يجهز حملة بحرية لاخضاعهـا فحشد اسطوله في لشبونه واسند قيادته الى امير البحر الماركيس دي سانطا كروث، وفي 29 من شهر يونيـو (حزيـران) من سنة 1582 اقلع الاسطول قاصدا جزر السعادة وكان من جملة المحاربين الذين حملهم رودريغو شقيق ميغيل الذي سجل في تلك الحملة صفحة مجيدة، اما ميغيل نفسه فمسألة اشتراكـه في هذه الحملة موضـوع خلاف بيـن المؤرخين، فمنهم من يجزم بانه اشترك بها ومنهـم من ينفي ذلك.

وعلى كل حال سواء اشترك بها ام لم يشترك فان

المدة التي قضاها في لشبونة كانت من اجمل اوقات حياته، وخلالها كتب قصته الاولى التي عنوانها «لاغالاطيا» او قسما كبيرا منها، ويرى المؤرخون انه استمد كثيرا من مشاهدها من الجو الذي كان يعيش فيه حينئذ وخاصة من نبل نفسه وطيبة قلبه.

وفي لشبونة ايضا مثل دورا غراميا جديدا لاتعرف تفاصيله بالضبط، والثابت عند المؤرخين هو انه اغرم بامرأة برتغالية يقال انها كانت من عائلة رفيعة واسمها آنا دي فرانكا ورزق منها ابنة سميت باسم ايزابيل، ويزعم ان آنا دي فرانكا ترهبت فيما بعد، اما البنت فسياتي الكلام عنها في غير مكان من هذا الكتاب

العـودة الى مدريـد

مرت الايام تلو الايام وفرت الدنانير من جيب ميغيل واحدا تلو الاخر والوعود تاتيه تترى دون ان يقبل اليوم الذي يراها فيه تنقلب حقيقة ثابتة، وفي نهاية الامر استفاق من ذلك الحلم اللذيذ ولمس الحقيقة المرة باصابعه والحقيقة هي ان وعود من كان يؤمل منهم المساعدة مستندا على صداقتهم القديمة وعلى تضحيته في سبيلهم انما هي مواعيد عرقوب، فلم ير بدا من العودة الى بيت ابيه وعودته في هذه الحالة انما كانت اشبه منها بالخذلان.

وهنا بدأ سرفانطيس يرى الواقع على علاته ويفهم الامور على حقائقها والنفوس على اوضاعها، وابصر ان الصداقة كما تصورها ووصفها في قصته لاغالاطيا، انما هي من جملة احلامه، ورأى الحياة في وسط هذا الجو المسموم بالمطامع والاحقاد والشهوات حربا عوانا اشد وطأة على نفسه الابية من ميادين القتال او سجون الاسر، وفهم الان ان خروجه من الجزائر لم يكن خاتمة جهاده بل فاتحته.

عاد اذا الى مدريد وشرع يتصل بكبار ادباء عهده وتونقت عرى الصداقة خاصة بينه وبين ضون خوان روفو غوتييريث مؤلف قصة اوستريادا ورفيق ميغيل في وقعة ليبانطو، وعرفه هذا بالشاعرين لويس دي غونغورا وبيدرو دي باديا، ولعله تعرف في ذلك العهد ايضا على لوبي دي بيغا الذي بدأ نجمه يتألق حينئذ في سماء الشعر والمسرح ولما يتجاوز الحادية والعشرين من سنه، وفي هذا الوقت اتم ميغيل قصته لاغالاطيا وحملها برفقة صديقه باديا الى الطباع بلاس دي روبليس، فعرض عليه هذا ان يطبع له القصة مقابل قيمة لاباس بها، وتم الاتفاق بينهما على ان يدفع له الفا وثلاثمائة وستة وثلاثين بليونا وهي كمية لايستهان بها لو قوبلت بما كان يدفع اذاك للمؤلفين مقابل مؤلفاتهم، وفي 22 فبراير (شباط) من سنة 1584 ظهرت القصة مطبوعة.

وفي هذه المدة مثلت في مدريد بعض رواياته المسرحية منها «معاملات الجزائر» و «نومانسيا» و المعركة البحرية وغيرها ونالت استحسان الجمهور واقباله

زواج سرفانـطيس

لم تكن حالة عائلة سرفانطيس المادية كما قدمنا حسنة لان ما انفقته لافتداء ولديها من الاسر اجهز على البقية الباقية من ثرونها الصغيرة: فلما عاد ميغيل مـن البرتغال الى حضن العائلة كانت هذه قد بلغت حالـة يمكن وصفها بالفقر الى حد انه اضطر ان يرهن في شهر سبتمبر (ايلول) من سنة 1583 ست قطع من المخمـل الاحمر كانت لاخته اندريا مقابل ثلاثين دكة.

وكانت اخته هذه لاتفتر تتحدث عنه الى ضونيـا كاتالينا سالازار التى اشرنا اليها سابقا، ففعل كلامها فعله في قلب الفتاة التي اغرمت بميغيل، ووقع التعارف بينهما، وداخل الحب قلب ميغيل ايضا، ولم يلبثـا ان اتفقا على الزواج، لكن عائلة كاتالينا عارضت في الامر وبالرغم من المعارضة تم القران في 12 دسمبر (كانون الاول) من سنة 1584 في كنيسة القديسة مريم في بلدة اسكيفيا، ولم يحضر من اقارب العروس احد حفلة الزواج لما ذكرناه من معارضتهم في عقد القران.

ولم يلبث ان نشأ سوء التفاهم بين الزوجين لان

ضونيا كاتالينا كانت ذا خلق على طرفي نقيض من خلق زوجها الذي تحبه حبا شديدا: فهي متمسكة بتراب بلدتها ودارها واملاكها تحب الحياة المستقرة الهادئة بينما هو يعشق الحرية والتنقل كالطير لا يعرف هدوءا ولا استقرارا، هي تفكر بحياة القرية والعناية بارضها وكرومها وغلاتها وهو يهوى حياة الخيال والعناية بالشعر والقصص ونتاج الفكر،هي تؤثر العيش في بيت اهلها الهادئ وهو يود العيش في مدريد الصاخبة على اتصال بالحلقات الادبية وارباب المسارح واجواق التمثيل فانى لهما ان يتفقا ؟ ولذا اخذ ميغيل يقسم وقته بين مدريد واسكيفيا، ثم اخذت زياراته الى اسيكفيا تقل شيئا فشيئا حتى انقطعت في النهاية واصبحت زوجته في حكم المهجورة.

سرفانطيس ينصرف الى المسرح

قلنا سابقا ان سرفانطيس عاد من البرتغال خائبا وان امله بالحصول على منصب في الجيش او الادارة تلاشى. فلم يبق امامه الا الادب. وكان مغرما بالادب المسرحي ورأى فيه باب الخلاص ماديا وادبيا، وبنوع خاص بعد ان رأى في زواجه خيبة جديدة. فانصرف الى المسرح بنشاط كبير ووضع في سنتي 1584 و 1585 عدة روايات مثلت في مدريد ونالت استحسان الجمهور، واخذ اسمه ينتشر في الاوساط الادبية والمسرحية خاصة. لكن، توفيقه هذا لم يطل لان مزاحما جديدا في هذا الميدان لم يلبث ان كسفه بين جملة من كسفهم من امراء المسرح حتى خلا له الجو فحلق فيه وحيدا، وهذا المزاحم لم يكن سوى لوبي دي بيغا، فما ان بدأ يدفع رواياته الى المسرح حتى تقلص ظل جميع المؤلفين المسرحيين وسرفانطيس في طليعتهم.

وكان لوبي في عنفوان الصبا لما يتجاوز الحادية

والعشرين من سنه وقد اتاه الحظ من كل جهة: فهو ينتمي الى عائلة رفيعة وعمه يحتل منصبا من ارفع مناصب الدولة. وقد منحه الله طلعة بهية وذكاء مفرطا وهو يحسن عزف العود والرقص وهز الحسام ونظم الشعر ومغازلة الحسان. وما كاد بدفع رواياته الى التمثيل حتى اخذت سيول الثروة تنصب عليه غزيرة. فينفق منها عن سعة ويتقلب في احضان النعمة والرخاء.

ولعل سرفانطيس تعرف به في احدى حلقات الممثلين لكن المنافسة لم تلبث ان نشبت بينهما ولعلها كانت اقوى من جانب كاتبنا. فان لوبي دي بيغا لم يكن له ما يحسد سرفانطيس عليه وقد ابتسمت له الحياة وفتحت له ابوابها على مصراعيها. ولعل ميغيل على طيبة قلبه ونبل نفسه وشهامته كان ينظر وهو يهوي كل يوم من سوء الى اسوأ بشيء من المرارة والالم الى منافسه الرائع في بحبوحة من العيش كان هو يحلم بها ويرى نفسه جديرا بها. وانه وان كان يعترف بتفوق لوبي في المسرح لايمكنه ان يخنق في نفسه هذه الثورة على من قضى على آخره امل من آماله.

وفي هذه الاونة فجع بوفاة والده ضون روDريغو الذي اسلم الروح في 13 يونيو (حزيران) من سنة 1585

٭٭٭

ابتعد ميغيل عن المسرح فاظلمت الدنيا امام عينيه وبات حائرا لايدري صوب اي شاطئ يولي وجهه، فلم ير بدا من الاستعطاف والتذلل والوقوف على ابواب الكبراء وقضاء الساعات الطويلة في قاعات الانتظار سعيا وراء وظيف يضمن له النجاة من هوة الفقر التي وقع فيها.

سرفانطيس يعود الى اشبيلية

خابت مساعي ميغيل في الحصول على الوظيفة كما خابت آماله في التفوق كمؤلف مسرحي، واخذت الدنيا تزداد في عينيه ظلاما، ففي هذه الاونة في سنة 1586 نراه يعود الى اشبيلية مدينة صباه واحلامه، لكنه لم ياتها هذه المرة كما اتاها لعقدين مضيا يوم كان الشباب يصبغ وجهه والامل يملا جوانبه والمستقبل لما يزل امامه صفحة بيضاء يؤمل ان يسجل عليها سطورا مجيدة! لا! بل جاءها الان وبياض الكهولة قد صبغ مفرقيه وتوالي النكبات قد حط من عزمه والفشل قد قص جناحي خياله المتقد وسود من صفحة المستقبل اسطرا شقية كتبت بماء البؤس والتعاسة، جاءها الان كرجل عادي، كعميل لبعض المحلات التجارية المدريدية ليقبض لها ديونا من تجار آخرين في اشبيلية وقد يكون للقيام ببعض عمليات تجارية صغيرة لحسابه الخاص، كل هذا ليضمن

لنفسه بعض موارد الرزق الذي كادت تنسد في وجهه ابوابه كلها.

لكن اقامته في اشبيلية لم تطل هذه المرة، وما ان قضى المهام التي جاء فيها حتى عاد الى مدريد. ومنها انتقل الى اسكيفيا، اذ نراه في الخامس والعشرين من شهر اكتوبر (تشرين الاول) يتولى هو وزوجته صفة عرابين لفتاة تلقت ذلك النهار ماء العماد في كنيسة تلك البلدة. غير ان اقامته في اسكيفيا لم تطل. بل عاد الى مدريد الى تلك الحياة التي تكاد ان تكون تشردا، وعاد الى الكفاح في سبيل العيش.

سرفانطيس
يعين مفوضا لتموين الجيش

استقام الامر لفيليب الثاني في البرتغال· لكن انكلترا ظلت تناوئه وتبالغ في اعمالها الاستفرازية· فآوت رئيس دير اودراتو وواصلت مد الثوار في فلانديس بينما كان قراصنتها يتصدون للمراكب الاسبانية الراجعة من اميركا فيسلبونهاما تحمله من الذهب· وذهبت جميع احتجاجات اسبانيا ادراج الرياح· ولما طفح الكيل امر فيليب الثاني ببناء اسطول ضخم في لشبونة· وبلغ الخبر انكلترا فقلقت في بادئ الامر لكنها ما لبثت ان تبدد قلقها واستحوذت عليها موجة من الحماس عمت جميع سكانها على اختلاف مذاهبهم· وبدأت بدورها تعد العدة للصراع الذي لم يكن منه بد.

شرع فيليب الثاني ببناء الاسطول وفي الوقت نفسه شرع بتموينه وتجهيزه·وكانت العادة في ذلك العهد ان يفرض التموين من حبوب وزيت على المدن والقرى كل على قدر اهميتها· وتوضع بالمفروض لوائح ترسل الى سلطات

كل بلدة، وهذه تجمع الكمية المعينة حتى اذا اقبل مفوض التموين - وهو الموظف الحكومي - استلمها، وبعد مدة يدفع ثمنها من الذهب القادم من امريكا على الغالب، وكانت الحكومة شأن كل الحكومات في ذلك الزمن تتأخر اشهرا بدفع الثمن وذلك ما يثير ثائرة المزارعين فيصبون جام غضبهم على مفوض التموين الذي كانت مهمته لهذا السبب غاية في الصعوبة.

وقد شاء حظ سرفانطيس الذي كان يكافح الفقر والعوز ان يعين مفوضا للتموين في احد اقاليم اسبانيا الجنوبية، واضطر الى قبول هذه الوظيفة التي لم تكن بالمغرية لضيق ذات يده وخيبته في الحصول على غيرها مما كان يصبو اليه.

وفي اواخر سنة 1586 او اوائل السنة التالية انتقل الى اشبيلية ليستلم وظيفته، وتوجه الى فندق طوماس غوتييريث الذي كان في اول امره ممثلا وصاحب جوق للتمثيل وكانت تربطه بكاتبنا صداقة قديمة من ذلك العهد، ثم تخلى عن حرفته السابقة وفتح له في اشبيلية فندقاً كان يعتبر من أرفع فنادقها وفيه ينزل كبار الضيوف والزائرين سواء قدموا من بقية انحاء اسبانيا

ام من الخارج. وقد مد لسرفانطيس يد المساعدة في غير ما مرة. لكن كاتبنا انتقل بعد مدة الى فندق آخر اقل فخامة وارخص ثمنا.

❀ ❀ ❀

ما كاد ميغيل يصل الى اشبيلية حتى توجه الى زيارة المأذون دييغو دي فالديفيا نائب مفوض التموين العام ضون انطونيو دي غيبارا الذي كان اذاك غائبا عن المدينة، وبعد ايام قليلة خرج سرفانطيس من اشبيلية متوجها الى بلدة استجة ليباشر القيام بمهام وظيفته الجديدة لكنه لم يلبث ان اخذ يصطدم بالعقبات والمصاعب لان المزارعين كثيرا ما كانوا يمانعون بتسليم الغلة المفروضة عليهم لتاخر ميقات الدفع، وبدلا من ان تجبرهم السلطات المحلية على تسليمها كانت تكتفي بما يدفع اليها عن طيبة خاطر ـ ولم يكن الا القليل ـ تاركة امر استعمال القوة الى المفوض الذي يصبح والحالة هذه قبلة احقاد الجمهور، اضف الى هذا ان بعض رجال الكنيسة كانوا من جملة الذين يمتنعون عن تسليم التموين. ولذا ما كاد يمر على ميغيل سوى وقت قصير في الوظيفة حتى اصطدم بالممتنعين الصدمة الاولى وكان ذلك في بلدة

استجة حيث اضطر لحجز كمية من الحبوب والزيت كان قسم منها ملك الكنيسة والقسم الاخر ملك رجالها فصدر حرم كنسي بحقه واضطر الى الذهاب الى اشبيلية وبعد أخذ ورد رفع الحرم عنه وارجع المحجور الى اصحابه. وقد وقع له حادث آخر مثله في بلدة كاسطرو دل ريو.

لكن تصرف ميغيل في وظيفته رغم شدته الخارجية اكتسب له اعجاب المزارعين وتقديرهم لانهم رأوا فيه موظفا نزيها وما اقلهم في ذلك العهد. ولذا حين وجهت اليه التهمة مرنين بانه استبقى لنفسه بعض ما جباه للبحرية هب هؤلاء الذين كانوا اكبر معاندين لاوامره نفسهم ليدافعوا عن نزاهته ويشهدوا ببياض صحيفته وصدق تصرفه.

وفي سنة 1588 ازدادت وظيفته اتساعا اذ عهد اليه فضلا عن مهمته السابقة امر طحن الحبوب ونقلها وبعد مدة اضيف اليه امر خبزها وشحنها، فكاد المسكين ان يغرق في هذا البحر الخضم من الاعباء التي لم يخلق لها.

وكان تردده على اشبيلية في هذه الآونة قليلا، واقامته فيها حين يزورها قصيرة، اما علاقته بالادب فكادت ان تكون مقطوعة ولم يبق بينه وبين المسرح

صلة كانه لم يكن يومامؤلف ثلاثين مسرحيةقوبلت بالاستحسان في نفس مدريد! لا! ان حياته الان حياة عمل لايمت الى الادب بصلة واشغاله العديدة تستغرق كل مجهوده الجسمي والعقلي والجو الذي يعيش فيه والمحيط الذي يحيط به لايعرفان للادب معنى.

❀ ❀ ❀

في 22 يوليو (تموز) من سنة 1588 خرج الاسطول الاسباني من مرفأ لاكورونيا الواقع في الشمال الغربي موليا وجهه شطر انكلترا، لكن الحملة اسفرت عن اندحار كبير سببته العاصفة الهوجاء التي هبت وسوء ادارة قائدها مدينة صدونيا. وفي 23 سبتمبر (ايلول) من السنة نفسها وصلت بقية الاسطول الاسباني المندحر الى سانطندير، ومن الثلاثين الفا الذين خرجوا من لاكورونيا لم يرجع سوى عشرة الاف، واعتبر هذا الانكسار اعظم انكسار اصيبت به اسبانيا لانه عجل تدهورها ودل العالم على ضعفها وانحلال قواها، واعتبر مبدأ عهد انحطاطها.

وكان سرفانطيس حينئذ في اشبيلية، فتألمت نفسه تألما شديدا وهاجت عواطفه وسالت قريحته فتناول القلم

ونظم قصيدة عامرة فياضة بالروح الوطنية والعاطفة القومية وختمها بنداء حار موجه الى الملك فيليب الثاني يدعوه الى اعداد العدة لغسل العلم الاسباني من ادران هذه الهزيمة والثأر لهذ العار.

لكن الوضعية في اسبانيا كانت قد تبدلت والنفسية انقلبت واكتفي بالقاء تبعة الانكسار على العاصفة واسدل الستار على المأساة كأن شيئا لم يجر، وذهبت صيحة سرفانطيس كمن ينفخ في واد، ولم يحرك فيليب الثاني ساكنا واقتصر على ترداد الكلمة التي فاه به والده الامبراطور كارلوس الخامس (شارلكين) بعد هزيمته في وقعة ايتسبروك: «ان الله لم يرده».

سرفانطيس
يحلم باميركا

لم تزل النكبات تنصب على سرفانطيس. فها هو ذا الان بعد ان اصيب الاسطول الاسباني بالانكسار يبقى بلا وظيفة صفر اليدين لامال له ينفق منه ولا مورد يرده، فكاد يصبح عالة على اصدقائه، ولا عجب ان راودته في هذه الحالة فكرة الانتقال الى اميركا لان هذه القارة كانت حينئذ قبلة الخائبين ومحط آمال المنكوبين البائسين. فاخذ ميغيل يعد العدة للسفر اليها.

وفي شهر فبراير (شباط) من سنة 1589 قدم لائحة ارفقها بايمان مغلظة بما انفقه في ما طحنه من الحبوب في استجة، وقد جاء في اللائحة: اقسم بالله وباشارة الصليب ان كل ما دكر انفقته على الطحن وفضلا عن ذلك انفقت كميات اخرى لم اقيدها، واني اوقع هذا البيان باسمي الخاص في 6 فبراير (شباط) من سنة 1589 .

وبعد هذا التاريخ بمدة قليلة نراه يستوفي من احد اقاربه المسمى خوان دي سرفانطيس خمسين دكة قد يكون اسلفه اياها حين كانت حالته اكثر يسرا.

وفي يونيو (حزيران) من السنة نفسها وقع لصديقه القديم طوماس غوتييريث صاحب الفندق الذي اشرنا اليه من قبل في اشبيلية سندا ماليا يستفاد منه ان ميغيل كان مدينا له بكمية من المال· وقضى فصلي الصيف والخريف وهو يقدم لادارة المالية بينات عن حساباته· وكانت المالية مدينة له براتبه كله لانها كما قال احد المؤلفين لم تكن تدفع لموظفيها رواتبهم ومع هذا كانت تطلب منهم حسابات واضحة .

وفي هذه المدة علم بان بعض المناصب شاغرة في اميركا فطمحت نفسه الى شغل احدها· ولذا بعد ان فرغ من تادية حساباته الى المالية وصفى قضاياه الخاصة تناول القلم في شهر مايو (ايار) من سنة 1590 وكتب الى رئيس مجلس الهند – وهو المجلس القائم اذاك بادارة شؤون امبركا – العريضة التالية:

مولاي: يقول موقعه ميغيل دي سرفانطيس سافيدرا انه خدم صاحب الجلالة في المعارك البرية والبحرية التي وقعت منذ اثنتين وعشرين سنة وبنوع خاص في المعركة البحرية (الليبانطو) حيث اصيب بعدة جراح وفقد يده بسبب طلق ناري· وفي السنة التالية شهد معركة نافارينو

ثم معركتي تونس ولاغوليطا، ولما كان عائدا الى هذه العاصمة في المركب صول مزودا برسائل من مولاي ضون خوان والدوكي دي سيسا لينعم عليه صاحب الجلالة بما يستحقه وقع اسيرا هو واخ له خدم جلالته في المعارك نفسها ثم اقتيدا الى الجزائر حيث انفقا ما كان لهما من مال لافتداء انفسهما من الاسر، وكذلك انفقا كل ثروة والديهما ومهر اختيهما اللتين بقيتا فقيرتين لتفتديا اخويهما، وبعد افتكاكهما من الاسر خدما صاحب الجلالة في البرتغال وفي الجزر المثلثات مع الماركيس دي سانطا كروث، وما زالا الان في خدمة جلالته الواحد في فلانديس برتبة ملازم اما الاخر ميغيل دي سرفانطيس فهو الذي حمل الرسائل والتعليمات الى حاكم مستغانم وذهب الى وهران بامر من صاحب الجلالة، وبعد ذلك ادى خدماته في اشبيلية في تموين الاسطول تحت اوامر انطونيو دي غيبارة كما هو مذكور في الافادات التي لديهما، وطول هذه المدة كلها لم ينعم عليه باية وظيفة ولذا فانه يلتمس ويرجو بكل تواضع من جلالتكم ان تنعموا عليه بوظيفة في الهند (اميركا) من الثلاث او الاربع الوظائف الشاغرة الان وهي: محاسب

مملكة غرناطة الجديدة اوحاكم سوكونوسكو في بلاد غواتيمالا او محاسب المراكب الملكية في قرطاجنة او صاحب المظالم في مدينة لاباث، فاية وظيفة منها انعمت بها عليه جلالتكم قبلها لانه رجل حاذق وذو استحقاق كاف لتنعم عليه جلالتكم بوظيفة ولان رغبته في البقاء ابدا في خدمة جلالتكم وختم حياته كما ختمها سلفه من قبله، وفي اجابة طلبه يلقى خيرا وافرا .

❀❀❀

قدم سرفانطيس العريضة وكله امل بان طلبه سيستجاب فيكون خاتمة احزانه وفاتحة عهد السعادة والرخاء، وبينما كان ينتظر الجواب الذي لم يكن يتوهمه الا محققا لاماله شرع يتمم ما بقي له من معاملات ففي 31 من شهر يوليو (تموز) وقع توكيلا لكل من زوجته ضونيا كاتالينا واخته ضونيا ماغدلينا لتنوبا عنه في قبض ما يجب له سواء كان مالا ام سلعة وللمرافعة في سائر فصول الخصام ان اقتضى الامر.

وانقضى الصيف كله وتبعه الخريف وميغيل في انتظار الجواب على عريضته في اشبيلية وكاد يقبل الشتاء بزمهريره وحالته تنحط من سيئ الى اسوأ، الى

ان عجز عن شراء كسوة شتوية يتقي بها البرد القارص فاضطر الى اللجوء الى اصحابه وفي ٨ نوفمبر (تشرين الثاني) اشترى خمسة اذرع ونصف من القماش الرديء من دكان ميغيل دي كافيبيديس وشركائه وامضى بثمنها وقدره عشرة دكات سندا ماليا يستحق بعد مرور ثلاثة اشهر وكفله صديقه الفندقي طوماس غوتييريث. الى هذه الدرجة من الفقر بلغت حالة كاتبنا في هذا العهد!

❀❀❀

وبعد مدة بلغ ميغيل القرار الملكي في الجواب على عريضته وقد وقع على اسفلها ان يبحث عن وظيفة تسند اليه داخل البلاد الاسبانية.

وما ان بلغه الجواب حتى اظلمت الدنيا في وجهه من جديد وودع امانيه المعسولة وآماله المذهبة ورأى نفسه في الهوة من جديد كأنه لم يكتب له سوى مرارة الخيبة وألم الشقاء.

عودتــه
الى مفوضية التموين

في الاشهر الاولى من سنة 1591 قدم اشبيلية ضون بدرو دي ايسوننا وكانت تربطه بسرفانطيس صداقةقديمة ليشغل منصب ادارة التموين في اسانياالجنوبية بدل انطونيو دي غيبارة الذي اعفي من هذا المنصب. فكان وصوله بردا وسلاما على قلب ميغيل الذي رأى فيه باب امل جديد فخف اليه مسلما مستعطفا، فعرض عليه انسوننا ان يعود الى وظيفته كمفوض للتموين. ولم يجد ميغيل له بـدا من القبول لاشتداد حاجته الى مورد للرزق، فقبل على مضض وعاد الى حياته السابقة، حياة التنقل بين المدن والقرى وجمع المؤونة والاصطدام بالمزارعين المعاندين.

وفي سنة 1592 أم اشبيلية مدير جوق تمثيلي شهير في مدريد اسمه رودريغو اوسوريو. وكان سرفـانطيس يعرفه من عهده السابق ايام كانت تمثل مسرحياته في العاصمة، وليس من المستبعد ان يكون اوسوريو نفسه قد مثل مسرحياته، فانشرح لهذه الملاقاة صدر كاتبنا

وانتعشت نفسه وتنبهت افكاره واستفاقت ميوله الادبية من سباتها العميق وعادت الى مخيلته ذكرى تلك الايام البعيدة ايام كانت مسرحياته تمثل في مسارح العاصمة وتقابل بالاستحسان الكبير والتصفيق الحاد. وكأن الذكرى جددت في نفسه الرغبة التي كادت ان تكون ميتة. واسترجع الثقة بنفسه والايمان بقيمته وعبقريته. فوقع مع رودريغو اوسوريو عقدا يتعهد بموجبه ان يقدم له ست روايات مقابل خمسين دوقة عن كل واحدة يقدمها له عند طلبه. وتمثل ضمن العشرين يوما التي تلي التسليم. ومن جملة ما جاء في العقد وهو دلالة على ثقة سرفانطيس بنفسه: واذا ظهر بعد التمثيل انها من احسن المسرحيات التي مثلت في اسبانيا وجب عليه دفع الكمية المذكورة. واذا ظهر انها ليست من احسنها كان في حل من دفع اية كمية كانت .

سرفانطيس في السجن

لاندري ان كان سرفانطيس قد وضع المسرحيات التي وعد بها ام لا وعلى الارجح انه لم يضعها، وعلى كل حال من الثابت ان واحدة منها لم تمثل، وبدلا مما كان يؤمله من مال وجد اذا به يزج بغتة في السجن ليقاسي امر الالام واشنع الولايات.

وخبر ذلك هو ان الاختلاس الفاحش الذي كان يرتكبه مفوضو التموين في ما يصل الى ايديهم حدا بالحكومة بعد ان استنفدت الحيل عبثا في تدارك الامر الى تعيين مفتشين على المفوضين، لكن الدواء جاء اقبح من الداء وما كان يفعله المفوضون صار يفعله المفتشون وعليه يزيدون، وهذا التدبير اوقع المفوضين في احرج مازق، فمن جهة معارضة الشعب وممانعته ومن جهة ثانية كيد الاعيان والكبار ومن جهة ثالثة كيد المفتشين الذين كانوا معظمهم يعملون لحسابهم الخاص اكثر مما يعملون لصالح الدولة.

ونكب سرفانطيس بمفتش من بلدة استجة اسمه فرنسيسكو موسكوسو، فكان هذا يضمر لمفوضنا المسكين

حقدا كبيرا لعله يعود الى العهد الذي كان فيه سرفانطيس يجمع المؤونة من تلك البلدة، فما ان كادت تبلغه وشاية بان سرفانطيس اخرج ثلاثمائة فنيقة من القمح من هري استجة حتى وجه امرا دون سابق تحقيق في صحة الوشاية الى بلدة كاسطرو دل ريو حيث كان سرفانطيس يقوم بمهام وظيفته ليلقي عليه القبض، فحاول ان يثبت براءته لكن محاولته ذهبت ادراج الرياح وعلى مرأى ومسمع من الجميع اقتيد الى سجن البلدة وزج فيه.

وقد عمل السجن في نفسه ما لم تعمله النكبات ولا الاخطار ولا سنوات الاسر الخمس مع ما رافقهما من الاهوال، لانه رأى في حبسه على هذا الشكل تعديا وظلما وتشفيا، وادرك هنا مدى الشر الانساني ومدى ما يفعله الحقد في النفوس والى اي حد من الظلم والشر يدفعها، ولم ينهه عن الابتعاد عن جادة الخير سوى طيب نفسه ونبلها هذا النبل الذي لم يفارقه قط في ايام الشدة والشقاء.

فما خرج من السجن حتى وجد رئيسه وصديقه اسنوثا في ضيق بسبب وشاية رفعت به يزعم فيها ان معاون سرفانطيس واسمه نقولا بنيطو استولى على كمية كبيرة من الشعير الذي للجيش الملكي وانه وان كانت

الوشاية موجهة ضد المفوضين فقد ترك هؤلاء جانبا ووجهت الهجمات ضد رئيسهم اسنوثا بقصد ايقاعه في المصيدة ومحاكمته مع تعريض شخصه لخطر السجن واملاكه لخطر الحجز. وعلم ميغيل بالوشاية فلم يتردد في التصدي للدفاع عن رئيسه وصديقه ووجه رسالة الى الملك يلقي على عاتقه كل تبعة في هذه القضية مؤكدا براءة اسنوثا التامة ومتعهدا بتقديم ضمانة عن كل ما وجهت به التهمة وطالبا الا يزعج اسنوثا ادنى ازعاج بسبب هذا لا في شخصه ولا في ماله.

لكن مجلس المحاسبات لم يعر رسالته كبير اهتمام وظلت القضية قائمة. وما حلها سوى وفاة اسنوثا التي حدثت بعد ذلك بقليل. فخلصته من المحاكمة وما قد يعقبها من حجز وسجن.

* * *

خلف اسنوثا في رئاسة ادارة المؤونة في اشبيلية المحاسب ميغيل دي اوبييدو ورغم الحادثة الاخيرة ظل سرفانطيس في وظيفه. وعهد اليه هذه المرة جباية المؤونة من القسم الغربي من اسبانيا الجنوبية. فطاف عددا كبيرا من المدن والقرى. وجمع المؤونة على حسب عادته. لكنه

اصبح اقل نشاطا واقل مرحا، واصبحت نفسه التعبة تتوق الى الراحة والهدوء

وفي هذه المدة، بينما كان يجتاز تلك المرحلة المؤلمة من حياته كانت والدته العجوز ضونيا ليونور دي كورتيناس تلفظ النفس الاخير في دار حقيرة من شارع ليغانيطوس في مدريد ولم يكن حولها ليغمض جفنيها سوى ابنتيها اندريا وماغدلينا، اما ابناها ميغيل ورودريغو فلم تنعم بمشاهدتهما قبل ان تسلم الروح، وكان ذلك في اوائل نوفمبر (تشرين الثاني) من سنة 1593.

وفي ربيع السنة التالية انتقل ميغيل الى مدريد لتصفية بعض القضايا مع ادارة المالية، وفي هذه الرحلة اغتنم الفرصة لتصفية بعض قضاياه الخاصة ومن جملتها تدبير امر ابنته غير الشرعية ايزابل دي سابيدرا التي كانت مسجلة رسميا كابنة الونصو رودريغث وآنا فرانكا فدبر ميغيل الامر بحيث لاتبقى الفتاة مهملة وبعد ذلك بسنوات في 11 أغسطس (آب) من سنة 1599 تعهدت اخته ضونيا ماغدلينا بعقد كتابي بان تتخذها لخدمتها وتتكفل بتربيتها، والقصد من هذه الصورة اخفاء الحقيقة عن زوجة سرفانطيس.

وبعد ما صفى ميغيل كل القضايا واعد العدة للرجوع الى اشبيلية اذا به يفاجأ بنبأ الغاء مفوضيات المؤونة واعادة تنظيم تموين الاسطول على اسس جديدة فانقض النبأ عليه كالصاعقة ورأى نفسه من جديد دون مورد رزق يرده، فما كان منه الا ان استأنف الالتماس والالحاح حتى حصل اخيرا على وظيفة جديدة بواسطة رجل اسمه اغوسطين دي سيتينا كان من ذي قبل محاسبا في اشبيلية وهنالك تعرف به سرفانطيس وكانت الوظيفة الجديدة جباية القبالات المتاخرة في مملكة غرناطة، وكان لابد قبل استلامها من تقديم ضمانة مالية، فكيف العمل وميغيل لايملك شروى نقير، ويعز عليه ان يتذلل لامرأته لتضمنه، واخيرا وجد ضامنا في شخص رجل اسمه فرنسيسكو سواريث دي طارانكون لكن الضمانة التي قدمها هذا لم تكن كافية، وفي آخر الامر لم ير ميغيل بدا من اللجوء الى زوجته فاقنعها لتساعده على امنيته وفي 21 اغسطس (آب) من سنة 1594 وقعت امام الكاتب العدل خيرونيمو فليكس تعهدا بالضمانة المطلوبة، وبعد يومين صدر المرسوم الملكي بتعيينه في الوظيفة فودع زوجته واختيه وخرج في مغامرته الجديدة.

وكانت الوظيفة صعبة التنفيذ اكثر خطرا وتعقدا من الوظيفة السابقة، ففي اوائل شهر سبتمبر (ايلول) بلغ مدينة وادي آش وفيها باشر القيام بمهام وظيفته، لكنه سرعان ما وجد ان القسم الاكبر مما عهد اليه جبايته قد جبي سابقا وانفق بين رواتب الجباة والكتاب والمحاسبين ونفقات تنقلاتهم والقسم الاخر جبي ايضا لكنه موقوف على تصفية الحساب، فلم يجب سوى قدر ضئيل ومن ثم انتقل الى بلدة باصا واصطدم فيها بعقبات جديدة اجبرته ان يطيل اقامته فيها اكثر مما كان يؤمل. ولهذا لما بلغ بلج ـ مالقة كان الاجل الذي عين له قد انصرم فكتب الى مدريد يلتمس اطالته عشرين يوما، واستجيب التماسه فانتقل الى مالقة، ومنها الى رندة في ٩ دسمبر (كانون الاول) ومن ثم واصل السير الى مطريل فسالوبرينيا، وعبر الجبال في قلب الشتاء حاملا ما امكنه ان يحصله ودخل اشبيلية مغموماً مقهوراً تقض عليه مضجعه تلك الحسابات التي لايعرف اولها من آخرها.

دخل اشبيلية ثم توجه الى مصرف سيمون فرايري ودفع اليه قسما من المال الذي بيده وسلمهمقابله حوالة على عميله في مدريد كي لايقوم بالرحلة من اشبيلية الى

مدريد حاملا المال كله، لكن حظه العاثر ابى الا ان يمنى بنكبة جديدة، وذلك انه قبل ان يبلغ مدريد جاءه الخبر بافلاس مصرف سيمون فرايري، فعاد على اعقابه الى اشبيلة مسرعا وحين وصلها وجد ان صاحب المصرف قد فر من اسبانيا بينما كان الحجز جاريا على ماخلفه وراءه من املاك، وبعد ايام قليلة تلقى ميغيل من مجلس المحاسبة رسالة تهديدية فيما اذا لم يوفق الى استرجاع الكمية التي سلمها الى المصرف، فعظم همه وزاد غمه والتجأ الى ذوي النفوذ وجادل وتضرع وبعد اللتيا واللتي امكنه ان يسترجع الكمية كلها ويبعد عن نفسه شبح السجن المصلت سيفه فوق رأسه.

❀ ❀ ❀

لم يرجع سرفانطيس الى مدريد للمثول امام مجلس المحاسبة، بل فضل البقاء في اشبيلية ولم تعد نفسه ترغب في الوظائف، وانقضت سنوات عديدة لا نعلم عن حياته خلالها شيئا البتة واول خبر عنه يعود الى اشتراكه بعد ذلك بمدة طويلة بمباراة شعرية اقيمت في سرقسطة بمناسبة تطويب سان خاسنطو قديسا، ونيله الجائزة الاولى فيها.

في اشبيلية

نفي سرفانطيس في اشبيلية ولا شاغل يستغرق وقته وجهوده، فانصرف الى التفكير والتأمل، واخذ يستعيد في ليالي اشبيلية الهادئة ذكريات الماضي واحلامه الخائبة وآماله الضائعة ويقابل بين ما كان يؤمله وما صار اليه فبدأت تتجسم في دماغه فكرة ساورته منذ بعيد فكرة تصوير القلب النبيل ساعيا وراء المثل الاعلى فيصطدم في كل خطوة بعقبة اقامتها النفوس الشريرة، ولما نضجت هذه الفكرة في دماغه شرع بوضع مؤلفه الخالد ضون كيخوطي .

لكن الحياة حوله ظلت جارية في مجاريها العادية ضاربة باحلامه عرض الحائط، ومن جملة حوادث هذه الحياة قضية القبالات التي لما تكن قد انتهت اضف الى ذلك ان حساباته منذ ان كان مفوضا للتموين لم تصف بعد، فكل هذا كان بمثابة خطر دائم يهدده، وما لبث مجلس المحاسبات ان ابلغ ممثله في اشبيلية ان يطلب من سرفانطيس تقديم ضمانة عن الكميات التي مازالت في ذمته من القبالات وان يستدعيه الى العاصمة لتقديم الحساب بلا تاخير والا فليقبض عليه ويقده معتقلا الى

مدريد· فاكتفى ممثل المجلس بحبسه في سجن اشبيلية· ومنه ارسل ميغيل طلبا الى مجلس المحاسبات يلتمس اطلاق سراحه نظرا اقلة الكمية الباقية في ذمته ولاستحالة ترتيبه اوراقه ما دام في السجن· فاستجيب طلبه واطلق سراحه بعد ان قضى سجينا ثلاثة اشهر.

وفي السجن تعرف على الكاتب الشهير ماتيو اليمان مؤلف قصة قزمان بن الفرج من امهات قصص الشطار الذي قضى في ذالك السجن وللسبب نفسه سنوات عديدة وتعرف ايضا على كثير من مشاهدة الحياة واسرارها باختلاطه بذلك العدد الكبير من المساجين الذي كان يتجاوز الالفين من مختلف الطبقات الاجتماعية.

خرج من السجن وعاد الى حياة الشقاء والبؤس· وتنقضي السنون دون ان نعرف عنه شيئا البتة· وجل ما نعلمه هو انه في سنة 1597 نظم موشحا في رثاء الشاعر · هيريرا الذي كان موضوع اعجاب سرفانطيس في ايام الصبا وفي سنة 1598 حين حل فصل الخريف واقبل البرد اضطر الى شراء كسوة شتوية· وكان شراؤها هذه المرة بالدين ايضا· وكفله المأذون · فرنسيسكو دي آغيلا · ويعرف انه بعد ذلك بقليل اي في نوفمبر (تشرين

الثاني) اشترى قنطارين من البسكويت العادي بست دكات وكان الشراء بالدين ايضا وكفله رجل يدعى خيرونيمو دي بينيغاس ويستنتج المؤرخون من سند هذا الدين الذي ما زال محفوظا ان سرفانطيس كان يقوم خلال هذه المدة بعمليات تجارية يعيش من كسبها ومن جملتها بيع المؤونة للمراكب يساعده على ذلك ما اوجده لنفسه من علاقات ايام كان مفوضا للتموين.

على ان المهم من هذه الحقبة كلها هو انه خلالها وضع القسم الاول من مؤلفه الخالد ضون كيخوطي وسجل على صفحاته خلاصة ما قاساه وتعلمه من اسرار الحياة في هذه المدة وما قبلها.

❀ ❀ ❀

في 12 سبتمبر (ايلول) من سنة 1598 فارق الحياة الملك فيليب الثاني فعمت اسبانيا من اقصاها الى اقصاها موجة من الحزن عميقة واقيمت في البلاد باسرها الجنائز والصلوات، وشاركت اشبيلية مشاركة فخمة بهذه الاحتفالات. وبمناسبتها وضع سرفانطيس موشحا أبن فيه الملك الراحل.

وما كادت تنتهي هذه الاحتفالات حتى قدم اشبيلية

الشاعر الكبير لوبي دي بيغا الذي كان اذاك في اوج الانتصار وقد قارب الاربعين من سنه، ولم يعرف منذ العشرين سوى الانتقال من نصر الى نصر واينما حل انفتحت امامه ابواب المسارح وقوبلت رواياته بالاعجاب، وكانت العداوة بينه وبين سرفانطيس قد بلغت اذاك اشدها، ولا سبب لها على الغالب ـ والحق يقال ـ الا هذا الحسد الخفي الذي كان يشعر به سرفانطيس حين يرى زميله مطوقا باساور النعمة متقلبا في احضان النعيم بينما حياته هو تنصرم في بؤرة من الشقاء والتعاسة مع علمه بكفاءته ونبوغه.

قلنا ان لوبي قدم اشبيلية فقوبل بما عهد ان يقابل به من الحماس في الاوساط المسرحية والادبية، لكن زمرة الخائبين ومن جملتهم سرفانطيس، هؤلاء الذين لم يجدوا في الحياة سواء منها المادية او الادبية غير الخيبة والفشل تالبوا عليه ورشقوه بنبال اهاجيهم وكان سرفانطيس في الطليعة، فنظم بحقه قصيدة لاذعة الهجاء.

لكن ميغيل حين ابتسم له الحظ فيما بعد عرف ان يتجرد من حسده ويرجع على اعقابه فيقدر لوبي حق قدره وينوه بنبوغه وشاعريته.

اسطورة ارغاماسيا

قلنا سابقا ان هذه الفترة من حياة سرفانطيس محاطة بالغموض فلذا حامت حولها الاقاويل والافتراضات ومن جملتها ما سماه المؤرخون باسطورة ارغاماسيا وارغاماسيا هذه بلدة تقع في مقاطعة «سيوداد ريال».

ومفاد الاسطورة انه اسندت الى سرفانطيس مهمة تحصيل العشور التي كانت مترتبة على سكان البلدة نحو رئاسة دير سان خوان، لكنهم ثاروا بكاتبنا واعتقلوه وسجنوه، وتقول رواية اخرى ان سبب سجنه في هذه البلدة هو انه عهد اليه القيام بمهمة تتعلق بمعمل البارود الذي كان فيها، فاضطر لتسيير المعمل الى الانتفاع من مياه وادي يانة مما اضر بالسكان الذين كانوا يستغلونها للري، وتقول رواية ثالثة انه حبس في «الطوبوسو» بسبب تعريضه باحدى نساء تلك البلدة.

هذا وان المؤرخين العصريين قد نفوا صحة هذه الروايات لعدم استنادها على اساس صحيح، لكنه منذ مئة عام كان سكان «ارغاماسيا» يروون حديثا بلغهم بالتواتر يؤكد فيه ان سرفانطيس سجن في تلك البلدة

ويذكر ذلك الحديث مطلع رسالة يقال ان سرفانطيس وجهها من سجنه مستغيثا الى رجل من بلدة قصر سان خوان يدعى خوان برنابي سابيدرا لعله كان من اقاربه. وتقول الاسطورة انه اشار الى سجنه في ارغاماسيا حين قال في مقدمة كتابه انه وضعه في السجن، وسواء صحت هذه الاسطورة ام لم تصح فالثابث ـ حسب قول احد المؤرخين المعاصرين ـ هو انه حين عاد هذه المرة الى مدريد كان يحمل معه مخطوطة الكتاب.

⁂

ولابد لنا قبل ان ننتقل الى هذه المرحلة الجديدة من حياة كاتبنا العظيم ان نتوقف هنيهة لنشير الى براءة ساحته رغم سجنه مرارا بسبب حساباته مع ادارة المالية فان دخوله السجن انما كان من قبيل ما نسميه اليوم بالسجن الاحتياطي دون ان يكون على المسجون اي دليل يثبت انه مذنب وان هي الا من جملة المعاملات الادارية المألوفة في ذلك العهد، فكل موظف يتاخر في تادية الحساب كان يصدر بحقه امر بالسجن، الاحتياطي ولا عجب ان يتاخر الموظفون عن تادية الحسابات خصوصا متى كانت من نوع المعهود بها الى سرفانطيس

كثيرة التعقد، ولو لم يكن سرفانطيس بريء الساحة من كل تهمة لما عين بعد خروجه من السجن بقليل لجباية القبالات الملكية من مملكة غرناطة، ويؤيد براءته كلامه في معرض كتاباته عن سجنه دون استحياء ولا خجل: فلو لم يكن بريئا لما امكنه وهو الانوف العزيز النفس ان يشير الى سجنه دون ان يورد لنفسه الاعذار الكثيرة.

الفصل الرابع

سرفانطيس
في بلـد الولـيـد

بعد ان توفي فيليب الثاني خلفه ابنه فيليب الثالث وكان ضعيف الارادة قليل العزم، فسلم شؤون الملك الى ضون فرنسيسكو غوميث دي ساندوبال المعروف بالدوكي دي ليرما، وكان هذا همه الاكبر استثمار منصبه الرفيع واسناد المناصب العالية الى اقاربه، وما بقي منها اسناده الى من يحسن الرشوة، فنقل البلاط الملكي الى مدينة بلد الوليد مقابل كمية كبير من المال تلقاها من سكانها حسبما يقال، كما انه فيما بعد تناول من سكان مدريد كمية اخرى اكبر منها لارجاع البلاط اليها، وهذه الكلمة الموجزة كافية للدلالة على الفساد الاخلاقي الذي كان مسيطرا في ذلك العهد على الدوائر الحكومية، ومن جراء هذا عم الفساد المجتمع باسره واخذت اسبانيا تتدحرج بسرعة نحو هاوية الخراب.

على هذه الحالة كانت بلد الوليد سنة 1603 حين قدمها سرفانطيس لكنه قبل ذلك مر بمدريد وكانت

قد سبقته اليها شهرة كتابه الذي كانت بعض مقاطعه قد صارت تتداولها الايدي وترددها الالسن في النوادي الادبية وفي الفنادق وبين مختلف الطبقات، فما ان بلغ مدريد حتى تقابل مع الطباع فرانسيسكو دي روبلس ـ نجل الطباع الذي نشر له قصة لاغالاطيا منذ عشرين سنة ـ واتفق معه على طبع الكتاب ولا شك انه اسلفه قسما مما تم الاتفاق عليه لكي يقدر على المثول امام أهله بمظهر لائق.

وزار اخته ماغدلينا التي كانت تسكن الان وحدها بمعية ابنته ايزابيل بصفة خادم كما قلنا سابقا لتتمكن من تربيتها دون ان تثير شبهة في نفس زوجه ضونيا كاطالينا. وكانت العائلة قد فجعت منذ سنتين بوفاة شقيقها رودريغو في فلانديس في وقعة لاس دوناس، وابلغ ميغيل شقيقته رغبته في ان تجتمع العائلة ويواجهون ما بقي من العمر منضمين تحت سقف واحد. لان الشيخوخة قد بدات تهدد وحدته وصار يشعر بالحاجة الى العيش بين اهله. فهللت شقيقته للفكرة ورحبت بها.

ومن ثم انتقل الى اسكيفيا حيث كانت زوجته

التي لم يرها منذ سنوات ولعلها بدات بدورهـا تشعر بعبء الوحدة في دار واسعة لا رفيق لهـا سوى امها العجوز فانتعشت في نفسها جذوة الحب والشوق التى لم تنطفيء قط نحو هذا الرجل الذي تزوجت به عن حب واخلاص بالرغم عن معارضة اهلها وممانعتهم. فما كان منها الا ان لانت امام وعود ميغيل واقتنعت بمغـادرة اسكيفيا ومرافقته الى بلد الوليد لتعيش معه ومع اختيه وابنته التي اصبح امرها معروفا لديها، وبلغ بها الحـب والتضحية ان رضيت بتبني الفتاة ومعاملتها كما لو كانت ثمرة احشائها.

وانتقل الى بلد الوليد مصحوبا بزوجتـه واختـه وابنته فاستقبلته شقيقته اندريا مفتوحة الذراعين، وكانت قد قدمت هذه المدينة مع ابنتها منذ مدة وفيها كانتـا تعيشان من احتراف الخياطة لدور بعض الكبراء، وكانت اندريا تكن نحو اخيها عطفا كبيرا فرحبت ايضا ايمـا ترحيب بفكرة العيش تحت سقف واحد، واستقر بهم المقام في دار جديدة البنيان مقسومة الى طابقين في الحي المسمى «بالمجزر» بالقرب من قنطرة فوق نهر اسكيفـا على مقربة من «باب البر».

بعد ان صفى سرفانطيس حساباته المتعلقة بالوظيفتين اللتين شغلهما سابقا جعل يسعى من جديد للحصول على وظيفة ادارية هادئة تضمن له العيش في شيخوخته، لان الارباح التي درها عليه مؤلفه الكيخوطي وان كانت لايستهان بها لو قوبلت بارباح المؤلفين في ذلك العهد فانها لم تكن بكافية لاعالته هو وعائلته العديدة الان ولرفع معيشتهم الى ذلك المستوى الذي كانت تتوق اليه نفسه، فاستأنف دلك العهد المطوي منذ نحو من عشرين سنة ايام عاد من البرتغال الى مدريد وكان يهبط درجا ليصعد آخر ويغادر غرفة انتظار لبدخل اخرى متقربا الى الكبراء ملحا في الالتماس وبعد ان امضى شهرين في الانتظار ـ حسبما يروي المؤرخون ـ حظي بمقابلة الدوكي دي ليرما، لكن الدوكي ـ حسبما يقال ايضا ـ استقبله بازدراء ولم يعر مطالبه ادنى اهتمام فخرج من هذه المقابلة بخفي حنين وعاد الى الاشتغال بالادب والتجارة كعميل ولذا قيل عن حياته في بلد الوليد ، انه كان يكتب ويتعاطى التجارة ولا عجب وقد سدت امامه ابواب الرزق وعلى عاتقه عبء عائلة كبيرة.

في طليطلة

في شهر يوليو (تموز) من سنة 1504 توفيت في بلدة اسكيفيا حماة سرفانطيس، فقدمها بمعية زوجته ضونيا كاطالينا، وصادق على قسمة تركة الفقيدة بين وارثيها ضونيا كاطالينا واخيها فرنسيسكو دي بالاسيوس.

وفي شهر اغسطس (آب) من السنة نفسها انتقل مصحوبا بنسيبه هذا لبيع بعض العقارات، وفي هذه الرحلة والرحلات التي تلتها الى تلك المدينة التقى سرفانطيس دون شك بالشاعر لوبي دي بيغا.

وكانت العداوة القديمة بين الاديبين قد خمدت نارها وتلتها فترة تقارب في علاقاتهما يشهد عليها ما جاء في مقدمة رواياته «دراغونيطا» التي طبعت سنة 1602 في مدريد من ابيات تقريظية للمؤلف وضعها سرفانطيس، لكن هذه الفترة لم تطل واذا بهما في سنة 1605 قد عادا الى العداوة السابقة التي بلغت هذه المرة من الحدة ما لم تبلغه من ذي قبل، وقد افرغ لوبي جعبة حقده في رسالة وجهها تلك السنة الى صديق له في بلد الوليد وقد جاء فيها: اما عن الشعراء فحدث

ولا حرج! وناهيك عمن في هذا الجيل! فكثيرون منهم ستنفتح اكمامهم في العام المقبل لكن ليس بينهم من يسفل الى درجة سرفانطيس ولا من تبلغ به البلاهة الى تقريظ ضون كيخوطي ' وليس من الصعب ان تشتم من هذه الجملة الاخيرة رائحة الحسد. فان لوبي الذي كان ينظر خلال عشرين سنة من عل الى سرفانطيس لابد ان يكون قد احس بطعنة في كبريائه حين رأى شهرة ضون كيخوطي قد ضربت في الافاق والمؤلف لما يكمل طبعه.

❀ ❀ ❀

عاد سرفانطيس الى بلد الوليد بعد ان انهى القضايا التي قادته الى طليطلة' وعاد الى تلك الحياة الهادئة بين ذويه واصحابه وكان في السنتين اللتين مرتا على حلوله في هذه المدينة قد توطدت اواصر الصداقة بينه وبين جملة اشخاص نخص بالذكر منهم ضون بدرو دي طوليدو مولى قرية هيغارس الذي تعرف به ميغيل في اشبيلية والتاجر الجنوي اغسطين راخيو والبرتغالي سيمون منديس جابي «اعشار البحر في مملكة قشتالة وكانت له ايضا صلة بالكوندي دي سالدانيا ابن الدوكي

دي ليما وبالكوندي دي ليمونس وضون خوان دي اوربينا كاتب الدوكي دي سابويا، وكان الثلاثة الاولون كثيرا ما يترددون الى داره فيتسامرون ويدور الحديث حول شؤون شتى من تجارة وسياسة وادب، ويتخلل السمر قراءة ميغيل بعض المقاطع من كتابه الخالد الذي كان تحت الطبع

وكلما تقدم الطبع ازداد كاتبنا فرحا واطمئنانا وثقة بنفسه وتحسنت حالة العائلة ماديا ومعنويا فامكنهم ان يتخذوا خادما للقيام بشؤون البيت واخذ الجميع ينظرون بشيء من التفاؤل الى المستقبل ومن التقدير والاعجاب الى ميغيل.

ظهور الكيخوطى

في 26 سبتمبر (ايلول)من سنة 1604 صدر الاذن الملكي بنشر الكتاب لكنه لم يصدر الا في اوائل سنة 1605 لما استغرقته من وقت معاملات التصحيح والتسعير، فقوبل برواج لم يعرف له سابق نظير، وانتشرت نسخه في كل مكان وبين جميع الطبقات، والكل بين معجب ومكبر، وقد فاق الرواج الذي صادفه كل ما كان يصبو اليه سرفانطيس او يحلم به من فوز، وتكررت الطبعات في مدة قصيرة، وفي 11 ابريل (نيسان) من السنة نفسها وسع سرفانطيس التفويض الممنوح للطباع فرنسيسكو دي روبلس فجعله شاملا للبرتغال واراغون وبلنسية وقطلونيا، وفي اليوم التالي في 12 نيسان امضى له توكيلا يفوضه به لملاحقة الطبعات السرية.

وامام هذا النجاح الذي فاق كل حسبان والشهرة التي تعدت كل حدود وامتدت الى سائر الانحاء شعر كاتبنا باستقرار داخلي وطمأنينة باطنية جاءت الان في الشيخوخة لتعوض عما افلت من يديه من اكاليل المجد التي كان يؤمل ان تزين جبينه في ريعان الصبا ونشوة الفتوة.

دعوى اسبيليطا

في ليلة 27 يونيو (حزيران) من سنة 1605 حوالي الساعة الحادية عشرة بينما كان سرفانطيس قد آوى الى الفراش وزوجته وابنته واختاه وابنة اخته قد ذهبن الى الكنيسة اذا بتاوهات تمزق سكون ذلك الليل وصوت ضعيف متقطع يستنجد ويستغيث لكن الاستغاثة كادت تذهب ادراج الرياح في ذلك الليل البهيم. وسرعان ما خف من بلغت اذانهم الى اغلاق نوافذ بيوتهم يسترقون الخبر دون ان يجرأ واحد منهم على مد يد الاغاثة للمستغيث لانه طالما انقلبت الاعانة ويلا على المعين بسبب تصرفات العدالة في ذلك العهد.

لكن واحدا من الناس في ذلك الجو الموبوء ما زال نبيل النفس عاليْ الهمة لايبالي بالخطر اذا كان لابد منه لمساعدة الغير. واحدا لم يحجم في عهد الصبا ـ منذ ثلاثين سنة ـ عن المثول مرارا بين يدي امير ظالم حقود مستبد والقاء المسؤولية كلها على عاتقه ونفيها عن اصحابه ليبعد عنهم كل شر او اذى. وها هو ذا الان وقد قارب الستين يكرر تلك البادرة النبيلة التي جرت

عليه بين بني قومه من الويلات ما لم يجره عليه في الاسر بين الاعداء.

اجل! سمع سرفانطيس نداء المستغيث فهب من فراشه وهبط الى الشارع مصحوبا بفتى في الخامسة عشرة من عمره كان يسكن مع امه في نفس البناية في السمت الواقع ازاء بيت كاتبنا. وما ان بلغا الباب حتى وجدا رجلا جريحا يقارب الثلاثين من عمره يتقدم مترنحا والدم يقطر غزيرا من جراحه وما زال السيف بيده اليمنى والترس بيده اليسرى. فحملاه الى دار ضونيا لويسا مونطويا ام الفتى الذي رافق سرفانطيس. وهنالك هيأوا له فراشا على الارض، واستدعوا جراحا لمعالجته. فجاء الجراح ووجد فيه جرحين بليغين وشرع بتضميدها. ولكن ما عتم ان اقبل مامورو العدالة وعلى رأسهم قاضي التحقيق كريسطوبال دي ببارويل وشرع بالتحقيق.

❀ ❀ ❀

كان الجريح شابا من نافارة اسمه غاسبار دي اسبيليطا يعيش في بلد الوليد تحت كنف الماركيس دي فالسيص رئيس رماة الملك، وكان اسبيليطا لاشغل له سوى مسامرة الماركيس والانصراف الى حياة اللهو والمرح،

فعلى مائدة الماركيس كان بتناول الغداء والعشاء ويقيم في عرفة في احد المثاوي وان كان لايأوي اليها ليلا الا في القليل النادر حسبما شهدت بذلك فيما بعد ربة الفندق وبستفاد من التحقيقات التي اجريت انه كانت له علاقات غرامية بزوجة كاتب يسمى عالمان ، ويظهر ان هذا اطلع على امر تلك العلاقات فاضمر في نفسه الانتقام من اسبيليطا وفي ليلة 27 بونيو (حزيران) كمن له مقنعا عند القنطرة القريبة من دار سرفانطيس لعلمه انه سيمر بها، ولما بلغها اسبيليطا تصدى له وكلاهما بسلاحه واسفر البراز عن اصابة اسبيلبطا بجراح خطيرة فتحامل على نفسه وتابع سيره مستغيثا ولا مغيث حتى قارب دار كاتبنا وطرقت اذنه استغاثته فهبط لاعانته على الوجه الذي ذكرناه سابقا.

وقد ادلى عدد وافر من الشهود بافادات تؤدي كلها الى ايضاح القضية على الوجه المبين. ومن جملتهم ربة الفندق الذي كان بعيش فيه اسبيليطا وفتاة التقت به قبيل اصطدامه بخصمه والتقت بهذا ايضا وهو مقنع وشهادة زوجة الكاتب غابيلان ـ التي احتفظ القاضي بمضمنها ـ واقرار اسبيليطا نفسه الذي اعترف مرارا ان

خصمه لم نغدر به وانما نبارزا نبارز الفرسان ولاداعي الى التحقيق. وبالرغم عن وضوح القضية ساءت ارادة قاضي التحقيق الملتوية، لامر في نفسه، سلك سبيل آخر والاعضاء عن الحقيقة والتمسك بحجج اوهى من خط العنكبوت والقاء التبعة على سرفانطيس وعائلته.

وبعد يومين توفي اسبليطا رغم ما احيط به من عناية. وواصل القاضي تحقيقاته الملتوية الى ان انتهى به الامر الى اصدار امر بسجن سرفانطيس وزوجته واختيه وابنته بتهمة مقتل اسبليطا بعد ان حاكت خيلته الخصبة حكاية مفادها ان قاتل اسبليطا هو سرفانطيس وعزا السبب الى علاقات غرامية بين القتيل وابنة الكاتب. وهكذا اسفر البهتان في يد قاض لايعرف للعدل وجها ولا للضمير صورة عن زج سرفانطيس وهو يقارب الستين مع كل افراد عائلته في السجن الملكي جزاء له على مده يد الاعانة الى جريح يستغيث في ظلام ليل معتم.

لم يطل سجن سرفانطيس هذه المرة. لكن الصدمة كانت عنيفة وانه وان كانت نفسه قد الفت مرارة الجور وتعنت الزمان لم يكن لهذه المأساة الجديدة بد من ان

تفتح في قلبه من جديد ذلك الجرح الذي كان قد
اوشك ان يلتئم منذ قليل عند ظهور الكيخوطي.
واكثر ما زاده غصة هذه المرة شمل عائلته كلها
بالنكبة. ولم يكن من السهل عليه ان يراهن جميعا
يتحملن الم السجن بسبب نادرة نبل استفزه الى
الاتيان بها قلبه الكريم.

في هذه السنة عاد البلاط الملكي الى مدريد. وفي
خريف السنة نفسها انتقل اليها سرفانطيس بعائلته. ففي
مدريد له اصحاب اقدمون وله علاقات بنوادي الادب.
وامل بالحصول يوما على وظيفة ما. هذه الوظيفة التي
مر عليه ربع قرن وهو يسعى وراءها دون ان يدركها.
وكانت هذه سفرته الاخيرة. ولن يغادر مدريد بعد
اليوم الا ليلاقي ربه.

سرفانطيس
يستقـر في مدريـد

عاد سرفانطيس بعائلته الى مدريد ونـزل في دار واقعة في شارع لاماغدالبنا وراء قصر باسرانا وبالقرب من هذه الدار كانت تقع مطبعة كوبسطا حيث تطبع طبعة جديدة من كتابه وبالقرب منها ايضـا يقع دير رهبان النعمة ودير الرهبان المثلثين. وفي الاول نرقد رفات والده وله في الثاني ذكريات حية تعود الى عهد اسره في الجزائر لان افتداءه كان على يدهم كما قدمنا.

وها هي ذا حياته الان في مدريد تنسال بهـدوء وطمأنينة فطبعات كتابه قد تكررت حتى بلغت السبع ومدخوله وان لم يصبح اهلا لاحلاله بين الاغنياء فهـو كاف ليبعد عن العائلة شبح البؤس وليوفر لها عيشةمتوسطة وفي مدريد وصل سرفانطيس ما كان قد تصرم مـن الروابط بحلقات الادب واحيا الصداقات القديمة فضلا عن الجديدة التي اكتسبها.

وبعد وصوله الى مدريد بقليل زفت ابنه ايزابيل

الى ضون دييغو سانس دل آغيلا، وكان هذا من عائلة نبيلة ذا ثروة لابأس بها، واقام الزوجان في دار قريبة من شارع البساتين كان لضون دييغو بعض الحقوق عليها، وفي اوائل سنة 1608 رزقا طفلة سميت باسم والدتها ايزابيل، لكن الحظ لم يشأ الا ان يعكر صفو هذا الاستقرار فما كادت تنقضي مدة قصيرة على ولادة الفتاة حتى كان والدها ضون دييغو يفارق الحياة تاركا ثروته بين يدي ارملته ايزابيل، وما ان ووري جثمانه حتى اطل شخص جديد يسعى وراء يدها، اسمه لويس مولينا وكان هذا لم يزل في شرخ الشباب مضطرب الحياة منصرفا الى التجارة فضلا عن شغله امانة سر المثريين الايطاليين كرلوس وانطونيو طراطا صاحبي المصرف الشهير الذي كان يحمل اسمهما، وقد كان زار ايطاليا واسر وهو عائد الى اسبانيا وسيق الى الجزائر حيث لا بد ان يكون قد سمع بالمآثر التي قام بها سرفانطيس ولم يزل ذكرها مترددا على السنة الاسارى، وبعد افتدائه من الاسر حل ببلد الوليد وتعرف بسرفانطيس وتوطدت بينهما عرى الصداقة وشعر كاتبنا نحوه بعطف كبير وعامله معاملة ابوية.

لكن مولينا لم يقابل الكاتب بنفس ما عامله به من اخلاص وصدق وولاء وانما رأى الان بعد وفاة زوج ايزابيل فرصة سانحة للحصول على مهر كبير ووضع يده على الثروة التي خلفها لزوجه وابنته ضون دييغو سانس فتقرب من الارملة متوددا واخيرا تم الاتفاق وعين يوم الزواج. واحب سرفانطس ان يعرب لابنته وصهره المقبل عن كرمه ولعله كان يؤمل بان ريع كتابه سيرتفع الى ان يسمح له بتحقيق ما نواه لانه في هذه الآونة انما كان مدينا للطباع باربعمائة وخمسين مليونا. وخلاصة الامر انه في 28 اغسطس (آب) من سنة 1608 وقع سرفانطيس تعهدا امام كاتب عدل بلتزم فيه بتادية الفي دكة الى صهره. وكفله ضون خوان دي اوردينا كاتب الدوكي دي صابويا الذي اشرنا اليه فيما سبق.

وفي 8 سبتمبر (ايلول) احتفل في كنيسة القدس لويس بزواج لويس مولينا وايزابيل دي سرفانطس. وكان كاتبنا يظن ان بهذا الزواج دارا جديدة ستفتح امامه في شيخوخته. لكن آماله خابت هذه المرة ايضا. لان مولينا لم يسكت عن المهر الذي تعهد سرفانطس بتاديته ولم تسعفه الحال على الوفاء. فلاحق خوان دي

اوزبيا وحصل منه تلك الكمبة وادى الامر الى توتر العلاقات بين الكاتب من جهة وابنته وصهره من جهة أخرى.

في 17 ابريل (نيسان) انخرط سرفانطيس في اخوية عبيد القربان الاقدس التي اسسها في السنة السابقة احد الرهبان المثلثين، وكانت هذه الاخوية بحيرة بلنحي اليها التعبو القلب، طلبا للراحة النفسية والتقرب من الله، وقد انضم اليها بعد سرفانطيس كثير من كبار كتاب عهده نخص بالذكر منهم فيسنطي اسبيل وكيبيدو ولوبي دي بيغا، لكن سرفانطيس كان اكثرهم ممارسة لواجبات الاخوية وحضورا لحفلاتها الدينية.

وبعد مدة قليلة فجع كاتبنا بوفاة شقيقته اندريا فتألمت نفسه لهذا المصاب تألما عميقا لان اندريا كانت المحور الذي يدور حوله الجميع وصلة الوصل بين افراد تلك العائلة، ولم يمض الا وقت قصير على وفاتها حتى اقبلت زوجته ضونيا كاطالينا في 16 يونيو (حزيران) من سنة 1610 الى مكتب الموثق بلطاسار دي اوخينا واصله من نفس بلدتها اسكيفيا واملت عليه وصيتها دون

ان تطلع زوجها على الامر. فاوصت لاخيها فرنسيسكو بكل املاكها ولزوجها بحق التمتع ببعض الاراضي المذكورة في الوصية. وبعد وفاته تتمتع بها ابنة اخته كونستانسا مدة سنتين ثم تعود تلك الاملاك الى عائلة ضونيا كاطالينا. واوصت لزوجها ايضا بسريرهما وجميع املاكها المنتقلة عربونا ـ على حد قولها في الوصية ـ لما تبادلناه من حب ووئام واوصت ايضا ان تدفن في كنيسة اسكيفيا الى جانب والدها.

لكنها في 20 اكتوبر (تشرين الاول) من سنة 1626 اي بعد وفاة المؤلف بعشر سنوات جددت وصيتها فالغت من الوصية السابقة تلك الفقرة المتعلقة بدفنها في اسكيفيا واوصت بان تدفن متى توفيت في دير الاباء المثلثين حيث كانت ترقد رفات زوجها. وتعليقا على هذا التعديل في الوصية يقول احد المؤرخين المعاصرين: اجل! ان العاطفة التي كانت تجرها نحو اهلها لمؤثرة في النفس. لكن هذه العاطفة الجديدة متى اعتبرنا تربيتها واخلاقها تظهر لنا اكثر تاثيرا. وتدلنا دلالة حاسمة على تلك القوة الجذابة التي كان يحسن بها سرفانطيس امتلاك قلوب من يعيشون الى جانبه

سرفانطيس
يتشوق لزيارة نابولى

في سنة 1610 عين الكوندي دي ليموس نائبا عن الملك في مملكة نابولي. وكانت تربط سرفانطيس به بعض روابط الصداقة وكان الكوندي فضلا عن ذلك مغرما بالشعر والادب وله بعض التآليف المسرحية. وقد عرف بعطفه على الادباء. فما ان انتشر خبر تعيينه لهذا المنصب الرفيع حتى هلل له الادباء وقل من لم يحلم منهم بالرحيل الى نابولي مع حاشية الكوندي لشغل وظيفة فيها. وكان سرفانطيس في طليعة من عللوا النفس بهذه الرحلة. لكن ما عتم ان خاب امله وتركت هذه الخيبة الجديدة في نفسه مرارة شديدة. ويعزو معظم المؤرخين هذه الرغبة القوية بالرغم عن شيخوخته في الذهاب الى نابولي وما تلا عدم تحقق هذه الرغبة من الم عميق الى ما خلفه من ذكريات في تلك المدينة ايام شبابه حين كان جنديا. ويرون كما ذكرنا في غير مكان من هذا الكتاب في تلك الجملة التي جاءت في

كتابه رحلة البارناس الذي وضعه تعزية لنفسه عن فوات هذه الرحلة من يده اذ قال: وبكل حنو عانقني صاحبي ....وناداني أبت ونادته بني وهكذا احق الحق . برون في هذه الجملة التي يفسرونها على ظاهرها سبب هذا الشوق وهذه المرارة التي اعقبت الخيبة

* * *

في سنة 1611 توفيت شقيقته ضونيا ماعدلينا، وكانت حالة كاتبنا المادية قد عادت في هذا العهد الى اسوأ مما كانت عليه، فلم يتمكن من دفع نفقات المأتم التي كانت تبلغ اثني عشر دليونا، فقام بدفنها راهبات سان فرنسيسكو في دير هن مجانا لوجه الله.

* * *

لم يبق الان في الدار سوى سرفانطيس وزوجه وابنة اخته، فشقيقتاه توفينا وابنته وزوجها قطعا كل علاقة تربطهما به بعد ان لاحق صهره مولينا دفيله وصديقه خوان دي اوربينا لقبض المهر الذي تعهد له به سرفانطيس بكفالة اوربينا، فكادت الدار تقفر بعد

ان كانت عامرة، وحالة كاتبنا المالية رغم كل ما در عليه كتابه عادت كما قلنا الى اسوأ حال وعادت الديون تتراكم عليه وتثقل كاهله، فلا عجب ان تخيم على نفسه سحابة من الكآبة تتجلى في ما الفه في هذا الطور.

وفي سنة 1612 تاسس في مدريد ناد ادبي دعي باسم اكادبمية سلباخى وكانت الجلسات تنعقد في دار ضون فرانسيسكو سلبا، وضم النادي كبار ادباء العصر وعلى رأسهم لوبى دي بيغا، وهذه المرة نرى سرفانطيس عضوا في النادي الجديد وان كان في الجلسات لايحتل مكانا بارزا، ونرى العدواة بينه وبين لوبى دي بيغا قد خمد سعبرها في هذا الطور.

لم يحط النكبات الجديدة من عزم كاتبنا بل بالعكس ولدت في نفسه نشاطا ادبيا منتجا لم يعرفه ايام الفتوة، فانهى مجموعة قصصه المسماة «القصص المثلى» ووضع مؤلفه «رحلة البارناس» واعاد النظر في مسرحياته ليجدد طبعها ولعله شرع بكتابة بعض فصول من «برسيليس» وفي الوقت نفسه كان يواصل الكتابة

في القسم الثاني من مؤلفه العظيم ضون كيحوطي، ففي هذه السنوات العشر كتب اكثر مما كتبه فيما مضى من عمره وسيكتب في السنوات الست الباقية له اكثر مما كتبه في تلك العشر.

سرفانطيس
يشترك بمباراة شعريــة

كانت مدريد تستعد للاحتفال في 12 اكتوبر (تشرين الاول) من سنة 1614 بتطويب القديسة تريسة واعلنت اللجنة المشرفة على الاحتفالات عن مباراة شعرية يمكن الاشتراك فيها لجميع شعراء اسبانيا، وتألفت اللجنة التحكيمية من ثلاثة شبان من كبار العائلات الاسبانية، وعين لوبي دي بيغا مستشارا فنيا لهم.

وكان سرفانطيس من جملة الذين تقدموا لهذه المباراة، وهنا يقف بعض المؤرخين حيارى امام هذه البادرة ويعجبون كيف ان سرفانطيس رغم شيخوخته - اذ كان في السابعة والستين من عمره - وما بلغه من مكانة ادبية تقدم الى مباراة لايشترك فيها عادة الا من كان حديث العهد بالشعر، لكن معظمهم يعللون تصرفه هذا باحتياجه الى المال، ويرون في امله بالحصول على الجائزة المالية الدافع الاقوى الى ذلك، وليس ذلك حقا بالامر العجيب.

واجتمعت اللجنة وفصلت في المباراة ومنح سرفانطيس جائزة، وفي وسط الاحتفال اعلنت النتيجة ووقف لوبي دي بيغا وقرأ بنفسه على الجمهور قصيدة سرفانطيس.



صدمة جديدة

انهاء القسم الثانى من «ضون كيخوطى»

لم يمض على ظهور ضون كيخوطي سوى سنوات قليلة حتى انتشر في اسبانيا كلها وتجاور حدودها الى بلدان اخرى وترجم الى عدة لغات، وبينما كان سرفانطيس يشتغل باعداد القسم الثاني اذا به يفاجأ في هذه السنة نفسها (1611) بظهور كتاب عنوانه القسم الثاني من ضون كيخوطي بقلم فرنانديس دي ابيانيدا فاثار الامر ثائرة سرفانطيس ولا سيما ان فرنانديس دي ابيانيدا اسم مستعار لشخص تحركه عاطفة الحسد الممقوتة. اما الكلام عن قيمة هذا الكتاب بالنسبة الى مؤلف سرفانطيس فنتركه للقسم الثاني حيث نتكلم مطولا عن مؤلفات كاتبنا، وانما هنا نكتفي بالقول ان ظهوره اقض على سرفانطيس مضجعه وحرك همته للاسراع في انجاز

القسم الثاني من كتابه، فاكب بحماس لم يعهد له مثيل سابق ولم يهدأ له بال ويسكن له روع حتى أتى على آخره.

وفي اوائل فبراير (شباط) من سنة 1615 قدمه للرقابة في مدريد، وكان اذاك في الثامنة والستين من عمره.



المرحلة الاخيرة

مرضه ووفاته

كان سرفانطيس مصابا منذ مدة بمرض عضال لما يعرف نوعه بالتحقيق، فالبعض يقولون انه داء الاستسقاء ويزعم الاخرون انه مرض في القلب وحاصل الامر انه ما كادت تقبل سنة 1616 حتى كان الداء قد استفحل وضعفت قواه فاشار عليه الاطباء بتبديل المناخ، فانتقل الى بلدة اسكيفيا لكنه لم يشعر بالتحسن المؤمل فعاد الى مدريد ليقضي فيها آخر ايامه.

ولما حل شهر ابريل (نيسان) من تلك السنة كان سرفانطيس قد بلغ اقصى درجات الضعف والهزال بحيث لم تبق له قدرة على مبارحة الفراش، لكنه ظل محتفظا حتى الساعة الاخيرة برباطة جأشه وصفاء ذهنه، وقد ادرك ان ساعة الموت قريبة فانصرف الى الاستعداد لها وتصفية ما بقي في النفس من رغبات.

ففي الثاني من الشهر المذكور انخرط في سلك جمعية القديس فرنسيس الثالثة وقد انخرطت فيها من ذي قبل زوجته وابنة اخته.

وفي هذه الايام القليلة الباقية له من العمر كتب اهداء كتابه برسيلس الى الكوندي دي ليموس وقد جاء ذلك الاهداء بمثابة وداع حار توجهه كاتبنا الى البشرية فيه ما يلي: تلك الابيات القديمة التي طالما تغنى بها الناس والتي مطلعها الان وقد وضعت رجلي في الركاب كنت اود الا تأتي في محلها في هذه الرسالة لاني اكاد اقدر ان ابداها بالكلمات نفسها قائلا.

الان وقد وضعت رجلي في الركاب

تساورني الام الموت

اكتب اليك ايها السيد العظيم رسالتي هذه

امس مسحت والبوم اكتب هذه الرسالة، ان الوقت قصير والنزاع يقرب والامال تنقص...

وهذا الاهداء مؤرخ في 19 ابريل (نيسان)..

ونراه قبل ان يغادر هذا العالم يتناول القلم من جديد ليكتب وداعه الاخير، فيقول: الى الله ايتها اللطافة، الى الله ايتها الظرافة، الى الله ايها الاصدقاء المرحون اراني الفظ انفاسي الاخيرة وارغب ان التقى بكم فرحين في الحياة الاخرى . وهي آخر كلماته التي وصلتنا.

❀ ❀ ❀

وفي الثالث والعشرين من الشهر نفسه لفظ النفس الاخير مخاطبا بزوجته وابنته وابنة اخته والكاهن ضون فرنسيسكو مرتينس مرسيا. ونقل جثمانه الى كنيسة دير الامهات المثلثات وهنالك ووري الثرى، دون ان توضع على قبره بلاطة او علامة تذكارية. ولم يحضر جنازته الا عدد قليل من اصدقائه واديبان خاملا الذكر اسم احدهما لويس فرنسيسكو كالديرون والاخر فرنسيسكو دي اوربينا. ويقول المؤرخون ان لوبي بيغا لما علم بوفاته جاء فصلى على نفسه امام جثمانه.

❀ ❀ ❀

وهكذا بين الاهمال والخمول دفن مؤلف ضون كيخوطي وضاع لحده بين بقية اللحود اد طغت يد الزمان العاتية فساوت بينه وبين بقية من كانوا هنالك يدفنون.

لكن سرفانطيس وان ضاع لحده حي لا يموت، وما دام للادب في الانسانية مقاما وللفكر مرتبة وللمروءة قدرا فان سرفانطيس سيبقى قدوة الكرام ومثال المفكرين وامير الادب العالمي بلا نزاع.

القسم الثانى

مؤلفــــــاته

الفصل الاول

ظهور سرفانطيس في «عكاظ»

لقد اطلعنا باسهاب على نواحي سيرة هذا النابغه، وتعرفنا الى ما قاساه من اهوال في عنفوان صباه، والان فلنقتف اثر حياته الادبية التي يرتكز عليها مدار بحثنا هذا، منذ ان ظهر في عكاظ العصر الذهبي الاسباني حتى النهاية. ولذا رأينا ان نوزع انتاجه، ونقسم بضاعته الى مراحل، نستهلها بدراسة كتابه الاول المسمى «لاغالاطية» وهو الذي مهد لمن سيحمل فيما بعد لقب «امير الادب الاسباني» ويحتل مركزا عالميا فيجلس عن يمين صاحب الالياذة، السبيل لدخوله معركة «عكاظ» ذلك الحين، وتتميما للفائدة آثرنا ان نثبت هنا ملخصا لهذا المؤلف، قبل ان نشرع في تحليل قيمته وذكر اقوال النقاد فيه.

«لاغالاطيــة»

الموضوع: الينيو وأرسنو٬ راعبـان يعيشان عـلى ضفة نهر تاجه٬ وقعا في حبائل غالاطيه وهاما بها هياما مبرحـا٬ وهي مثلهما راعية رأت نور الحياة على تلـك الضفاف. يوقفها عن متابعة الاناشيد الغرامية وصـول راع آخر اسمه ليسندرو يقص عليهما خيانـة كاريسـو ووفاة ليونيدا حبيبة الاول. وكانت غالاطيه وفلـوريسا جادتين في النقاط الازهار لتجدلا منها شرائط زينة لشعريهما عند وصول تيولندا التي تروي وقائع حبها مع أرنيدورو التي زاد في تعقيدها تشابهها لشقيقتها ليونردا وكذلك تشابه ارتيدورو وشقيقه غالرسيو. ينضم الى حلقة هؤلاء الرعيان٬ ترسي وداموِن الشهيران٬ وبعد العزف والغناء يذهب الجميـع لزيارة الناسك سيليريو الذي يعيد عـلى مسامعهم حوادث حبه لنيسيدا في نابولي٬ وحب صديقه تمبريو لها كذلك٬ وفرار هذا الاخير الى اسبانيا ظنا منه ان حبيبته قد ماتت٬ وما كان من الاول٬ اذ ما تعذر عليه اكتشاف مقر صديقه٬ الا ان ذهب فتنسك.

يحتفل بزفاف دارانيو وسلفيريا. يحتـدم الجـدال

بين لينيو الذي لم يعرف الحب وبين تيرسي حول رأفة الحب اوشره. يصل تمبريو ونيسيدا الى صومعة سيليريو . ويزور الرعيان عن بكرة ابيهم ضريح مليو. ثم تعزف قيثارة كاليوبي ثناء شعريا عاطرا موجها لجمهرة من الشعراء الذين ما زالوا على قيد الحياة ومعاصرين لسرفانطيس .

يقع الجزء الاول من هذه الرواية التي يدور موضوعها حول حياة الرعيان في ستة كتب، وقد اختلف الادباء في تعيين تاريخ نشرها بالضبط، فمنهم من قال انها خرجت سنة 1584 ومنهم من اكد ان ذلك كان سنة 1585 ويوجد فريق ثالث يقول انها الفت ما بين سنتى 1581 و 1583، ونشرت سنة 1584 الا انهم رغم تباين ارائهم فيما يتعلق بنشرها قد اتفقوا على أنها وضعت بعد رجوع سرفانطيس الى مدريد من الاسر، الامر الذي الم اليه في الكتاب الخامس. وفي الكتاب السادس نشيد «كاليوبى» الذي قد يكون افضل مايوجد في متن الرواية كلها. ويرى بعض الكتاب انه فضلا عن كون المؤلف في مجموعه قدم قربانا على مذبح الذوق الادبى الرائج، كان وضعه لهذه القصة بدافع العوامل النفسانية

التى ايقظتها في صاحبه من ستصبح فيما بعد زوجا له ولو انه على ما يظهر لم يتعمد تمثيلها في «لاغالاطيه» لا ولا ان يمثل نفسه في شخصية «اليسيو» حسبما زعم الا انه مثل فيها اشخاصا كثيرين من معاصريه، لاناتى على ذكر اسمائهم لعدم فائدة القارئ العربى من ذلك.

«لاغالاطيه» ان هي الا نفث الشيطان او رواية عن حياة الرعيان من طراز «لاديانا» لصاحبها «متنميور» وطراز مؤلفات مقلديه، الا انها قد تكون حسب رأي «منيندث اي بلايو» النقاد الاسباني الذائع الصيت، قد نالت قصب السبق في هذا المضمار، اذ «لاتتجلى في رعيان ورواعي سرفانطيس تلك السذاجة التي انما هي وقف على من كانوا من طينتهم، على انه في بعض الاحيان تنبجس منهم السذاجة الانسانية اي هذه البساطة الساحرة التي تأخذ بمجامع القلوب وتستولى على الالباب، والتي ما كانت قط من صفات عصر دون آخر حتى ولامن مميزات العصر الذهبي ذاته، بل هي من كافة العصور لانها تتفجر حقا من اعماق القلب».

وقال «سان-ماك جيراردان»: جاء مؤلف سرفانطيس وشمس هذا النوع الادبي تجنح الى الغروب. وكما

قال سبخادور : «ظهر ومعين هذا الموضوع كاد ينضب ومهما بالغ صاحب «لاغالاطيه» في شحذ قريحته واذكاء نار عبقريته المبدعة وسعى ليودع فيها نثرا رشيقا وشعرا اصح دون شعر من تقدموا رقة وهلهلة، فما كان ليكتب له الفلاح لان الذوق الادبي كان قد شرع بسلك سبيلا اخر».

اما دوق سرفانطيس فكان في غاية الجودة نظرا لولعه بالانبعاث الذي كان قد كلف به كلفا شديدا اثناء اقامته في ايطاليا، ولما كان يجد وراء الراحة من حياة المجازفات لم يلق آنئذ من ادب سوقه رائجة سوى هذا الذي دشن به حياته الادبية، أدب الرعيان الذي ما كان قط غير ظاهرة من ظواهر الانبعاث التي محصها الذوق وصقلها، ولذا شرع يجرب فيه ميزاته الدفينة ككاتب، وعندي ان هذه الاسباب التي دفعته الى هذه المحاولة هي نفسها كانت العامل الوحيد الذي جعله ان يلقى نجاحا متوسطا من كتابته «لاغالاطيه» ولم يعرف احد مثله عيوب هذا الطراز وعيوب مؤلفه ذاته، اذ قال: «احلام سكبت سكبا حسنا». فقد خلق ليكون كاتبا انبعاثياً انيقاً وهكذا ظهر في كتابه الذي ما دبجه

الا لامر اعمق وابعد عوراء خلق ليكون كاتبا اسبانيا قحاء ورواتبما يفرغ اشياء حسنة الدبباجة لاصلة لها بالاحلام لقد اخذ بنبلح صبح الشخصية الاسبانية والادب الوضعي عند سرفانطيس في عدة حوادث من متن «لاغالاطيه».
وهما الصفتان اللتان ستكونان سدرة المنتهى التي سيتربع فيها عند ما يضمحل طيف الاشباء الوهمية الا أنه نزل تيار الزي يجرفه لما كان منشئا ففي هذه التجربة برز الابداع وبدا الاسلوب والتعبير بحلة خاصة من حيث الرقة والوضوح والاناقة. وضع سرفانطيس نصب عينيه «لا اركاديا» لصاحبها «سانانارو» و «لاس ديانس» لمؤلفيهما «منتميور» و «خيل بولو» الا انه انجل كتابا فريدا داخل نطاق هذا الحقل الفسيح ودمج روايات قصيرة تنذر «بالمثلى» وبالتالى ذكريات حياته الخاصة».

اما فيما يتعلق ببعض الافكار الافلاطونية التي عرضاها سرفانطيس في «لاغالاطية» وهي نفس تلك الافكار التى تقوم عليها دعائم الزهد العامة ويتكون منها محور الشعر الاجنبي النزعة في رمانه فقد قال عنها منبندث اي بلايو في تاريخه عن الافكار الجميلة: «انه لمن الزيغ التمسك بما تمسك به احد السرفانطنيين المعاصرين

من ان سرفانطيس في «لاغالاطيه» لم يرم الا لتجديد وتعريف نظرية افلاطون. غير انه من الاكيد ان في الكتاب الرابع من هذه الرواية التي تبحث في حياة الرعيان. ماكورة العبقرية الفنية لسلطان كتابنا ادخلت في ثناياها مشادة حب وجمال ـ ذات منعة المعية حتى في الشكل ـ بين ترسى الرزين و«لربسيو» الرجل الذي لم يعرف الحب، وان فحواها افلاطونى محض ينتمى الى «ليون العبرانى» حتى في استعمال الالفاظ...»

وسرفانطيس نفسه ـ كما قدمنا ـ التفت الى عيوب مؤلفه وفي سياق الحديث عنه في «الكيخوطى» كتابه الخالد يقول: «اما كتابه ففيه شئ من الابتداع، يعد بشئ الا انه لايستدل شيئا، فينبغى انتظار الجزء الثانى الموعود به، عله في التصحيح يتوصل نهائيا لاحراز الرحمة التى تنكر عليه الان»

وطبعت هذه الرواية التى ما ظهر قط جزؤها الثانى الموعود به، مرتين في حياة المؤلف (الشبونة 1590 وباريس 1611) ويذكر رويس ست عشرة طبعة، الا ان الطبعة الوحيدة الصالحة هى طبعة مدريد من سنة 1863 لانها نسخة عن الاولى لسنة 1581.

وقد ترجمت «لاغالاطيه» ثلاث مرات الى الالمانية، ومرتين الى الانكليزية واقتبسها الى الفرنسية فلوريان سنة 1783، وقد ترجم الى الاسبانية كتاب فلوريان هذا فبثنتي رودريغث اربانو سنة 1797، واما كتاب كنديدو ماريا تريغاروس (عشاق لاغالاطيه واعراسهم) المطبــوع في مدريد سنة 1798 تتميما للاغالاطيه سرفانطيس، فهو تقليد لفلوريان اكثر منه لمؤلف الكيخوطي.



الفصل الثاني

شاعرية سرفانطيس

يتأسف سرفانطيس في مؤلفه «رحلة البرناس» المطبوع سنة 1614 بمدريد بمرارة وانكسار لعدم تحليقه في الشعر، فينشد:

وانا الذي دوما اجد وأسهر
كيما اطل كشاعر او اظهر
في نعمة ابت السما ان تعطيني...

واثناء عملية تطهير مكتبة ضون كيخوطي (الجزء الاول الفصل السادس) يقول سرفانطيس عن نفسه انه كان اكثر توفيقا في التعاسة منه في الشعر.

ولم يحجم الكتاب المعاصرون لسرفانطيس او ممن تأخروا عنه قليلا مثل «سوارث دي فيغيروا وضون استيبان م. دي فياغس وسواهما عن مس شعور سرفانطيس كشاعر ومهاجمته.

ويكتب لوبي دي بيغا في رسالة له لاذعة فكاهية: اما عن الشعراء فحدث ولا حرج، انها لسنة جيدة هذه! وقد بدأ جلهم ينضج للسنة المقبلة، الا انه ليس بينهم من يسفل الى درجة سرفانطيس ولا من تبلغ به البلاهة

الى مدح الكيخوطي . وبرغم تباين وجهات النظر واتساع شقة الخلاف بينه وبين بطل ليبانطو عاد لوبي بعد وفاة خصمه، في كتابه غار ابولو سنة 1641 الى انصافه كشاعر.

واما الانتقادات الواهية التي وجهها اليه بعضهم وانكارهم عليه شاعريته انكارا مغرضا فسرعان ما تضمحل امام اطراء لوبي، واحرى بذلك نظرا لقيمة بعض قصائده بالذات. ولاريب في أن اشعاره دون نثره مرتبة وهي لاتسمح له ان يتبوأ المقام الاول بين الشعراء، ولكن لايصح بحال من الاحوال ان يستند الى مثل هذا لتجريده من شخصيته كشاعر كما حاول ذلك البعض، وكثيرا ما تتجلى شاعريته في نثره، وكثيرا ما اظهر ولعه بالاشعار فراح يدرج من ابياته او ابيات غيره في متن رواياته.

واما فيما يتعلق بشعر الغير فقد بدا دون ماشك أن سرفانطيس كان يفضل الرومنسارو و غرسيلاسو وتقرأ بتكرار الشواهد او ما أثر فيه من «الرومنسي» (الموشح) في الكيخوطي وتقتضى الاشارة الى انه اكسبها قالبا في غاية الروعة والجمال كما يستدل على ذلك من كتاب «لوس ثيلوس» (الغيرة) حيث اتى بها على سبيل

المدح او كالابيات التي في مسرحيته الهزلية في بلاط الموريسك المسماة «الكايردو اسبنيول» (المقدام الاسباني) وغيرها. ولاتحصى الابيات الرائعة التي اوردها سرفانطيس في الكيخوطي. مثل التي نقرؤها في حادثة «التيسدورا»:

«عادة تأخذ قوى الغرام
لاخراج النفوس عن مدارها
البطالة المهملة، آلة.
وعادة تكون الخياطه والفلاحه
وبقاء المرء دائما مشغولا
دافعا لسم اللواعج الغرامية»

وفي رواية «لاخيتانيا» تغني برثيوسا هذا الموشح الجزل ومن الابتكارات الموفقة من حيث الصبغة والرشاقة:

«يا جميلة يا جميلة بك يزداد زوجك هياماً
يا ذات الايدي الفضية لدى ملك البشرة...(1)»

وهذا الموشح المقتضب الذي يشرح فيه حالة الفتيات الخادمات لايقل من حيث الرشاقة والظرافة والتعريض اقتضابا عن امثاله «لغونغرا»(2)

---

(1) اسم جبل واقع بالقرب من غرناطة
(2) شاعر اسباني امتاز بالشعر الرمزي

« يا لتعـاسة الفتيـات   اللائى جاءت بهن السماء
من اجل ادوار غريبـة   ليـخدمـن اربابهـا...»

واما تأثير «غرسيلاسو» في الكيخوطي فجلي واضح لاغبار عليه اذ بينما يتحدث مع ابنة اخيـه (او اختـه) يردد مقاطع لهذا الشاعر الاسباني الكبير:

«من اجل الخلود تقتفى
هذه السبل الوعرة
لبلوغ المقعد الاسمى
الى حيث لايرتقي قط
من من هناك يتدحرج...»

وفي «نشيد الكرسوستمو» يتعقبه تعقبا حثيثا حتى ليكاد يطأ عرقوبيه، وفي بعض الاحيان ينسج على منواله حتى في القافيـة الوسطى . ونشيد «ميرينـو» المغنى في «لاغالاطيه» لعدم اخـلاص «سلفيريـا» يعيد الى الذهن «ذلك التأوه العذب المتفجر من صدر راعيين».

واما في السونيت والمداعبات الشعرية أو الهزليات فيحلق تحليقا منقطع النظير واشهر ما صاغه منظومـة فيليبي الثاني في اشبيليـة، وليوم دخـول الدوكى دي مدينة سيدونيا الى قادس في يوليه سنة 1596 ومنظـومة

اخرى تنسب احيانا الى كيبيدو عنوانها: «صلف دومسوط وسروال...»

ومن قصائد النقد الادبي: نشيد كليوبي في «لاغالاطيه» و «سفرة البرناس» ولهذه صبغة خاصة تتعلق بسيرة حياته مثل «رسالة الى ماتيو فاتكث» وبعض قطع شعرية من «سفرة البرناس» تتبع في صيغتها اسلوب «ثيسري كوبرالي».

ولئن استثنينا الان مسرحياته فتجدر بنا الاشارة الى ان كثيرا من القصائد التي لم تمتد اليها يد الحدثان تخلد ذكره كشاعر على مدى الازمان، واما هذه القصائد فهي: اربع لدى وفاة زوجة فيليبي الثاني نشرت في مجموعة مراثي ضونيا ايزابيل دي فالوا للمعلم لوبي دي هويوس سنة 1589، منها مرثاة باسم الجامعة عدد فيها سرفانطيس مآثر الكردينال اسبينوسا، وعدة قصائد اخرى موجهة الى جمهرة من الكتاب بمناسبة نشر مؤلفاتهم (الراهب بدرو دي باديا، لوبي ملدونادو، الونسو دي برو، خوان روفو صاحب «لاوسترايدا»، لوبي دي فيغا في «دراغوتا» خوان يگوي دي سالص في . محبي ترويل» ملحمة ذات مآسي سنة 1616، فرنثيسكو دياث في مبحث... كل امراض

الكلي... سنة 1588) وثلاث سونيت اخرى الى ثلاثة رجال ذائعي الصيت (ضون دييغو دي مندوثا، ومرثاة لهرنندو دي هرارا، ومديح للمركيس دي سنتا كروث،) ومخمسات مرفوعة الى سان خاسينتو شطر فيها مربعات قدمت الى مسابقة شعرية في سرقسطة، واغنية الى تأله الام تريسا دي خسوس بمناسبة تطويبها قديسة، ومنظومة ذات موضوعات شتى موجهة الى الكوندي دي سلدانيا، وقصائد اخرى منها ما اكتشف حديثا مثل السونيت المرفوعة لبرتولوميو روفينو واثنتا عشرة منظومة من ثمانية ابيات الى الشاعر الصقلي انطونيو فنيانو وكلاهما رفيق لسرفانطيس في الاسر بالجزائر.



الفصل الثالث

مسرحيات سرفانطيس

اظهر سرفانطيس دائما ولعا بعيد المدى بالمسرحيات ويقول في ملحق البرنس انه الف عددا وافرا منها واخصها بالذكر اذ قال: «لو لم تكن لي لبدا لى انها تستحق الثناء العاطر» ولما كان في اشبيلية سنة 1592 امضى عقدا مجحفاً بحقه مع متعهد المسرحيات رودريغو اوسوريو تكفل بتأليف ست مسرحيات على حسابه، وقد جاء في ذلك العقد: لئن برزت تلك المسرحيات على اخواتها الممثلة في اسبانيا، يدفع المتعهد للمؤلف خمسين دوكا عن كل واحدة وان كان الامر خلاف ذلك فلا يدفع له المتعهد شيئا. والارجح – سواء نفذ العقد ام لا – ان من العشر المسرحيات المعروفة اليوم لسرفانطيس لم تؤلف واحدة لاوسوريو.

وكتب سرفانطيس سنة 1615 في مقدمة مسرحياته الثمان ومقدمة مسرحياته الثمان القصيرة (1) الصادرة عن مدريد في تلك السنة، معلنا ارتياحه عن نفسه كمؤلف

(1) مسرحيات تمثل بين فصلين من مسرحية عادية. وهذا النوع من المسرحيات القصيرة مما يسمى بالاسبانية Entremeses

مسرحي كما يلي: «شهد الجمهور المدريدي تمثيل «معاملات الجزائر» من تأليفي «وتحطيم نومانثيا» «والمعركة البحرية» حيث تجرأت وحولت المسرحيات الى ثلاثة فصول بدلا من الخمسة التى كانت تتألف منها» ويمدح نفسه لكونه اول من اخرج الى خشبة المسرح اشخاصا رمزيين ويفتخر بل يعتز لكونها مثلت: «دون ان ينهال على ممثليها الخيار او ما شاكل ذلك من الامور التى يرشق بها. «مثلوا ادوارهم من غير صفير وصراخ وجلبة» وتابع حديثه فقال: «تركت القلم والمسرحيات فدخل الميدان من بعد، غول الطبيعة، لوبى دي بيغا العظيم فحلق بملكية المسرحيات واعلى» ...ثم اردف قوله هذا بعد ان اهمل عدة روايات له مدة من الزمن بما يلى: «لقد قال لى احد الوراقين انه كان مستعدا لشرائها لو ان احد المتعهدين لم يقل له ان من نثري يمكن ان ينتظر شيء اما من شعري فلا شيء.. فضجرت وبعتها للوراق المشار اليه، الذي تولى امر طبعها واظهارها بالحلة التى اقدمها لك..»

وكان سرفانطيس من مناصري الجمال المدرسى الا ان منيندث بلايو يقول: انه في بعض المسرحيات التي

الفها وهو في دور الشيخوخة كالمسماة «دار الغيرة» حاول ولوج اسلوب لوبى دي بيغا واعتقد ان في تراكم حوادث الغيرة يتوصل الى المفعول الذي كان يحرز عليه هذا الاخير بفضل شاعريته الفذة وابتكاره ومعرفته للفن المسرحى معرفة بعيدة الغور.

طرق سرفانطيس الموضوعات المسرحية كلها وولجها من كل الابواب فاذا به في مسرحياته القصيرة يخلق مشاهد رائعة كلها حياة ونشاط لانها من صميم الحياة وحلتها الزاهية هى الوضعية، وقد اقتفى السبيل الذي اختطه لوبى دي رويدا ففى «السافل السعيد» ظهر اثر المسرحية الورعة او القديسة، وفي «السلطانة العظيمة، وحمامات الجزائر، والاسبانى المقدام» اثر مسرحية «المسلمين والنصارى» وفي «التسلية» اثر الماكرة، وفي «بدرو دي اوردمالاس» اثر قصة الشطار، وفي «لانومانسيا» اثر المقالة المسرحية وفي «دار الغيرة» اثر قصة الفرسان.

وجريا للخطة التى آثرنا اتباعها نورد هنا ملخصا لموضوع كل من مسرحيات سرفانطيس مع ما قاله النقاد فيه وفيها:

معاملات الجزائر ـ

مسرحية ذات اربعة فصول، لغتها شعرية وموضوعها بسيط للغاية: «حسناء نصرانية تقع اسيرة في قبضة سيد من اكابر المسلمين فيعلق بحبها ويكلف بها كلفا شديدا بينما خطيب الاسيرة ـ وهو بدوره اسير ـ يلقى الامرين من هيام سيدته به وهي مسلمة غنية وذات ميول شهوانية وللتغلب على ارادة هذين العاشقين يقرر سـ داهما اتخاذ كل منهما وسيطا لدى الاخر، فبهذه الوسيلة يتم للعاشقين اللقاء بعيدين عن اعين الرقباء فيجددان عهدهما ويتوصلان الى حريتهما المنشودة».

ان هذه المسرحية لتمثل حياة الاسارى بما فيها من شقاء وتعاسة والخطط التى رسمت للتخلص من ذلك الجحيم وتتحدث عن الخيانات وعن سفالة اخلاق المارقين من دينهم وعن المؤامرات الداخلية واما عيوبها من الوجهة الادبية فتتلاشى امام اهميتها كوثيقة تاريخية.

ولقد قال كوثيرلو اي نيدور في كتابه القيم «مسرحيات سرفانطيس» ان تلك الحياة المحفوفة بالاخطار والمصائب لتظهر بالوانها في شكل مريع وتبدو لعين القارئ صورها ومشاهدها المختلفة وقد اكتست من

الحقيقة ابرزا دون ان تمس الحقيقة التاريخية. وينجم عن هذا صحة المشهد والامانة فيما يعود الى معاملة الاسارى ويمكن التأكيد بان الشقاء كان يرافقهم منذ كانت تطأ اقدامهم تلك السواحل المرعبة الى ان ترد اليهم الحرية المسلوبة. وتصف زيادة على ما تقدم بيعهم في الاسواق العمومية الخ.

واما الغاية التى كان ينشدها المؤلف من مسرحيته فتظهر من النظرة الاولى البهــا: اثارة عواطف فيليبى الثاني لكى يتمم العمل الذي كان شرع فيه والده العظيم ويضع حدا لاعمال القرصان بهدم وكرهم، واهاجة اريحية الجمهور لمساعدة الرهبان اللذين كانوا يسعون سعيا حثيثا لانقاذ الاسارى وافتدائهم فلهذا يلح في تأسفه لوفاة ضون خوان دي اوستريا وفي وصفه وصفا مسهبا للمعاملة القاسية والعذاب والالام التى كان يعانيها الاسارى، ثم شيوع المرق من الدين ويعيد على مسامع الجمهور نص الرسالة البليغة التى بعث بها الى الكاتب ماتيو فاثكث ولئن لم يفلح في مقصده الاول فقد جاء الثانى بما كان يرمي اليه واصاب الوتر الحساس من قلوب الناس فكم

من دموع جرت اثناء تمثيل هذه المسرحية التي تركت في نفوس سامعيها اثرا لايمحى!؟»

ولما كانت هذه المسرحية مؤلفة من اربعة فصول يتضح انها من ثمار العهد الاول لسرفانطيس ولقد استنتج كوتليرو من عدة نواح انها كتبت سنة 1580 وسرفانطيس لايزال في الاسر. ونظرا لوفرة الصحة التي تتجلى فيها وفي الطبائع الموصوفة، يسوغ دون ما شك ان يقال عن اشخاصها بانهم اشخاص تاريخيون وهذا مما ينطبق على اكثريتهم ومن بينهم المؤلف اذ ان منهم من يحمل اسم «سافيدرا» وبقطع النظر عن هذا، ففي المسرحية بعض اشخاص رمزيين مثل «الفرصة والحاجة» اللتين تتحالفان وهما غير منظورتين للتغلب على حزم الاسير النصراني في احدى المشاهد التي تشهد بالعبقرية والبراعة، ولقد اطرى على هذا المشهد النقاد الالماني كلين الذي يعتبر ان سرفانطيس انما هو المبشر بالابداع الرمزي الفائق الذي اتصف به كلديرون وحتى لهو المبشر بطيفيات ومروعات شكسبير.

حمامات الجزائر:

وكذلك هذه الرواية تمثل عدة مشاهد من حياة

الاساری، وتتحدث عن الالعاب والرقص والتمثيلات، التي كان يتسلى بها الاسارى النصارى في اعياد معينة واما بعض حوادثها فقد اخذت عن «لاسيلفا» مؤلف «ليدروماشيا»، وفقا لما لاحظه داماسو الونصو. وتشير رواية «الضابط الاسير» المدرجة في الكيخوطي الى حوادث من هذا الطراز، ويصح الالماع الى ان روايات سرفانطيس الثلاث: معاملات الجزائر وحمامات الجزائر والضابط الاسير متماسكة تماسكا متبادلا وثيقاً، مرتبطة بعضها ببعض

السلطانة العظيمة:

مسرحية تدور عقدتها حول حسناء مالقية بيعت رقيقا بعد ان اسرها القرصان في سفرها الى وهران، وتوصلت الى استهواء قلب سلطان استنبول وبفضل علو همتها وفلاحها وايمانها الراسخ وحنوها وعطفها لاقى الاسارى خيرا جزيلا.

ان النقاد الذين حاولوا البحث عن اسس الحادث التي ترتكز عليها المسرحية لم يتحفونا بما يزيد على ما جاء في الموشح الذي ادرجه سرفانطيس في الفصل الثالث من مسرحيته. والحادث على ما يظهر تاريخي الامر الذي يؤكده سرفانطيس في عدة مقاطع من المسرحية

كما اشار اليه المؤرخون بوضوح وجلاء لايقبلان الـرد. «ومن جهة اخرى يقول كوتليرلو اي فيادور ان قضية زواج الاوربيات من عرب واتراك تتضح في كل حين وان ازواجهن يلزمونهن على المروق من دينهن، واعتناق الديانة المحمدية ولذا يشير سرفانطيس بالحاح الى تساهل السلطان التركي بمسألة دين زوجته».

ويظهر من تركيب المسرحية انها من المسرحيـات التي تنتمي الى المرحلة الاخيرة من نشاط المؤلف المسرحي وفي الموشح المذكور يقع التلميح الى سنة 1600 كشيء قد مضى وعلاوة على هذا لدى الكلام عن سفير العجم يقول في احدى المقطوعات: «يدخل سفير بلباس الذين يمرون من هنا...» وفي الواقع سنة 1601 دخل رسميـا الى بلد الوليد مبعوثو شاه العجم. وتدل تلك المقطوعـة على ان سرفانطيس كان في ذلك الحين في بلـد الوليد حيث الف المسرحية التي هي موضوع حديثنا

اما من الوجهة الفنية فالسلطانة العظيمة تعد مـن افضل مسرحيات سرفانطيس من حيث الشاعرية ووصف الطبائع، ويراعي المؤلف وحدتي العقدة والمكان الا انه لايراعي وحدة الزمان ويقول الناقد المذكور «ان الفصول

موزعة توزيعا حسنا وكلها تنتهي في نقاط تثير الاهتمام والتشوق، وكلها ذات مادة جوهرية تتحلى وتتقيد بالوحدات الصغيرة داخل نطاق الوحدة الكبرى التي تسيرها اليها وتجعل العقد تدور حولها»

«ومن اكبر عيوب الرواية غياب سرعة المحاورة التي كثيرا ما تجعل من المحاورين منشدي اشعار وصفية غنائية وينجم عن هذا ان الاشخاص يستنزفون بافراط الافكار ويعرضونها عرضا لايبقي على شيء من اشكالها والوانها».

بدرو دي اوردمالس:ـ

لهذه المسرحية من حيث العقدة علاقة باحدى المسرحيات القصيرة: «انتخاب رؤساء بلدية داغنثا» وبالقصة المثلى «لاخيتانيا». وبطل المسرحية رجل خبيث متهتك ورغما عن انه لم يكن مجرما كان يعايش عشيرة من الغجر حبا بمعشوقته ويتدرب في حيلهم وخداعهم.

السافل السعيد:ـ

مسرحية عن حياة القديسين ذات فصول ثلاثة يرجح ان سرفانطيس الفها في اشبيلية بعد سنة 1596 وقت ظهور التاريخ الذي كان له معينا، وقد يكون تم تاليفها في السنوات الاخيرة من حياة الكاتب، عند ما كانت

الفكرة الدينية تقلق راحته وتقض عليه مضجعه، ويتضح ذلك من خلو شكلها من اي عيب كان . ومن الروح الدينية وصبغتها المسيحية المحضة، ولاريب في ان سرفانطيس استلهم هذه المسرحية من العبرة المثلى المستقاة من وفاة الدومنيكي الاشبيلي، الراهب كريستوبل دي لاكروث، بطل الف عمل طائش في حياته من ميزات السفلة، واما حياة كريستوبل دي لوغو ـ وهذا هو الاسم الذي كان يعرف به في حداثته ـ فكانت تروى في مسقط رأسه كما لو كانت خرافة من الخرافات. ولو كان من المحتمل ان يكون سرفانطيس قد سمع بتهتكاته واعماله القدسية فيحتمل كذلك ان يكون قد اطلع على هذه وتلك في تاريخ تاسيس ونمو مقاطعة القديس يعقوب في المكسيك للراهب اغوسطين دافيلا اي باديا، المطبوع سنة 1596. ولاريب في ان سرفانطيس نقل الى المسرح ببراعة فريدة ومهارة فنية حميدة سيرة هذا الدومنيكي الاشبيلي الكثيرة المنعرجات، ولكن لما لم يكن من السهل حصر حوادث شتى لحياة معقدة وعرة في ثلاثة فصول، اضطر الى تحوير مجرى التاريخ نوعا فاضاف حوادث جرت في طليطلة الى حوادث وقعت في اشبيلية

واذا به يفتح ابواب دير المكسيك لحوادث تمر في وقت قصير في حال كون وقوعها يستلزم وقتا طويلا. ولاحظ كوتليرو اي فيادور انه: «بدافع الموضوع رأى سرفانطيس نفسه مقيدا فاضطر في هذه المسرحية الى مخالفة المبادئ المسرحية التي يبشر بها في الكيخوطي، اكثر من مخالفته لها في غيرها من المسرحيات وخصوصا فيما يتعلق بالوحدة المكانية ولكي يبرر موقفه كتب في بداية الفصل الثاني تلك المحاورة بين المسرحية والفضولية حيث حاول ان يتجنب مثل هذه الملاحظات على قدر استطاعته».

ويواصل الناقد ملاحظاته فيقول: «في بداية الامر يظهر كريستوبل متهوراً على طريقته ودرجة تهتكه واجرامه ادنى بكثير مما يعتقد هو نفسه ويلتف حوله اشخاص من كل فج ومن كل طراز وضرب صورتهم يد ماهرة في جميع حالاتهم ونفذت اليهم عين حاذقة لترقب ميزاتهم الفنية الامر الذي ما برع فيه احد مثل سرفانطيس. اما الفصل الاول فاقل ما يقال فيه انه شريط سينمائي فائق يستعرض مجتمع اشبيلية استعراضا تختلج فيه الحياة، وتسير في ركابه اشبيلية العصر السادس عشر

بما فيها من اناس وعادات ولهجات ونقائص وجرائم. لوحة اتخذت من يد الطبيعة ولا شأن للخبث السنوري فيها. وقد قال احدهم في دراسته لضون خوان تنوريو ان سرفانطيس هو مبتدع هذه الشخصية المسرحية الخالدة ولاح له انه انتزعها قبل تيرسو دي مولينا من قلب البيئة الاشبيلية، ورغم وجود وجهة شبه كبيرة بين الشخصيتين في الفصل الاول فسرعان ما يبدو الفرق جليا اذ ان كريستوبل ما شعر قط بميل نحو النساء ولم يكن للحب في مجرى حياته ادنى تأثير.

وقد حمله في أحد الايام يأسه وضيق ذات يده الى المراهنة على كتاب ديني وقطع على نفسه عهدا انه ان خسر يلتحق بعصابة قطاع الطرق الا ان الفتى لما ربح فكر في هول النذر وللتكفير عن ذنبه قرر ان يترهب. وفي الفصل الثاني يشهد التبديل العميق الذي طرأ على نفس كريستوبل دي لوغو الذي اصبح يعرف باسم الراهب كريستوبل دي لاكروث وبصحبته رفيقه الوفى لاغرتيخا الذي يترهب ايضا باسم انطونيو، وتتجلى القداسة وروح التضحية في الدومنيكى عند ما كانت تنازع سكرات الموت ضونيا آنه دي ثريفانيو التى نظراً

لفداحة خطاياها قطعت الامل من خلاص نفسها ورفضت الاسعافات الروحيــة التى اعتبرتها غيــر كافيــة، فهرع اقاربها الى الدومنيكيين في طلب النجدة فارسل رئيس الدير الراهب كريستوبل لاقناع الخاطئة ومن اجل ذلك تضرع الى الله ان يحمله تضحية تعجز عن مثلها القوى البشرية، ان يلقى على نفسه تبعة خطايا المحتضرة عـلى شريطة ان تعترف وتتــوب. وفي الفصل الثالــث يسقط هذا القديس ضحية لافظع مرض، فيصاب بالبــرص، واما حياته التى امتدت ثمانى سنوات في حالة المرض المريع فقد اقتصرت على المعركـة الهائلــة التى اوقدت نيرانها على المسرح القوات الجهنمية ضد الثبات والايمان اللذين ما كان ليتزعزعا في خدمة الله اذ انه كان قد خلــع عليه نعمته السموية.

وقال ثيخادرو: «ان السافل السعيد هى في الاساس مأساة (دراما) تاريخية ومــن احسن المسرحيــات التــي الفت في اللغة الاسبانية اذ انها تخوض في ناحيتين من الحياة الاسبانية التهتك والزهد ولم يتوفق احد وحتــى سرفانطيس نفسه الى خلق مشهد سام من هــذا الطراز الخلاعى مثل الذي تقدمه لنا المرحلة الاولى لحياة لوبى،

او مثل الانموذج الورعى الطاهر الذي اختمر فتجمد في الحياة الدينية التقوية فاذا به كاحد القديسين المشهود لهم بالفضل، وقد امتزج في حياته الاقدام وهو صفة للبطل بالفكاهة التى انما كانت تتطاير من الرفيق، فطلع عبينا بصفاء الخاطر وانتقاد الذكاء والمرح، وهذه الصفة الاخيرة انما هى من ميزات زهادنا وقديسينا كما يجهلها اللذين يحاولون التحدث عنها دون سابق اطلاع».

وقد اكد كوتاريلو: «ان في المسرح اللاهوتى الرحب الذى يمتد من السماء حتى الجحيم خاض المؤلف وتعرض لدرس ثلاثة اسرار كبرى عميقة الغور من اسرار العقيدة الكاثوليكية: النعمة والكمال النفسانى والمحبة وهى التى كانت تهم المؤمن في القرن السادس عشر وتشغل الضمائر الى ابعد حد، وما ضر كون هذه المسرحية قد قدت من صم م الحياة ولو كانت معقدة فهذا لايعد عقبة كأداء في وجه عبقرية سرفانطيس الذي نثر من درر فنه على حادثة تاريخية جافة ما اكسبها روحا ادبية وبلاغة عذبة المنهل»

ومن ميزات هذه المسرحية البارزة، الرشاقة والمهارة

ثم براعة سرفانطيس في قرض الشعر اذ تظهر البحور التي نظم عليها مصقولة الابيات صقلا، منحوتة القوافي نحتا.

نومانسيا:ـ

مسرحية ذات اربعة فصول واهم مسرحيات سرفانطيس على الاطلاق، نقدها كوتاريلو بقوله : ينبغي ان تحطم قوالب الجمال المسرحي لكي تقرأ بلذة هذه المنتوجة التى ليست بمسرحية هزلية ولا بمأساة (دراما) بالمعنى المتعارف وقيوده، ولعلها شيء يفوق ذلك شيء يقوم بين النوع الفروسي والمأساة، فلقد حلق سرفانطيس باجنحة عبقريته الى سماء الرمزية وساعدته مساعدة جبارة على الوصول اليها اطياف اسبانيا المظلمة فنهر دويرو، فالحرب، فالمجاعة، فالمرض ثم السمعة. وتمثل شيئا يفوق مغزى ومعنى بطولة شعب أبي، تمثل اضطهادات وشقاء الوطن وقد سطع عليها شعاع ابتسامة الامل في طيات قرون المجد الغابرة التي ما نضب معينها وما وقف عرقها عن النبض كما هو حال مرارة ذلك الحين، موضوع المسرحية موضوع حر طليق: الاستقلال الوطني، البطل الحقيقي.

نومانسيا، البلدة الشجاعة تمثل اسبانيا ونفس

اشخاص المسرحية ليسوا غير مجردات وضعوا هنالك لدعم المفعولية.. ويلوح ان هذه المسرحية الجبارة تثير العجب من حيث الفكرة لا من حيث الاخـراج رغم الجـودة لانها تبشر بانبلاج صبح جديد للمسرح مفعم بروح الانطلاق فسيح الارجاء غزير المادة التي لم تعد تقتصر على التمسك بعصب تقليد حقيقة الحياة العارية للتحليق بها الى اجواء الشعر. بل هي ظاهرة مباشرة لعوالي الافكار سخرت لها كل الفنون عن طريق الافصاح المحلل».

ولم يكن النقاد الاجانب اقل مبالاة في المديح لدى التحدث عن مسرح سرفانطيس وعلى رأسهم اتباع مدرسة استلجل الرومنتية.

ونظرا لفخامة هذا الموضوع الخليق بان يكون موضوع ملحمة، تعد مجازفة خطيرة محاولة تطبيق شروط «الدراما» عليه ولهذا يقول اشاك: «ينبغي ان لاننتقد المؤلف لكونه تعرض تعرضا عاما للصفات ولانه اضعف من قوة العقدة في غير ما موقف دون وجود رابطة ماخلا العلاقة التي تربط مباشرة او غير مباشرة تلك المواقف بمصير نومانسيا»

ولايقل وجاهة رأي شلي في مسرحية سرفانطيس

هذه اذ قال: «لقد قرأتها وبعد ان خامرنى الشك نظرا لبساطة وسذاجة الفصل الاول، اخذت اشعر بالراحة والاطمئنان يدبان الى قلبى بشكل غريب واخيرا اصبحت ذا شغف قوي اذ ان براعة الكاتب الذي قلما يجاريه احد في طرق ابواب اثارة العواطف وانماء الاعجاب خلقت في ذلك الاهتمام البعيد الغور، واعترف ان في هذه المسرحية شيئا نزيرا مما يمكن ان يوصف بالشعر، غير ان التسلط على مقدرات اللغة وحسن انسجام القريض يحلقان الى درجة تحمل بسهولة ايا كان على الاعتقاد انه ازاء مؤلف شعري».

وليست آراء غوت وسيسموندي وتريكنور دون آراء الاولين مقاما بل ان الاخير من هؤلاء الثلاثة قد اكد: «ان نومانسيا مسرحية سرفانطيس تحتل مركزا اعلى بكثير من الذي يتربع فيه «فوستو» لصاحبه مارلو».

وفي سنة 1809 عند ما ضربت القوات الفرنسية الحصار على مدينة سرقسطة امر الجنرال بلافوكس حاميها باصالة رأي ان تمثل مسرحية نومانسيا داخل الاسوار فتمكن اسبان القرن التاسع عشر من التطلع الى تفاني اسلافهم اللذين عرفوا ان يتجرعوا كؤوس الحمام من

اجل الحرية، فساد الحماس خلال التمثيل ودبت الحمية الوطنية في رؤوس المدافعية فخرجوا لمنازلة قواد اكبر رجل حربى عرفته تلك الايام فهزموهم، وكان الفضل في انتصارهم يعود الى اشعار سرفانطيس.

نقلت هذه المسرحية الى الانكلزية ثم نفس المترجم تولى امر نقلها الى الالمانية.

وتقع هذه المسرحية في اربعة فصول على غرار سائر المسرحيات التى انجلها سرفانطيس في المرحلة الاولى من نشاطه المسرحى.



المسرحيات القصيرة

اضعف هذه المسرحيات قاضى الطلاق، واما التى تحمل اسم انتخاب رؤساء بلدية داغنثا. فهى سخرية ماهرة موجهة الى الراغبين في حمل عصا السلطة، ومسرحية «السافل الارمل المسمى طرمباغوس» تضع حلاً لمشكلة خطيرة هى ان يختار البطل صديقة من بين الكثيرات المرشحات الى مثل هذا المنصب ووجهة الشبه بينها وبين «الرنكونتى اي كورتديو» قريبة. واما «قصص الاعاجيب» فلاريب انه اوحتها له قصة للكوندي لوكانور وهى تدور حول اناس رعاع كانوا يصنعون اقمشة سحرية بواسطتها يرون اشياء عجيبة ويقتصر هذا فقط على الابناء الشرعيين للزوجين دون غيرهم. ومن ابرز الصفات التى لاتجارى وصف اخلاق شخصين: شنفايا وتشيرينو، و«الشيخ الغيور» تذكرنا بشخصية كريثالس في المسرحية المسماة الاسترامنى الغيور والتى يمكن ان يكون منبعها قصة شعبية قديمة واما «الفسكايينو المموه» فقيمتها ضئزى، و«الحارس الامين» تدور حول منافسة غرامية بين وافه وجندي، وكثيرا ما يعرض على المسرح الاسبانى مثل هذا النزاع،

وقد نسبت الى سرفانطيس المسرحية الصغيرة المسماة المتشدقون التى ظهرت لاول مرة في الجزء السابع لمسرحيات لوبى دي بيغا سنة 1617 الا ان هذا صرح بانها ليست من مؤلفاته ولهذا منذ ذلك الحين ما برحت تعتبر من مؤلفات سرفانطيس، ويقوم موضوعها على ان احدهم اراد ان يهذب زوجته الثرثارة فجاءها برجل يفوقها ثرثرة علها تنتبه الى نقصها فتصلح نفسها.

ان في مسرحيات سرفانطيس لروحا قوية وجرأة على العموم في السكب، تحليها مشاهد نوعية كلها حياة يكثر فيها المغزى وتسود نفسية البيئة التهتكية وعالم النور اللذان نقلا الى المسرح في مؤلفات قصيرة ميزاتها العجيبة الصدق والمعنى العميق، ففيها يظهر السبر النفساني في اوسع ادواره كظهوره في خيرة روايات سرفانطيس الموفقة، ويجري فيها العصير الشعبي الساذج دون ما تكلف او اضافات غريبة واللهجة طبيعية وسهلة دون ان تفقد شيئا من مرارتها فتبدو كانها جاءت من تلقاء نفسها. فسرفانطيس في مسرحياته القصيرة يشكل الرابطة الوثيقة بين الخطوات، للوبي دي رويدا والمؤلفات الخالدة لكنيونس دي فنافنتي التي انما تعد كنذير لمرنمات ضون رامون دي لاكروث.

المؤلفات المنسوبة الى سرفانطيس

لقد فكر كثير من فطاحل الكتاب مثل هرنندث غيرا واسنسيو وضون ادولفو دي كسترو في ان ينسبوا طائفة من المؤلفات جلها مسرحية الى سرفانطيس ومن جملتها: رسالة نثرية الى ضون دييغو دي استوديو كريو تتحدث عن عيد القديس خوان الفرتشي، ومسرحية هزلية اسمها: ملك كوادلوبي العذراء، اعاد طبعها الطباعون الاندلسيون والمسرحية القصيرة المسماة «سجن اشبيلية» يحتمل ان تكون للمتخرج تشافس، ومستشفى المعلولين والسفال والمتطلعون والموشحات وضونيا خوستينا وكلاهورا.

وجلما يمكن ان يقال في هذه النسبة انها غير ثابتة اذ ان الكتاب المذكورين انفا استندوا في احتمالاتهم هذه الى عبارات لسرفانطيس جاء فيها ان بعض مؤلفاته القصيرة يتداولها الجمهور خالية من اسم

صاحبها. وقد جاء في الرسالة التي وجهها الى الكوندي دي لوموس مقدماً له مؤلفه المسمى «البرسيلس» على ذكر ثلاثة من مؤلفاته: اسابيع الحديقة، وبرنردو الشهير، والجزء الثاني من «لاغالاطيه» التي لم تعرف بل لم تكتب.



الفصل الرابع

ضون كيخوطى

ختم احد مشاهير النقاد الذي ذوى غصنه في حين كان ينتظر الشيء الجليل من اعماله واقتطاف الاثمار اليانعة من اشغاله، بحثه عن اكبر ممثل فرنسي كوكلان الخالد بهذه العبارات لنفس الممثل المذكور: «لنتصور يوما َيوم الحشر دعيت فيه كل من السلالات البشرية لتقديم المؤلف الذي تتجلى فيه دون ما شائبة اخلاقها لتنال مركزا في السماء حسب استحقاقاتها ومؤهلاتها فعلى ما اعتقد تقدم المانيا فاوستو، وانكلترا هملت، واسبانيا ضون كيخوطي، وايطاليا لاديفينا كوميديا، واخيرا تتقدم فرنسا بتواضع وعلى شفتيها قد ارتسمت ابتسامتها الوضاءة السليمة لتلقي بدورها ايضا مؤلفها ـ فيسأل العلي، ماهذا؟ ـيا سيد الاسياد هذا طرطيف ـ حسن أجلس عن يميني».

لكن رغم وفرة الاطراء الذي وجه الى المسرحي الفرنسي الشهير فالتقريظات التي استحقها مؤلف الكيخوطي تفوقها بمراحل، وعلينا ان نؤكد بان سرفانطيس يعد بفضل كتابه الخالد، احد العظام الثلاثة الذين عرفهم

العالم، وجلهم وعجب بنبوغهم وهو احد الثلاثة الذين لم تمسهم يد الحدثان بسوء بل زادتهم رفعة وسناء وكلما مرت الايام علت قيمتهم وجل مقامهم وانه انتزع مع هوميرو وشكسبير كل ما دفن في صدر الفن الرحب: من نثر وشعر ومسرح.

ان ضرير ازمير الذي تبدو وجهة الشبه بينه وبين سرفانطيس وثيقة العرى من حيث آلام الفاقة والاهمال والعيش في الظلمات والموت في الظلمات اكتسح سبيل الخلود لانه كتب وصور اعمالا خارقة العادة لالهة وابطال، والمسرحي الانكليزي الذائع الصيت لانه حدثنا عن لواعج امير وعن غيرة قائد اسطول البندقية وعن شقاء صبين، الا انه في مؤلفاته قد طرق امورا من ابعد ما يتصوره العقل كان يعمد البطل في الفصل الاول ويموت وهو شيخ في الاخير حيث يظهر الحفارون وقد جدوا في نبش الحفرة وهم ينشدون ويشربون، وغير ذلك من المشاهد التي تنم عن وضعية مجردة تقشعر لها الابدان، مما يظن انها لزعماء المدرسة العصرية ورغم كل هذه العيوب فقد كتب لادبه البقاء شامخ الجذع كارزة سنخها متأصل في أعماق التربة تتحدى عوادي الايام بصلابتها ومناعتها وقوتها.

واما سرفانطيس فهو الوحيد الذي جاءنا باشخاص عاديين. لقد حدثنا عن مغامرات مجنون وعن كياسة رجل مسكين قليل ملح الجمجمة - على حد التعبير الاسباني - فعلى هذا يقوم المؤلف الذي شبهه أرفين بالتوراة من حيث الامور الدنيوية. وقال هولند ان لهذا الكتاب المركز الاول بين روايات العالم. وقال ببدرمان بانه يجل من ان يناله النقد بطائلة. وقال اللورد بيرون: لدى لذة قرأة الكيخوطي في لغته تضمحل باقي اللذات، ويرى فان ايفن ان في هذه المنتوجة افضل درس لصقل الخيال وتربية القوى العقلية، ويعتبرها امباري اعظم صورة شكلية تمكنت من خلقها العبقرية البشرية. ويشير فياردوت الى الكفاح بين المثلية والوضعية، ويؤكد ريوس ان المؤلف انما هو تقليد الالباذة، ويرجح بسطوس انه عثر فيه على درس لتاريخ القرون الوسطى، ويرى «هرنندث مورخون اي بي اي موليست» انه درس الامراض العقلية، وبوتش بلانك انه تقريع بالاضطهاد الديني. وديث دي بنخوميا انه يكاد يكون بحثا عن الفلسفة الالمانية، وهو مؤلف يسجله الجغرافي ويعلق عليه البحري ويتبحر فيه العالم بالخفايا ويدرسه الاديب.

ولما كان يتسع متنه لخطة رحبة ويفتح دفتيه لكل ما يتعلق به، اصبح من الضروري للتوصل الى معرفته معرفة حقة ان نقسم دراسته الى موضوعات شبه مستقلة بل مستقلة تمام الاستقلال ولهذا سنتحدث: اولا عن ظهور الكيخوطي في الوقت الذي كانت قد جنحت الى الغروب شمس رواية الفروسية. ثانيا: نجاح كتاب سرفانطيس، شيوعه في اسبانيا وفي الخارج، قضية جس النبض، بعض النظريات التي زعم اكتشافها في الكيخوطي ثالثا: اهم الشروح، المترجمون، صور الكيخوطي الفنية. رابعا:موضوع الكيخوطي. خامسا: اشخاصه. سادسا: روايتا الكيخوطي: الفضولي الممل والاسير. سابعا: تقليدات الكيخوطي. ثامنا: ضون كيخوطي في المسرح. تاسعا: الصحافة وضون كيخوطي. عاشرا: الكيخوطي والنقد الوطني والاجنبي.

- I -

ظهور الكيخوطى

وقت جنوح شمس رواية الفروسية

الى الغروب

اكد احد مشاهير الكتاب ان اسبانيا، في غضون العصر السادس عشر، كانت تجري في اثر ما هو خارق: «كان قصاصوها يروون ما هو بعيد كل البعد عن الحقيقة بل المستحيل بعينه الا ان الفوران الوطني والكبرياء وليدة الاعمال الخارقة، كانا يخلعا عليها ثوب الامر الطبيعي الممكن ان يأتيه الفارس المغوار، وما كانت لتقدر الاستحقاقات الادبية فلذا كان يجتهد الكاتب في سرد الحوادث الخارقة للعادة، وكانت الحياة الاجتماعية الاسبانية تسير في سبل لاتقل وعورة وما كانت سياستها اقل طموحا ولا النظام الاجتماعي والاقتصادي ابعد عن ميادين الوهم وكان هذا الاتصال الوثيق العرى القائم بين الادب والنظام الاجتماعي يقاوم بنجاح نفوذ المنددين والوعاظ الى ان اقبلت ايام فيلبى الثاني

والثالث المؤلمة، فشعر آنئذ الكل بالخداع واتيحت لسرفانطيس الفرصة لنشر الكيخوطي» هذا ما قاله فرنسيسكو كناليخس فاذا بهذا الاستاذ الكبير لا ينطق بغير الصواب . ان الادب الفروسي الذي يزعم احدهم انه جاء من الشرق الاقصى وبزعم الاخرين هو وليد اوربا كان ضروريا لاذكاء نار الحمية في النفوس في الوقت الذي اندلعت فيه نيران الحروب بين الديانتين المسيحية والمحمدية.

كانت الحوادث الخارقة للطبيعة تثير عواطف الشعب الذي كان يميل ميلا جنونيا نحو ابطاله فلذا كان من الواجب خلق امر عجيب يجعل من البطل رجلا من طينة فوق طينة سائر الرجال فلم يكن هذا سوى تتمة او بالاصح نسخة عن حروب ابطال اليونان وتروادة التي تغنى بها الشاعر الخالد.

ففي اواسط القرن السادس عشر استحوذت الانتاجات الفروسية على التراب الاسباني غير انها في نفس الوقت احطت من الهدف السامي الخالص الذي كانت تتجلى به قصة الفروسية الاسبانية الاولى عن اماديس دي غولا الشهير، ولاشك انه كان في الحرب المقدسة

للاستيلاء على القدس للشعراء المتجولين وجود وكان هؤلاء يطوفون على المعسكرات فيقصون اعمال ابطال وهميين حملتهم شجاعتهم العديمة النظير على الاتيان باكبر ما يتصور العقل من الخوارق.

ومما لاريب فيه انه في نفس القرن الخامس عشر اثناء الحرب التي مر على هبوبها في اسبانيا ثمانية قرون كان اولئك الذين يضربون الحصار على غرناطة ليحملوا ابا عبد الله على تسليم آخر معقل باق تحت سيطرة احفاد طارق وموسى. لايجهلون روايات اماديس وفلوريس وبرطينوبلس وغيرهم من ابطال الفروسية.

وعند ما انتهت الحرب الضروس التي اضرمت نارها في استوريا، قيض لروح الفروسية احد الكتاب فارتفع به الى الدرجة المثلى وسكب في قالب جديد اعمال الدونثل دلمار وآنئذ ظهر الحاكم غرسي - رودريغث دي مونطلفو بمؤلفه «أماديس» محورا اذ جعل منه رمزا لروح الفروسية وهكذا جاء اماديس دي غولا رمزا للفرسان العاشقين وللمدافعين عن الايمان العيسوي.

وكان على المرء في ذلك العهدان يختار بين الطرق الثلاث:

الكنيسة، او البحر، او القصر الملكي. ففي الدير حياة هادئة مريحة الا انه تقوم الى جانبها التضحيات: الصيام المتواتر والحمية. والبحر يوازي ما يسمى حياة الكفاح في اميركا او خوض غمار الحروب الدائرة رحاها مع تركيا، والقصر الملكي، وان كان هو العيش في الحاشية فقد تكتنفه البطالة القتالة، فما هي الاهداف المثلى التي كان يحلم بها الشعب الاسباني؟ الفروسية وهي الشرف، هدف علوي وهو الحب، وهدف ديني عاطفي وهو الايمان. ونزال الابطال كان للدفاع عن الشرف والحب والحروب مع المسلمين لرفع كلمة الايمان والعزة في سبيل الملك والدين والسيدة. وكان المتأنقون يتجشمون المركب الخشن ويخوضون اقسى المعارك، وكان الفرسان يطيعون اوامر اسيادهم طاعة عمياء مهما انطوت عليه من اجحاف واستبداد، يتركون اشغالهم الخاصة ويهجرون مناعمهم في سبيل الدفاع عن اراضي ملوكهم. والمطلع على حروب الاسترداد يقف على الكثير من مجازفاتهم ويقدر روح الفروسية الوثابة التي كانت تسيطر عليهم.

ولقد قال اشوارتز ان هذا العصر لشهير من وجوه عديدة، وهو عصر فيه تمت وعمت اهم الاختراعات

والاكتشافات: الورق، البارود، الابرة المغنطيسية، والمطبعة وفيه يكتشف الجنوى العظيم عالما جديدا وتتبدل مبادئ سياسة الملوك والشعوب، في هذا العصر يثور العقل على الايمان وتحدث حركات ادبية وفنية من ابهى الحركات وكل هذا ليس ليقوى على تغيير وجهة الافكار فحسب بل ـ بالعكس ـ اذكى النفوس وزاد في تعطشها الى المجازفات وحب الثروات والرغبة الجامحة في القيادة والامر والنهي وهو الشئ الذي يمتاز به رجال هذا الزمن». وكان محقا هذا المؤرخ الشهير في قوله فقصص اعمال ارتوس الذائعة الصيت وانعال فرسان المائدة المستديرة وحب لانثاروتى وخينبرا وتريسطان وايسولدا كانت كلها امورا معروفة حق المعرفة واما افعال اماديس وبلمارين الخارقة العادة فكان يعلق عليها وتروى بشكل لايصح معه ان يقال انها غير واقعية وكان يعتقد بها كما لو كانت كذلك واما الكتب التى كانت تحمل في بطونها هذه الاقوال فكادت تكون الغذاء الادبى الوحيد للشعب الاسبانى في غضون القرن السادس عشر.

ولما رأى الكتاب تهافت الجمهور على حوانيت الوراقين واختطاف روايات المشائين الذائعي الصيت فكروا في

ان يواصلوا القص والنسج على غرارها واستخدام سير اولاد اولئك واحفادهم وكلما كانت تظهر الطبعات من جديد كانت تطلع معها اعمال جديدة، وفتحت الخوارق مجالا واسعا وحقلا خصبا امام المؤلفين المحمومي الافكار الوهمية للكتابة ووصف اعمال لاتمت الى الحقيقة بصلة، وقد احرز على قصب السبق في هذا المضمار فليسيانو دي سلفا. واحدث هذا الطراز من الادب في اسبانيا افتتانا اكثر منه في فرنسا وايطاليا، واجتازت المشاهد الوهمية التي تتحدث عن الاسد الطائر والجنيات والمردة والاقزام والاوانس المغبونات والفرسان الكرام اعتاب القصور والاكواخ على حد سواء وفرضت ارادتها على كل من الطبقتين المثقفة والجاهلة، واعتقد الشعب المتكاسل الذي ما شعر قط بميل نحو الفلاحة والزراعة معين الثروة، اعتقادا راسخ البنيان، بكل ما رواه عليه اولئك الكتاب المنجلين لمثل تلك الخرافات التي رأى فيها ـ وفيها وحدها ـ مستقبلا زاهرا يغنيه عن سواها، ولما كان يظهر من حين لاخر في تلك الكتب ان الاوانس كن يرتمين في احضان العاشقين، حدا هذا بمسيري دفة امور ذلك الزمن وارباب الشرع والفلاسفة لان

يرفعوا اصواتهم ضد طغيان تلك المنتوجات المملوءة بالترهات ولكن كيف يكتب لدعواهم النجاح وامبراطور ككرلوس الخامس يتسلى ويروح عن نفسه بقرأة «البليانيس دي غراثيا» وولده الوقور الزاهد فليبي الثاني يمثل دور الفارس المشاء في الاعياد والمنازلات؟ وكيف للشعب ان يمل هذا النوع من الكتب وقد قيل ان تريسا دي خيسوس كانت جد مولعة بهذا الطراز الادبي وان ولعها بلغ من الشدة درجة حملتها على التأليف فيه؟

حكم الفلاسفة والاخلاقيون والشارعون بفساد هذا النوع من الانتاج ولهذا نرى دييغوغراثيان في المقدمة التي كتبها لمؤلفات خنوفنتي : «بالامثولة التي يلقيها هذا الكتاب انفث في القراء الاسبان دوق الفهم واحملهم على عدم الالتفات الى كتب الاحاجى والاكاذيب التي يسمونها كتب الفروسية التي يفوق وجودها في اسبانيا ما هي عليه في اية مملكة اخرى وهى لاتصلح الا لقتل الوقت سدى والحط من قيمة الكتب الحقيقية التي تنطوي على النظريات الصائبة وهي فوق ذلك عديمة الفائدة، ولان مثل هذه الخزعبلات والخرائف التي تقرأ في تلك الكتب تخلل وتشوش حقيقة الاخرى وتفقد من صدقها لسرد

الوقائع التاريخية» هكذا تكلم واحد من اكبر الادمغة التي عرفت في ذلك الوقت وتلاه غرانادا الوقور فاصدر الحكم الاتي: «والان اود ان اسأل الذين يقرأون كتب الفروسية الملفقة والمحشوة افكا، ما هو الدافع الذي يحدو بهم الى ذلك؟ فهاهم يردون علي بقولهم: ان بين الاعمال التي تبصرها عيونهم الجسمانية اثنين هما ابدعها واعجبها: الجد والقوة لانه لما كان الموت - على حد تعبير ارسطاطـليس - آخر الامور الهائلة وابغض شيء عند سائر الحيوانات فان رؤية رجل يتحلى بصبغة المـزدري والمتغلـب على هذا الخوف الطبيعي، يثير اعجابهم. فمن هنا يتولد تهافت الناس لرؤية البراز ومصارعة الثيران وما شاكلها من الامور، وشبيه هذا الاعجاب - كما يقول الفيلسوف - بسير بصفة مستمرة جنبا الى جنب وممزوجا بالحبـور واللذة اللطيفة، ومـن هنا ايضا يتولد اتخـاذ اوصـاف الدروع وشارات الشرف للاسلحة دون غيرها من الميزات. فلذا اذن شمل هذا الاعجاب الجميع ولذا لم يقتصر على انتقاء مكانته وتصور الامور الحقيقية بل انه تعداها الى الخزعبلات والاوهام. ومن هنا تولدت رغبة الكثيرين وولعهم بقرأة كتب الفروسية الكاذبة» وكما لـو كان هـذا

ليس بكاف، فها هو الراهب بدرو مالون دي شايدي يقول في كتابه المسمى «كتاب محادثة المجدلية»: «ما هي كتب الحب، وديانس، وبوسكانس وغرسيلاسو وكتب الخرافات والخزعبلات عن اماديس وفلورياسيس وضون بليانيس وغيرها من اساطيل الاكاذيب المماثلة سوى خنجر بيد رجل في حالة الهيجان؟... وما عسى ان تصنع الانسة التي لا تكاد تدب على قدميها فتجيء بديانه في جيبها؟ ولئن كان الكأس الجديد ـ كما قال احد الشعراء ـ يتشرب ويحتفظ لمدة طويلة بطعم الشراب الذي يهرق فيه وكان الطفل والطفلة من الاقداح الجديدة وقد هرقنا فيهما خمرا ساما من هذا العيار أليس من الواضح الجلي ان يحتفظ بذلك الطعم وقتا طويلا؟» ويتخلص من بعد الى التحدث عن كتب الفروسية بالذات فيقول: «ويقرأ الاخرون تلك الاحلام الواهية الكاذبة التي لايعرف لها اول من آخر، والتي قد شحنت بها كتب الفروسية التي شاءوا ان يخلعوا عليها هذا الاسم والتي لو عرفوا ان يقدروا شرف التعبير ويحلوه المكان اللائق لاسموها، وكانت التسمية افضل «كتب اللصوص» ولو سألت الذين يقرأونها

ما استفدتم من مطالعتها لاجابوك: «قد تعلمنا الاقدام والجرأة اللازمة لنقل السلاح، وحسن الادب لمعاشرة النساء والوفاء والاخلاص لهن، والشرف وعلو الهمة وكبر النفس ازاء الاعداء الخ.» الا ان كل ما بشر به اصحاب الفكر وحملة الاقلام الزنيقة كان يذهب ادراج الرياح وكانت اصواتهم يرن صداها في قعر الوهاد المقفرة، اذ ان كتب الفروسية كانت تشق سبيلها دون ما عناء بل كانت تنتقل في شبه الجزيرة الايبرية تنقل الفاتح وقد ظللتها اكاليل النصر. وكانت مطابع اشبيلية وبلد الوليد ومدينة تخرج الطبعات تلو الاخرى لقصص الابطال المختلقين الوهميين وكلما خرجت طبعة جديدة الى الوجود تبدلت معها شخصية البطل الذي تحدثت عنه الطبعة السالفة وخصوصا شخصية امير المشائين اماديس دي غولا.

ورفع سنة1555 طلب الى مجلس الاعيان في بلدالوليد التمس فيه عدم السماح بطبع كتب الفروسية من جديد الا ان الامبراطور اعتصم بالسكوت عن الجواب ولم يصدر قانونا في هذا الخصوص الا بعد سنوات، اي سنة 1558 تاريخ ارسال رد الاميرة ضونيا خوانا على مجلس الاعيان وبعد انقضاء اجل ليس بقصير عمم على نواب الملك والمحاكم

والولاة الامر بعدم ترخيص طبع وادخال كتب الاحاجي والاكاذيب والتواريخ الملفقة الى مناطق نفوذهم لاي اسباني او هندي ولئن كان قد حذر ارسالها الى الهند (اميركا) ففي اسبانيا كانت تظهر طبعات لاتعد ولاتحصى من هذه الكتب، ولما بلغت وفرتها درجة لايتصورها انسان وتفاقم شأنها وشأن اكاذيبها اخذت في الانحدار شيئا فشيئا وقل التهافت والاقبال عليها، وما كادت تخف الغلواء وتهبط حرارة الولع والحماسة لمؤلفات الفروسية حتى ظهر اعظم تقريع جاء ليرفس هذا النوع الادبي ويجهز عليه، وفي اوائل القرن السابع عشر ليس الا غابت شمس رواية القرون الوسطى، الا انه تصح الاشارة الى انه في بعض الاحيان اعيد طبع كثير من مثل هذه التي نغفلها لعدم اهميتها ونكتفي بالالماع الى ما يعنينا من حيث محاولة انبعاث هذا الطراز الادبي بعد ان كان قد دفن نهائيا والى الابد.

فرواية الفروسية اذن شرعت في الاضمحلال في الهزيع الاخير من القرن السادس عشر ورأينا كيف ظلت تكافح من حين لاخر وتصدر عنها طبعات لم يكتب لها البقاء في غضون القرن السابع عشر نفسه وكيف ان في

طلائع هذا صدرت بعض القصص، الا ان الحماس لم يعد قويا مما ساعد على عدم تعدد الطبعات مثلها في القرن السابق، وهذا لايعني ان روح الفروسية قد قضي عليها تمام القضاء بل لها صفة الطابع الذي يميز تلك المرحلة، نعم وان توارى الفرسان والابطال من متن الروايات فليتخذوا مقعدا رفيعا في حديقة الادب الاسبانى الجديد: وهو المسرح.

وبمجرد اطلاعنا على هذا يزول العجب من رؤية لوبى دي بيغا يعمل على احياء مغامرات المركيس دي منتوا، وفيا مديانا ينادي بمجد نيكيا، ومونطلبان يحيى اعمال بلمرين دي اوليفا، وكسترو ينتزع هتاف الجمهور في الكوندي دي ايرلوس ومولد منتينوس، ومن تهافت نفس هذا الجمهور على المسارح الشعبية وتصفيقه تصفيقا محموما لابطاله المحاطين آنذاك بهالة من العاطفية وهم جادون في استعمال الرماح والاوضام هذا وان نقل مثل هذه الاعمال الى خشبة المسرح حمل الجمهور على الاعتقاد بانها لاناس كانوا من لحم ودم واعادت الى ذكرياتهم اعمال غونثالو دي غوثمان وخوان دي مرلو والفران دي فيغيروا وغوثيري كيخادا وديغو دي فليرا.

اما مؤلفات الفروسية فبعد ان اجتازت رتاج كل قصور ملوك اوربا اتخذت لنفسها في اسبانيا صبغة اصلية وعند ما كانت تهرول نحو المغيب ظهر ذلك المؤلف الخالد الذي قضى على ذلك الادب الملفق العليل. وهذه المتوجة هي كتاب سرفانطيس المسمى: ضون كيخوطى.

ولكن ما هو الغرض الاسمى الذي سعى وراءه سرفانطيس لدى تأليفه كتابه هذا؟ وماذا قصد من طبع مغامرات «نبيل المانتشا» التي لم ترها عين؟ لقد تضاربت الاراء وتباينت في هذا الصدد ورأى المعلقون والنقاد غايات جد مختلفة بل انهم انقسموا على انفسهم الى مجموعتين.

ولقد كتب المركيس طوريس في تأييد الجزء الثانى من الكيخوطى انه رأى «غزارة في المادة وسعة في الاطلاع والاستفادة وهذا ما ينطبق على موضوعه المتبع بمهارة لاستئصال كتب الفروسية الكاذبة على وفرتها والتى فشت عددا وتجاوزت كل حد يقبله العقل وترضاه العدالة.» ويرى ديث بنخوميه: «ان سرفانطيس لم يسع في زمانه للقضاء لا على الفروسية المثلى ولا على بقايا الفروسية الحقيقية ولو فعل هذا لكان برهن على جهل الماضى والحاضر والمستقبل» ويرى كليماسين ان: «في

ضون كيخوطى صور الاوجه المضحكة والنواحى الهزلية للفرسان المشائين وفي سنتشو حامل درعه ما هو مضحك في اللذين يقدرون ويجلون خوارق الفروسية» ويرى مينث انه: «ما سخر بل ما حاول قط النيل في ادنى شئ من افكار الفروسية» ثم يواصل اجتهاده في هذا الموضوع ليقول مؤكدا: «لم يصب الذين حاولوا التمسك بان مؤلف سرفانطيس انما هو هجاء قارس لكتب الفروسية». ولم يقتنع بهذا القدر بل انه توسع في دراسته وبحثه الى ان اردف اراءه برأي آخر فقال: «انه ليس فقط لم ير في الكيخوطى ذلك الهجاء اللاذع وذلك القدح الموجع ضد كتب الفروسية المنسوبة الى نفس الكتاب بل يعتقد ان غاية سرفانطيس الحقيقية كانت ترمي الى رفع شأن افكار الفروسية القديمة الشريفة.»

ويشاطره هذا الرأى ميكال س. اوليفر في قوله: «ان ضون كيخوطى ليس بهجاء بل تقريظ لروح الفروسية والقرون الوسطى تلك الروح التى احتضرت على يد الانبعاث الوثنى، الشهوانى، الفاقد لمعنى الاحترام المفعم شهوة وطموحا ونزقا وسباتا» وتصح الاشارة في هذا المقام الى ان اغوسطين دوران كان قد كتب من قبل، ان

المؤلف لم يجرد قلمه من غمده ضد الفروسية القديمة التى لها الفضل وحدها في استرداد الوطن وتحريره وانما جرده ضد ذلك التصنع والزي المستخدمين فيمابعد للتشويش او للدفاع عن قضايا لا تمت الى تلك بصلة».

وكتب العالم خيل اي ثاراطى: «ان الغاية من كتاب سرفانطيس احياء ذكرى الفروسية وتطهيرها من الشوائب الكثيرة التى الصقتها بها الجماعات المحمومة فشوهتها.» غير ان احد كبار الدارسين لمؤلفات سرفانطيس وهو مريانو امنتريا الذي اصدر في مدريد سنة 1834 نشرة تحت عنوان: «تبجيلات مرفوعة لذكرى سرفانطيس» لم يوافقه على ذلك اذ قال: «ان مؤلف هذا الكتاب الذائع الصيت قد سدد ضربة قاضية الى فساد ذوق زمانه والى العيوب التى جاءت كنتيجة محتمة لتلك القراءة الشاذة، قراءة كتب الفروسية. التى نشرت ظلها فوق ربوع اوربا فافسدت الاخلاق ونالت من المروءة والكرامة واغرقت العادات وسعت بواسطة الرومنتى الذى لايقبله العقل الى اشادة جدار لاتنفذ منه الانوار التى كانت اضواؤها تتلألأ في روحه المتحفزة وبصيرته الثاقبة».

وفي غضون هذا القرن في حفل رهيب اقيم تمجيدا

لذكرى هذا العبقري الخالد سمع صوت حجة زمانه منندث اي بلايو يقول: «ان سرفانطيس لم يقصد قتل فكرة مثالية بل قصد تحريرها ورفع شأنها اذ انه اضاف الى متن كتابه كل هو ما شعري ونبيل وجميل في الفروسية ولم يأت كما زعم بعضهم بمؤلف مناف ولا برفض جاف قاحل بل جاء بمؤلف مطهر ومكمل .

ونكتفي الان بهذا القدر من اراء النقاد والمعلقين حيث ان تعددها يوازي تعدد الاذواق ولنتساءل: من من هؤلاء يقترب الى حقيقة الغاية التي انشدها سرفانطيس لدى تفكيره في موضوع كتابه ؟ فلنقف اذن على ما قاله المؤلف نفسه.

كتب سرفانطيس في مقدمة الجزء الاول من ضون كيخوطي ان مؤلفه «انما هو ابتداع ضد كتب الفروسية» وانه «لايرمى الا الى تحطيم السلطان والمكانة التي اكتسحتها تلك الكتب في العالم وفي نفوس العامة» وانه لكذلك «فان يقرأه المصاب بالسويداء يضحك والطروب يزداد طربا والساذج لايتبرطم والزنيق يعجب من الابتداع والوقور الخطير لايزدريه ولا الحكيم ينكر عليه الثناء

والتقريظ ويتابع فيقول: «القصد منه دك صروح كتب الفروسية هذه التي ملها الكثيرون ومدحها السواد الاعظم».

وفي الفصل 47 من الجزء الاول يدلي برأيه في هذه الكتب عند قوله: «اعتبر اعتبارا قطعيا انها مضرة بالجمهور... وما حملت نفسي قط مشقة قراءة احدها من اوله الى آخره... فهذا النوع من الادب يقع ضمن دائرة الخرافات التي ترمي الى التلذذ فقط دون ان تهذب... وما دام هدفها الرئيسي ايجاد اللذة فيتعذر علي كشف النقاب عن كيفية بلوغها الهدف المرمى اليه وهي محشوة بهذا القدر من الخزعبلات... واي جمال يمكن ان يوجد بل اي مدلول عقلي في كتاب او خرافة تقول ان فتى عمره ست عشرة سنة يطعن ماردا كالبرج بالسكين فيقده الى شطرين كما لو كان هشيشا؟ وانه متى وصف لنا موقعة يصفها بعد ان يقول ان العدو جرد لساحة القتال مليون مقاتل؟ ثم يدعونا صاحب الكتاب قسرا كي نصدق ان الفارس انتصر على هذا العدد الجرار من المقاتلين بقوة ساعده المفتول ليس الا... واية عقلية ان لم تكن همجية ترتاح الى قراءة امور تحدثنا عن برج عظيم غص بالفرسان،

يمخر عباب اليم كسفينة تجري الرياح وفقا لما تشتهي وتمسى اليوم في لمبرديا وتصبح غدا في اراضى النجاشى خوان دي لاس انديس او في امصار آخرى ما وصفها بطليموس ولا رأتها عين ماركو بولو؟».

لقد انتقد سرفانطيس بهذا الشكل المحكم كتب الفروسية وهذا لايعني انه لم يسد النصائح في كيفية تأليف مثل هذه القصص ما دام فيما بعد قد كتب ان فكرا صائبا يمكن ان يطلق العنان لقلمه فيصف الغرق والالام والحروب والمبارزات والقواد الحكماء الرزناء والاعداء الماكرين والفياشين الا ان كل هذا ينبغي ان يكون: «باسلوب طلي هادئ وابتداع حاذق يميل على قدر الامكان الى الحقيقة نفسها» فهكذا يعلم المؤلف ويفرح وهي الغايةالقصوى التي ينشدها كل من صاغ مثل هذه الكتب.

يتضح لنا من هذا كيف ان سرفانطيس غربل خرافات هذه الكتب ونادى بتجريدها من كل ما لاصلة له بالحقيقة من غير ان يمس شرف الفروسية ومثالها الاعلى وحب المرأة الامر الذي وصف وصفا رائعا عند اماديس دي غولا ولفق تلفيقا مخزيا عند احفاده.

❀ ❀ ❀

لايسوغ بوجه من الوجوه لسرفانطيس ان يسخر من مثال الفروسية ومن المجهود البشري لبلوغ غايتـه نظرا لما في حياته وفي كثير من مواقفه من دلائل على ان في صدره روح ذلك المغامر القح، فالاعمال التي جرت في الاسر عند ما حاول الفرار لا لخلاص نفسه فقط بل لخلاص رفاقه ثم القائه التبعة على نفسه وتحمله مسؤولية هذا الذنب الخطير دون سواه مدعيا انه هو الذي دبر خطة الفرار معرضا نفسه للاعدام. لهي من الامور التي تتناسب مع اعمال الفرسان الابطال، ولما كان سرفانطيس ذلك الرجل المتحمس لسلالة هذه الكتب ورأى مثال الفروسية الاعلى قد هتكت حرمته وبات على الحضيض انتضى قلمه من غمده دفاعا عنها ساخرا متهكما على الملفق والكذب منها. ولذا يهزأ من بليانيس دي غراسيا لدى تحدثه عن فتى عمره ست عشرة سنة يقتل ماردا كالبرج قدا، ويسخر من الامور التي تقرأ في البوليشسني دي بويسيا ولاس سرغس دي اسبلنديان ولايمكن ان يصدقها بشر، ويضحك من البرج المسحور لصاحبته: ضونيا دلفوندوفالي المذكورة في فلورنبال دي لوكا. وفي وسعنا ان نأتي بامثال عديدة

من كتب الفروسية التي تعرض اليها سرفانطيس فرشقها بسهامه المرة اللاذعة، الى كل هذا استند سرفانطيس ليصور في مخيلة «النبيل المانتشاوي» المحمومة امورا وهمية لايقع عليها بصره وانما هي وليدة تلك المخيلة الميالة للفروسية المشبعة بروحها فلذا عندما يصطدم بالحقيقة تستحيل القصور الى خانات والمردة الى مطاحن هوائية.

فما ضون كيخوطى، اذن، سوى كتاب اضيف الى كتب الفروسية نظرا لكون مؤلفه كان يتصف بميزات عرف منها انه رجل خيالى، مثالى، يتيه في دنيا الاحلام على غرار بعض ابطال تلك الكتب وكل ما هنالك ان سرفانطيس احس بالالم يحز قلبه عند ما رأى كيف كانت تشوه صورة اماديس دي غاولا واقض عليه مضجعه ان يحور كتاب قصص المشائين الحقائق وان يخفضوا الى الحضيض زورا وبهتانا بمثال الفروسية الاعلى فعزم على الاستهزاء من الشطط الذي ضمته بين دفتيها تلك المؤلفات فلهذا قابل بين خطط المشاء والحقيقة اي الرؤية الثنائية للاشياء اذ قد يستحيل خنق روح الفروسية التى يرمز اليها الشرف والحب والسيدة وانما يمكن

تطهيرها وغربلتها من كل ما علق بها لينال من كرامتها على ممر الزمن، ومن العوائد التى اخذت تتسرب اليها فانتقى كل ما احتوت عليه كتب الفرسان المشائين من شريف ونبيل وشعري وعلوي وغيرها من الميزات المشتة فجمعها وحلق بها. وفي وسعنا ان نؤكد مع العبقري الخالد منندث اي بلايو ان سرفانطيس لم يقتل فكرة سامية بل انه حورها ورفعها.



- II -

نجاح كتاب سرفانطيس

شيوعيه في اسبانيا وفي الخارج، قضية جس النبض، بعض النظريات التى زعم اكتشافها في الكيخوطى

يمكن ان ينعت ظهور الكيخوطى كنجاح مطبعى باهر اذ قبل ان يعرض في واجهة ورفوف مكتبة الوراق خوان دي لاكوسطا كان موضوع حديث الحلقات الادبية والمجتمعات التى انقسم اعضاؤها الى محبذين ومنتقدين.

واخيرا سنة 1605 ظهر الكتاب وعرض للبيع المؤلف الذي انما جاء ليرفس رواية القرون الوسطى المنحطة نظرا لما فيها من القصص والخرافات عن الفروسية التى ساد منتوجها في اسبانيا طيلة قرن وطمس على سائر العوامل الادبية الاسبانية، واما عرض ضون كيخوطى فكان سنة 1605 لاسنة 1604 كما حاول ان يثبت ذلك بعض الكتاب، وليس من الصعب اثبات هذا الامر حيث

انه في سجل اخوية الطباعين في مدريد قد اتضح انه سلمت بتاريخ26 مايو سنة 1604 نسختان من الكيخوطى تحتويان على 83 دفترا وان الامتياز الممنوح من الملك لطبع كتاب سرفانطيس مؤرخ في بلد الوليد 26 شتمبر سنة 1604 ولئن كان الامر كذلك فينبغى الالماع الى ان المصحح سلم بدوره بعد صدور الامتياز الملكى النسخ الى الطابع في شهر دجنبر وفي نفس هذا الشهر اعيد الكتاب الى بلد الوليد ليقوم السادة اعضاء المجلس بتعيين ثمن النسخ ثم اعاده هؤلاء السادة في اواخر الشهر المشار اليه حيث انهم عينوا ثمن النسخ في 20 منه وفقا لما في التعريف الذي يشهد بانهم جعلوا ثمن كل دفتر ثلاثة مرافيدس ونصف الخ. فيمكننا استنادا الى هذا ان نؤكد ان الكتاب عرض للبيع في اوائل شهر يناير سنة 1605.

وزيادة على ما تقدم لم يقع العثور على النسخة المدريدية التى يزعم صدورها سنة 1604 والتى اثارت اهتمام المصنفين في السيرة السرفانطية.

ونعيد هنا كما قدمنا ان ظهور الكيخوطى عد نجاحا مطبعيا باهرا واعتمادنا في القول على عدد الطبعات التى ظهرت سنة 1605 ولئن شاطرنا بعض المصنفين

في السيرة السرفانطينة اراءهم لعلمنا انها تسع: ثلاث منها في مدريد وثلاث في لشبونة وثلاث في بلنسية.

وقد اشار احد المولعين بالادب الاسبانى وهو فولشه دلبوسك في مقال نشره في المجلة الاسبانية الى التناقض الواقع في الطبعات البلنسية الثلاث التى ظهرت سنة 1605 وهذا التناقض هو نفس الذي حصل في الطبعات التى ظهرت في لشبونة وانما اقتصر على الصورة التى تحلي دفة الكتاب.

ويعتقد كوتاريلو اي موري ان هناك طبعة اخرى ظهرت في برشلونة ولا يمكن الجحد من ان كثيرا من الكتب التى كانت تطبع في مدريد كانت تصدر معادا طبعها في برشلونة في نفس السنة. اما كتب سرفانطيس فهى بعيدة كل البعد من هذا القياس حيث ان رواية «لاغالاطيه» لم تطبع في برشلونة حتى سنة 1618 والقصص المثلى سنة 1613 ولم تعرف طبعة برشلونية «لسفرة البرناس» والمسرحيات والمسرحيات القصيرة» في القرن السابع عشر انما ظهر فقط في مدريد وبرشلونة في نفس السنة المؤلفان المسميان: «برسليس وساخيسموندا وما قيل

في هذين المؤلفين ينطبق على الكيخوطى من حيث ظهوره في هذه المدينة.

وهناك من يؤكد ان طبعة من الكيخوطي ظهرت سنة 1605 في برشلونة استنادا الى ما جاء في مقدمة الجزء الثاني من الكتاب نفسه: وعندي ان ما يربو على 12.000 نسخة قد ظهرت من هذا التاريخ والا فلتتكم البرتغال، وبرشلونة وبلنسية حيث وقع طبع النسخ المشار اليها وعلاوة على هذا فقد شاع وذاع انهم يطبعون منها في امبارس... وقد يكون المؤلف كتب: «برتغال وبروسالس، وبلنسية وصف الصفاف «برشلونه عوضا عن بروسالس» ومن مجرد مقارنة صورة الدفة للطبعتين المدريدتين يظهر انه حيث قيل في الاولى «الكوندي دي بنلكثر وضع الصفاف «الكوندي دي برشلونة» ونجزم ايضا ان الذين يعتقدون ان زوريتا الطباع البرشلوني الذي نشر الكيخوطى سنة 1617 كان قد ابتدأ الصف واتمه سنة 1605 ما زالوا في ضلال.

وتتعلق بنشر الكيخوطي مسالة خطيرة جدا الا وهي: قضية ظهور النشرة الشهيرة المعروفة «بقضية جس النبض» وما دار في خلدنا قط ان مؤلفا مثل الكيخوطي

احرز على نجاح منقطع النظير كان في حاجة الى اعلان ليسترعي انتباه الناس.

والنشرة المشار اليها مع ما فيها من رشاقة وبراعة لاتجاري انشاء الروائي الذي لايقلد بل تدل في حد ذاتها على ان ادولفو دي كسترو كان واقفا على عدد وفير من التعابير والخفايا اللغوية التى كان يستعملها المؤلف المذكور، الا انه كان في الامكان ان تلقى ارتياحا عظيما لو لم يقصد منها جعل مزيج الزنك والنحاس في مقام التبر الخالص الامر الذي قلبها رأسا على عقب وحمل الانفس على الاشمئزاز منها واحدثت جدالا حامي الوطيس بين الذين كانوا يعتقدون انها لسرفانطيس والذين ينادون ويؤكدون بانها خديعة.

اما حكاية هذه النشرة فهي كما يأتي: «يعللون ان الكيخوطي قابله الجمهور ببرودة وان مؤلفه حبا في حث الفضولية واسترعاء الانتباه دفع الى المطبعة نشرة مغفلة الا انها تتوقد براعة ورزانة انتقد فيها صوريا الكيخوطي انتقادا يوضح انه هجاء مفعم بالارشادات والظرافة سعيا وراء استئصال قراءة كتب الفروسية المستفحلة وان الاشخاص وان كانوا صنيع الخيال ليسوا من الخيال في

حد ذاته· الخيال الذي يجردهم من الاوصاف، ففي الكتاب تصوير بعض اعمال كرلوص الخامس الفروسية واعمال الفرسان الذين قلدوه وغيرهم من الشخصيات التي كانت تسير دفة الحكم السياسي والاقتصادي للمملكة. وقد قرأ الكيخوطي الذين دفعوا الى ذلك بروح الفضولية فاعترفوا بفضله واعجبوا به واحسوا بسحر مهارته وتركيبه وبهذه الوسيلة بلغت فكرة سرفانطيس المأرب الذي سعى اليه المؤلف».

ويقول لنا كاسترو نفسه لدى نشره قضية جس النبض سنة 1848 ان المخطوطة من مخطوطات القرن السادس عشر او القرن السابع عشر وانها نسخة لمخطوطة آخرى امليت على اغوسطين دي ارغوتي ابن غونثالو ثاتيكو دي مولينا وانها فيما بعد انتقلت الى حوزة بسكوال دي غندارا ويكتب اخيرا: «ان المؤلف هو لسرفانطيس ويشهد بذلك الاسلوب والبراعة في الانشاء· وانه حافل بالنكات وانه من المؤلفات التي تشرف الظرافة الاسبانية وانه من افضل الكتب التى دبجتها يراع سرفانطيس» وينجم عن ذلك ان القصة مشوشة لدرجة ما اذا اخذنا بعين الاعتبار ان غونثالو دي مولينا توفى قبل سنة 1597 بقليل

دون ان يترك اولادا، وبخصوص الاسلوب نشاطر رودريگث مارين رأيه القائل «ان في وسع اي كان من علمائنا اليوم ان يحدد ـ بلاريب ـ في «نشرة قضية جس النبض» كما يسهل عليهم ان يفعلوه في «العمة المتظاهرة» بعض الحالات الظرفية والتعابير التي لم يستعملها سرفانطيس قط دون ان يخشوا من الوقوع في زلل.. ولا حاجة لكيخوطي سرفانطيس لما يسمى «بقضية جس النبض» لاسترعاء انتباه الجمهور اذ انه طبع ست مرات سنة 1605 ونشر سنة 1607 في بروسالس واعيد طبعه سنة 1608 في مدريد وسنة 1610 طبع في ميلان وسنحت الظروف لمؤلفه برؤيته مترجما الى الانگليزية والفرنسية حيث انه سنة 1612 ظهر في لندن وسنة 1614 في باريس.

وفي بحر القرن العشرين ظهرت نشرة جديدة لقضية جس النض فطبل لهاوزمر على حد التعبير العامى من على اعمدة «الامبرسيال» المدريدية. والغاية منها البرهان على ان تقليد كيخوطي سرفانطيس لالونصو فرنندث دي افياندا هو من تأليف غبريال ليونردو البيون وانطونيو دي ميرا دي مسكووا. وفي حديثنا عن تقليدات الكيخوطي سنلمع الى التى رسمها انسطاسيو

ريبارو صاحب «سر سرفانطيس» وهو عنوان نشرة قضية جس النبض الجديدة. وتحسن بنا الاشارة هنـا الى ان جمهرة من مشاهير الادباء قد اوضحوا انه يتعذر قبول الموضوع والاستدلالات التى جاء بها مؤلف «سر سرفانطيس»

وعلينا ان نبحث في احتمالات نجمت عـن طابـع الناشر خوان دي لاكويسطا الذي ظهر على صورة دفة طبعات الكيخوطي التى صدرت عن مدريد سنة 1605 و 1608 و 1615. وكم شغلت افكار اشيـاع الفلسفـة (السرية) الحكاية التى نصها: «بعد الظلمـات انتظـر النور» وكم اثارت من مماحكات وتبارى الكتاب في تفسيرها واما تعليق دياث بنخومية القائل ان الشارة ترمـز الى الكتاب فلا تستند على شيء من الصحة ولانرى من نسبة بين شارة كويسطا وشعار يهود ليون وجنيف وان صح استعمال يهود البلدين فيما مضى لهذا الشعار الذي يدل على انهم كاسد نائم ينتظرون مجيء النـور او المسيح. اما في اسبانيا فالشارة او الطابع الذي نحن في صدده ما كان له قط هذه الصفة او هذا المغزى وانما هو مجرد تناقل من ناشر الى آخر لهذه الخرافة.

ومن الامور الاخرى التى تنبغى الاشارة اليها ايضا

الاحتمالات العديدة التى مهد لها السبيل كتاب سرفانطيس فمنهم من توهم انه انتقاد لحكومة الدوكى دي ليرما وعند البعض انما هو هزء من الامبراطور كرلوص الخامس، وقد قال قائل انه هجاء مر لمجلس التفتيش الدينى وهكذا راح كل من المؤولين يرى فيه ما يشتهيه ذوقه غير ان كل هذا لم ينل من مجد الكتاب على قدر قلامة. وقد تأكد ان في الكيخوطي وصفا للاعمال الحقيقية والخيالية على حد سواء وان فيه صفحات عن سيرة المؤلف الا ان هذا لايحط من فكرة المؤلف المثلى ولامن درس شخصيتي ضون كيخوطي وسانتشو درسا تاما. اما هذه الاحتمالات كلها والرمزيات فتستحيل هباء امام الاعتبارات القيمة التي يدعى اكتشافها في هذا المؤلف الشهير كل من بولينوس وفياغس فعند الاول ان القصد من تعيين سرفانطيس مكانا لضون كيخوطي في لامانتشا - ومعناها اللطخة - هولاننا جئنا الى العالم ملطخين بالخطيئة الاولى وهى الجهالة ولايسعنا التخلص منها الا بالعمل. والمبارزة والافلاس يمثلان: التعاسة والعوز اللذين يقاسى مرارتهما ارباب العبقرية. وسانتشو هو ذلك الرجل الذى تنعكس فيه صورة الشعب وفي المديرة وابنة اخيه: المجتمع

والعائلة فيذلكالوقت. ويقول لنا كذلك انالمفكر هو ذو شخصية قوية وروحانية وانهرجل واعى الذاكرة نبيه للغاية فلذا يجعل سرفانطيس من ضون كيخوطي رجلا مبكرا اما مرسالا فتمثل الشهرة او الحكمة. ويرمز الى الرومنتية كون ضون كيخوطي بعد دفن كريسوستمو يذهب في اثر الراعية، وخوان هلدودو هو الممثل الرمزى للملكية المستعبدة، وطست الحلاق الذى اتخذه ضون كيخوطي على انه خوذة هو التاج الملكى، «ويقول البطل انه خوذة مسحورة وهو سلاح عجيب ملمعا الى حقيقة معناه، غير ان الخوذة التي ترمز الى السلطة العالمية ما هى سوى طست حلاق على رؤوس الملوك الفارغة» ويواصل المؤلف تعداد كثير من مقاطع الرواية البديعة مع ذكر تاويلات لها.

وعند فياغس انه في بطل «لامانتشا» يتجسد التفكير الحر الاصلاحى وفي سانتشو بنصا الشعب الانانى العامى وفي الكاهن والحلاق الاغراض المخلوقة في النظام الروحى والمادى، وفي دولسينيا الكمال، وفي مرسالا استقلال الكنيسة وما طست الحلاق سوى وسيلة للتحدث عن الملكية، وفي مريطورنيس صورة الكنيسة وفي ضون

فرنندو الملك وعلى هذا النمط يقتفي اثر كافة الاشخاص الذين يلعبون دورا في الرواية.

ولدى مقارنة مؤلف بولينوس عن الكيخوطي بمؤلف فياغس في نفس الموضوع يتضح ان هذا الاخير هو ابن الاول الا ان فياغس يحلل مغزى الكثير من مقاطع كتاب سرفانطيس.

والان ايجوز لنا ان نتساءل بعد درس مؤلفي الكاتبين المذكورين ما يلي: هل للمعنى التأويلي وجود في الكيخوطي؟ اعند ما صمم سرفانطيس على وضع مؤلفه اولا ثم عند ما شرع في كتابته من بعد فكر في المعنى الرمزى الذي عثر عليه الكاتبان المشار اليها؟ أيمكن قبول ما قاله بولينوس من ان سرفانطيس عند ما كتب يقول ان لفيشنتي دى لاروزا ثلاثة اثواب لمح الى سر الثالوث الاقدس؟ وهل يصح ان نقبل رأى فياغس في ان اسواق الحرير في بلد الوليد ان هى الا هيئات تمثيلية لمركز رئاسة اسبانيا الروحية؟ لايسعنا ان نقبل من ان سرفانطيس رسم خطوط هذه الاحتمالات كلها لانه في قبولنا هذا الامر امكننا ان نواصل التفسير فنقول ان الثلاثة او الاربعة اضراس التى فقدها ضون كيخوطى

من جراء قرع الرعاة له بالحجارة تمثل الثالوث الاقدس او الانجيل، ومن بعد ان نرى في قوله ان له في جهة خمسة اضراس يعنى الحواس او قواعد الكنيسة الرئيسية او اسرار الغبطة والالم. ويمكننا بهذه الوسيلة ان نستنتج احتمالات تلائم كل الاذواق، في حين انه لايصح سوى القول ان الكيخوطى لو كان كتابا غايته الوحيدة السخرية من كتب الفروسية لانتهت مهمته على اثر انتصاره على الكتب الانفة الذكر الا ان سرفانطيس لدى تاليف الرواية طفق يكسب اشخاصها شيئا من مشاهداته العديدة في الحياة ويصف اعمالا وحوادث حقيقية وقعت قبل ذلك الوقت بقليل وكان يضيف في كل اونة مخطوطة الى مخطوطاته فيها ما فيها من الحقيقة والتاريخ وما اختبره وعاشه وبات هكذا شيئا فشيئا الى ان اخرج رواية ذات وقائع حقيقية وخلع على اشخاصها الذين هم من صنعته شيئا مما يسمى بالعبقرية الخاصة التى لايقوى على منحها غير الفنانين العباقرة المبدعين وفي عبارة اخرى انه نفخ فيهم حياة. فلذا يثير اليوم الكيخوطى الاعجاب اكثر منه في ايام ظهوره اذ انهم في ذلك الحين كانوا يرون فيه مؤلفا يستهزئ بسائر انواع الادب وانه

يشير الى عيوب تلك المقالات الخرافية وانه يسخر من تلك الورطة التي تخلقها الاعمال الخارقة للطبيعة والتي يمجها الذوق السليم. واما الان وقد تقلص ظل تلك القراءات غير المقبولة فلامندوحة من ان يبقى المؤلف الانساني الاجتماعي الفكري والفلسفي وان يدرس صون كيخوطي الذي يظهر ان مؤلفه تعلم كل ما كان يعرفه لا لانه قرأه في بطون الكتب بل لانه رآه بعيني رأسه ولمسه لمس اليدين وذاق طعمه.



- III -

ابرز شراحه ـ مترجموه
صوره الفنية

لاريب في ان كتابا منزلته كمنزلة الكيخوطي لا يحتاج الى شروح بالمعنى الحقيقي، الا انه لما كان يهجو مقاطع الخيال المحموم التي تقرأ في كتب الفروسية ويذكر اعمالا وقعت في زمانه ارتأى النقاد ضرورة ايضاح بعض النقاط تسهيلا لفهم القارئ وتوجيهه لكي يكون على بصيرة من ناحية سرفانطيس الهزلية.

ففي سنة 1733 ظهر مؤلف عنوانه «سيرة سرفانطيس» للعالم في الادب غريغوريوماينس اي سيكار فيه بعض التعليقات حول الكيخوطي وهي على قلتها، جد مصيبة.

وفي سنة 1780 نشر المجمع اللغوي الاسباني طبعة فخمة للكيخوطي ظهرت في مقدمة الجزء الاول منها توطئة اضافية على نص سرفانطيس بقلم فيثنطي دي لوس ريوس تبحث في حياة ميكال دي سرفانطيس سابيدرا وتحلل الكيخوطي وتتعلق بصورة مباشرة بالمؤلف وبكتابه البديع

وفيما يعود الى هذه النقطة الاخيرة ينبغي اظهار الاسف لكون صاحب هذه الدراسة القيمة اراد ان يرى تشابها بين سرفانطيس وهوميرو واصر على ان ضون كيخوطي مستوحى من الالياذة.

وفي السنة التالية (1781) اخرجت مطبعة ادواردو ايسطون في ساليسبوري طبعة للكيخوطي حافلة بالتعليقات التاريخية الانتقادية التى وضعت انموذجا للدراسات المقبلة لكتاب من طراز كتاب سرفانطيس. واما الناقد واسمه بوولي فقد احتفظ لنفسه بكافة العيوب التي يمكن ان تحصى في هذا المضمار الامر الذي لم يحل دون اكتسابه شهرة عظيمة اذ كان قد شرع قبلا في دراسة اللغة الاسبانية وبعد ان طالع عددا وافرا من كتب الفروسية وقرأ الكثير من الكتاب المعاصرين لسرفانطيس، تصدى للعمل فشرح مقاطع من كتاب الكيخوطي، كما شرح غيره من المؤلفات ويتضح انه عرف باماكن عديدة من كتاب سرفانطيس كان قد سبق ذكرها في كثير من الكتب التي لاشك لم تكن غريبة عن صاحب الكيخوطى.

وبعد انصرام ست سنوات على نشر شروح بوولي الشهيرة، ظهرت طبعة جديدة لمؤلف سرفانطيس الذائع

الصيت مصحوبة بتعليق اكثر اسهابا من شروح بوولي غير انه تنبغي الاشارة الى كون التعليق الجديد مستقى من الاول والى كون صاحبه خ. ا. بليتر تمكن من الاطلاع على محفوظات المكتبة الوطنية تسهيلا لعمله ومع هذا فالمواد الاولية هي من تمهيد الناقد الباحث الانكليزي ولا خلاف في انه زاد شروحا تتعلق باللغة الافصاحية الشيء الذي لم يأته بوولي وانه حور بعض الافكار التي ابداها الاخير ولكن يصح الاعتراف بان الاسبان لم يشعروا بضرورة البحث العلمي في بحر هذه الرواية الخالدة الخضم وسبر لججه الا بعد ان قام انكليزي وتصدى لهذا العمل الجبار الوعر الا وهو التعليق على مؤلف سرفانطيس سيد وامير الكتاب الاكبر، فعمل بليثر يعد خطوة موفقة لاحراز تعليق لائق على الكيخوطي.

وسنة 1819 نشرت في مدريد طبعة جديدة للكيخوطي اصدرها المجمع اللغوي الاسباني واصدر كتابا آخر عن سيرة ميغيل دي سرفانطيس سابيدرا لفرنندث دي نفريتي فيه كما لايخفى شيء عن ضون كيخوطي.

ونشر سنة 1826 اغوسطين دي اريتيا عضو المجمع اللغوي الاسباني تعليقات جديدة على كتاب سرفانطيس

الا ان شروحه نسخة عن شروح بليثر او عن شروح المجمع نفسه بيد انه من حين الى آخر تظهر بعض تعليقات من بنات افكار الشارح ومع هذا فيمكن الجزم بانها عديمة الفائدة.

وبرغم الشوائب التي تظهر في شروح كيلمنثين يمكن، التوكيد بجرأة انها حتى يومنا هذا من خيرة ما كتب في هذا الصدد وهى اوسع ما حرر في ذلك الوقت وقد اقتفى الناقد اثر بوولى وبليثر واتبع خطة الاول في دراسته كتب الفروسية ولنا ان نقول في انه افضل من علق على الكيخوطي واستفاد من رواية القرون الوسطى. ومن افدح عيوب هذا الناقد تماديه في ذم اسلوب سرفانطيس ولربما كان يريد منه ان يكتب وفقا لقواعد معينة وهو من الامور المستحيلة في ذلك الزمن الذي انما كان يقوم فيه بتمثيل دور المخضرم ولقد برهن جمهرة من النقاد على ان اراء كليمنثين في سرفانطيس كانت جد مجحفة.

ثم بينما كان كتاب كليمنثين في طريق النشر ظهر في برشلونة سنة 1834 مجلد تحت عنوان «شروح جديدة لكتاب سرفانطيس» لصاحبه: ث. خ. بسطوس اى

كريرا وقيه تعليقات نزيرة الابتكار تحبو وراء شروح بليشر الا انها لدى تعرضها لاعياد الفروسية والبراز الخ... تعود فتنفض عنها غبار الخمول وترتقي الى حيث لاجمود، ولو لم تظهر ابحاث بوولى وبليشر لكان لابحاث بسطوس مقام جليل ولكن بظهور اعمال البحاثين لم يبق من سبيل للنكران بان هذا الاخير قد غرف من مواردهما على قدر المستطاع.

وطلع الاستاذ فرنسيسكو سالس فرير من جامعة هرفرد سنة 1836 بطبعة للكيخوطي صادرة عن بسطون نقل مواردها عن بليشر وكليمنثين وغيرهما واضاف بعض الشروح التي تتعلق فقط بعبارات قديمة الاستعمال

وسنة 1847 صدرت عن مدريد طبعة للكيخوطي من تصحيح وتعليق مرتينث دلروميرو، نذكر في سياق البحث ما قاله فيها رويس في معرض الحديث عن الشروح والذيول: «اما شروح السيد مرتينث دلروميرو فلاتخلو بصورة عامة من الفائدة بل انها تستحق ان توخذ بعين الاعتبار وتوزن بميزان التقدير لان احدها يشير الى عدة نقائص وحيل ندد بها سرفانطيس ساخرا كمسالة

العرافين وغيرها من الوساوس وتشرح بعض العبارات العربية والتعابير الغجرية والطليانية واماكن ومدلولات جيء على ذكرها في الكيخوطي.

وما اكبر حجم العفش السرفانطي لخوان هرتزنبوش في شروحه وذيوله للطبعات الصادرة عن ارغماسيا دي البا سنة 1863، وشروح ظهرت في الطبعة الصورية التي اصدرها لوبيث فابرا عن برشلونة سنة 1871 وما نشر في المجلات والصحف يدل على ان هناك شروحا كثيرة ماعداها تتعلق بالقصة الخالدة، ويظهر ان لوبيث فابرا كان مولها لحد الجنون باصدار ونشر شروح للكيخوطي وما يشهد على صحة ذلك انه ظل ينشر الشروح حتى آخر ايامه على الرغم من الذيول الوافرة التى تقدم ذكرها واما التي ظهرت في المرحلة الاخيرة من حياته فجلها تصحيحات لما سبق نشره. فهكذا كانت تظهر في مجلة الاتنايو الاشبيلية ومجلة سرفانطيس المدريدية تصحيحات على التعليقات التي ربما كان دافع عنها بحرارة لسنوات خلت، ومن الافضل ان يقرأ كتاب سرفانطيس على ما فيه من الشواذ والاخطاء الصرفية التي المع اليها مليانس من ان تمسك طبعة الكيخوطي المهشمة التى تولى

تصحيحها هرتزنبوش لوفرة اخطائها التي تسمح بتبويبها الى رديئة وعادية وجيدة وقلما عثر ـ لسوء الحظ ـ على هذه الاخيرة، لقد اعمل مبضع تصحيحه في كتاب سرفانطيس بشكل فظيع، حذف وزاد ما لم يخطر قط ببال بل ولا يحتمل ان يمر في مُخيلة المؤلف في وقت من الاوقات ولاينكر عليه انه كان صائبا في تصحيحه المقطع الذي يشير الى حادثة سرقة خينس دي بسمونتى لروثينو فهذا امر عديم الاهمية اذا ما قيس بالشطط الفادح لدى ابتكاره يوميات البطل المنتشاوي وتصديقه لخرافات سجن ارغماسيا.

اما بحث نقولاس ديث بنخوميا كنقاد «سرفانطى» فيعد في الذروة العليا فهو اول من تفرغ للتعليق الروحى على الرواية بجد ونشاط لم يجاره فيهما احد من قبل وهو المجلي في اكتشاف الغامض او الرمز الذي شغل افكار كبار الكتاب مدة من الزمن دون ما طائل واثار كثيرا من المماحكات الادبية دون ما جدوى وهو الذي كافح في سبيل انزال وغرس هذه الفكرة الى ان استقرت وتحولت الى مدرسة اقتبس تعاليمها المبرزون من تلامذته مثل بايول وفياغس، وله في هذا الصدد منشورات ذات

قيمة علمية لاتقدر. ونشر مقالات ممتعة في المجلة الاسبانية سنة 1878 ـ 1879 لها صبغة الانتقاد على الابحاث السابقة والشروح التي تقدمت. وبعد ان فرغ من كتابة سلسلةهذه المقالات في المجلات الشهيرة في مدريد وبرشلونه ختم بحثه بنشرة موفقة تحمل العنوان التالي: «ذيول للشعور الروحي في الكيخوطي» كان صدورها عن برشلونة سنة 1880. وفي شأن هذه الذيول قال احد مشاهير النقاد: «يمكن للولوعين بالكيخوطي ان يروا ويتصفحوا بحثا لو جرد مما فيه من رمز خاص غريب اراد ان يعثر عليه البحاثة القدير في القصة الخالدة لوجدوا فيه الشيء الكثير مما يستلفت النظر ويثير الاعجاب ويبعث على الاكبار لشخصية ديث بنخوميه الذي درس الكيخوطي وتبحر فيه ممعنا.»

ويصح التأكيد انه حتى سنة 1905 لم تظهر طبعة للكيخوطي ذات شروح وذيول لائقة يمكن ان تضاهي ماجاء به الباحثون في اول العهد وهذه الطبعة التى نشرت في الذكرى المئوية الثالثة لنشر الكيخوطي هى من ثمرات مجهود كليمنتي كورتيخون الذي وان كان قد انتقد ابحاث كليمنثين وهرتزنبوث فقد امتدح شروح

بوولى وبما ان النقد كان قد قطع شوطا بعيدا بفضل الابحاث القيمة التى قام بها المولعون بسرفانطس فقد جنى لحساب بحثه أثماره اليانعة واذا بمؤلفه أوفى الابحاث التى نشرت الى ذلك الحين وأغزرها مادة. ولا تقتصر أهمية هذه الطبعة على الشروح فحسب بل تتعداها الى المقدمات والتوطئات والابحاث الموفقة التى أوضحت نقاطا هامة تتعلق بنص القصة الخالدة. ولم يتمكن المؤلف من رؤية عمله جاهزاً تاماً لان يد المنون كانت قد عاجلته عند شروعه في كتابة الجزء السادس والاخير من مجموعة أبحاثه.

ومنذ ذلك الحين أخذت تتوالى الطبعات المشروحة شرحا صائبا نوعا الا ان أصحابها كانوا يكتفون بالاخذ بعضهم عن بعض وقد تستثنى الطبعة الصادرة عن مدريد سنة 1911 لفرنسيسكو رودريگث مارين الذى رغم استفادته من أبحاث من تقدموه لو قوبل درسه بدروسهم لفاقها دقة وسبكا. ولقد أصدر هذا البحاثة فيما بعد أى سنة 1916 علاوة على طبعتين كان قد نشرهما آنفا الثانية منهما كتصحيح للاولى، درسامن أفضل الدروس قيمة يدل على انه من عارفي سرفانطس واسرار كتابه الشهير.

والى هنا نكتفى بهذا القدر من النقد الذى ظهر في اسبانيا حول الكيخوطى الا اننا سنتحدث عن النقد الذى دبجته الاقلام الاجنبية وله علاقة بمؤلف سرفانطس ومع هذا فتبقى الاشارة الى نوعين من هذا النقد الذى بات مداره الكيخوطي: النوع الذى خصص لدرس الشكل والنوع الذي كرس لبحث الموضوع. اما الاول فقد شاع في اسبانيا لتعلقه باللغة والتعابير وأسلوب المؤلف والثانى يتصدى لاشخاص الرواية وهو النوع الـذى نعثر عليه بوفرة في الخارج.

وبين الطبعات الانكليزية التى ينبغى علينا ذكرها رغم عدم احتوائها على تعليقات مسهبة وانما فيها دروس قيمة كمقدمات اجمـالية لكتـاب سرفانطس نذكـر أقدمها ألا وهى الطبعة التى ظهرت في لندن سنة 1742 مصحوبة بتعليق موجز لخارفس، وطبعة اسمولت (لندن سنة 1753) غير ان كثيرا من شروح هذا مستقاة من ذاك، والشروح التى أضافها لوكهرت (ايدمبوغ سنة1822) هى شروح قيمـة ومفيدة الا انهـا مـأخوذة عن بليثر والمجمع اللغوى الاسبانى. والبحث الذى قام به آ. خ. دوفيلد جيد وشروحه كما ذكر على دفة الطبعة الصادرة

عن لندن سنة 1881 مأخوذة عن بوولى وبليشر وكليمنشين وغيرهم ولكن شروحه الخاصة تدل على حسن ذوق ومعرفة لا يستهان بهما لكتاب سرفانطس . وسنة 1888 ظهرت طبعة جديدة للكيخوطى في لندن ترجمة واتز ولا نقصد من ذكره هنا كمترجم بل كبحاثة لان دروسه المدرجة في كل جزء مثل الفصول المخصصة للمنتشا ولاماديس دى غولا ولعبور سويرو دى كينيونس المشرف ولتاريخ ضون كيخوطى ولخرافة رولدان ولسحر مرلين ولغيرها كل هذه من الامور الصائبة التى تبرهن على مقدرة هذا المؤلف العلمية وتدل على سعة اطلاعه . وتنبغى الاشارة ايضا الى البحث القيم الذى قام به اورمسبي والذى ظهر في صدر الطبعة اللندنية سنة 1885 . وكل ثناء يوجه الى شخصية جيم فيتزمورس - كلي، قليل ففى سنة 1898 ظهرت طبعته القيمة لكتاب سرفانطس مرفوقة بالنص الاسبانى ومصححة تصحيحاً جيداً يشرفه ويجعله في مقدمة الباحثين الانكليز الذين تفرغوا لدراسة سرفانطس فاصابوا.

اما في فرنسا فحتى أواسط القرن التاسع عشر لم تظهر طبعات فرنسية تستحق الذكر. ولا قيمة للملاحظات

التى تقرأ في صدر ترجمتي فليو دي سان مارتين وفلوران. ومع هذا فتنبغى الاشارة الى ان في الطبعات الاولى الصادرة عن باريس بعض الشروح لتنوير القراء ومثال هذا ان المترجم يصطدم بعبارة قد غاب عنه معناها أو لانها من تعابير الغجر أو لانها قليلة الاستعمال فيترجمها حسبما يستطيع وعلى الهامش يورد النص الاسبانى أو ترجمة تقريبية ، واذا وقع على تعبير عامى أو مثل أو تلاعب في الالفاظ عسرت عليه ترجمته أعطاه المعنى المقارب وفقا لما يمليه عليه ذوقه وعلى الهامش وضع النبذة الاسبانية أو ترجمتها الحرفية بعد شرح المعنى بأحسن الطرق وأقرب الوسائل المستطاعة لديه.» وعلينا ان نذكر انه تقرأ شروح للاماكن وللعادات. ولدوبورنيال مترجم كتاب سرفانطس المطبوع سنة 1807 بعض المقاطع التحليلية التى يمتدح فيها صاحب المؤلف الاسبانى الا انه لما عاد فطبع ترجمته سنة 1821 صدرها بمقدمة قابل فيها بين الكيخوطي والاليازه وقد أوحى اليه هذا ما فعله ريوس في الطبعة الاسبانية التى طبعها المجمع اللغوى الاسبانى سنة 1780 وقد أبدى دى لونوا بعض الملاحظات وأردفها بالتعليقات على هذه الترجمة المطبوعة في باريس

سنة 1821 . وبعد سنوات أى عام 1826 ظهرت في نفس هذه العاصمة طبعة جديدة تتعلق بحياة سرفانطس ومؤلفاته من ثمار بروسبر ماريمه وفي شروحها التى تشير الى ضون كيخوطى فائدة لابأس بها الا انها تتطلع الى شروح بليشر.

ويمكن القول انه حتى سنة 1836 لم يتوصل الفرنسيون الى درس قيم حول الكيخوطي . والمؤلف الاول من هذا النوع هو من منتوج لويس فياردو وعنوانه: «اخبار عن حياة ومؤلفات سرفانطس» تقدم على الترجمة التى أصدرها هذا المؤلف لكتاب العبقرى الاسبانى ولمنتوجته قيمتها في عالم الادب نظراً لدقة سبكها وغزارة مادتها ولا ينكر انه في كتابة سيرة سرفانطس استعان بأبحاث ميانس وبليشر وفرنندث دى نفراتي وفي كتابة الشروح على نص ضون كيخوطي استنجد ببوولى وبليشر وكليمنثين الا ان هذا لا يحول دون الاعتراف أو الاشادة بمؤلفه. وأما المترجمون الالمان وأصحاب المطابع فلم يبرزوا في نشر طبعات ضون كيخوطي ولا بما احتوت عليه هذه من شروح وتقرأ الابحاث التي دارت حول هذه الرواية في المقدمات لا في الذيول المضافة

على متن الكتاب وجلها ان لم نقل كلها لا تسترعي الانتباه.

واما الطبعة الايطالية التى ظهرت سنة 1622 ففيها بعض الايضاحات للنص كالتي تحدثنا عنها في الطبعات الفرنسية الاولى لضون كيخوطي ولم ينشــر فيمــا بعد اي كتاب اضافي.

وفي بقية اللغات الاوربية خصص اقل من القليــل من البحث المجرد المقتصر على متن ضون كيخوطي واما الابحاث التي نشرت فكانت تحلــل كتاب سرفانطيس من الوجهة العامة دون ان تتعرض الى تفاصيل القصة.

واستنادا الى ما تقدم يمكننا ان نقول ان نشر الكيخوطي يعد نجاحا مطيعها باهرا سواء كان فيه شيء من الفلسفة ام لا وسواء كان هجاء قارسا ضد كتب الفروسية او انه مجرد كتاب يشير الى كيف ينبغــى ان تكون تلك المنتوجات الادبية. ولقــد تسنى لمؤلــف ضون كيخوطي رؤية ترجمتين لكتابه الشهير واتيــح للانكليز والفرنسيس معرفــة اعمــال البطــل المتشاوي بلغتهم. ويخبرنا فيتز مورس–كلى كيــف ان انكلتــرا كانت اسبق الامم الى ترجمة الكيخوطى عند ما كتب:

ان كتالينا دي اراغون لدى تزوجها من هنري الثامن استصحبت الى جامعتى اوكسفورد ولندن عددا كبيرا من العلماء الاسبان الذين انشأوا التبادل الروحى والثقافي بين البلدين».

ولاريب في ان اول امة ترجمت الكيخوطى الى لغتها هى انكلترا وذلك سنة 1612 اما اذا حكمنا على ترجمة شلتون اليوم فقد نجدها كثيرة العيوب تنقصها الرشاقة وفي بعض المقاطع يسود الالتباس فيتعذر فهم النص الحقيقى ولكن لورجعنا القهقرى الى ذلك العصر لوجدنا ان المترجم الانكليزي قد قام بعمله ولقلنا انه من الذين يثنى على امانتهم اذ انه قد ترجم الامثال والحكم والاشعار حرفا بحرف. ويقول لنا احد مشاهير الكتاب الانكليز المولوعين بسرفانطيس وادبه وهو دوفيلد: «ان شلتون كان رجلا ذا صبر محبا للعمل كثير الحماس لكتابه». ويكتب بعد هذا بقليل فيقول: «ان افضل الوسائل لانعكاس النور هوالزجاج الذي يسمح برؤية الامور بجلاء وصفاء فهذا ما ينطبق على شلتون نظرا لتواضعه وامانته وهو حتى يومنا هذا افضل المترجمين الانكليز واجودهم

في نقل ملاحة وجمال الكيخوطى ومع هذا فشلتون اليوم لايقدره غير الدارسين الماهرين».

ونقول بعد ان نضرب صفحا عن ذكر عدد وافر من المترجمين الانكليز وعن الترجمات المختصرة المعدة للمدارس الاولية ان افضل ترجمة ظهرت اخيرا في انكلترا هى ترجمة ر. شميث، صدرت عن لندن سنة 1914.

ولئن كان عدد المترجمين الانكليز ضخما فلا يقل عنه عددهم في لغة راسين وموليير. وقد كان اولهم اودان كاتب ملك فرنسا، الذي ترجم ترجمة حرفية كثيرا من المقاطع واتى في غيرها على ذكر فكرة المؤلف بصورة اجمالية وبين اسلوب اودان المترجم للجزء الاول الصادر عن باريس سنة 1614 وبين اسلوب روسه مترجم الجزء الثانى بون شاسع. وظلت ترجمة الاثنين تظهر حتى سنة 1677 تاريخ نشر ترجمة فليو دي سان مرتين التى احرزت شهرة واسعة واعيد طبعها مرات ومرات وقد شاعت في غضون القرن التاسع عشر شيوعها فيما مضى فاختصرت واتخذت منها نصوص موجزة. ونغفل هنا ذكر اسماء الكثيرين من المترجمين لنقول انه سنة 1821 اصدر

دي لونوا ترجمة لاتخلو من العيـوب الا انها اذا مـا قيست بالترجمات التى تقدمت لاعتبرت افضل منها.

وفي سنـة 1826 اخرجت مطبعة ديبوشه وشركـاه الباريسية ترجمة تنم عن خطوة واسعة في هـذا المضمار ومن رشاقة وظرافة اسلوبها اتضح انها لفياردوت وبالرغم من الانتقادات التى وجهث اليها شكلت نجاحا عظيمـا واعيد طبعها مرارا ولاتزال تطبع حتى اليوم. ولايجمل بنا السكوث عن ترجمـة ظهرت سنـة 1847 في باريس لداماس هينارد تستحق كـل تقدير واعتبار برغم صحـة استنجاد صاحبها بمقاطع من ترجمة فيادورت.

وصفوة البحث يصح ان نقول في الترجمات والمترجمين الفرنسيين ما قدمناه عن زملائهم الانـكليز ولئن سبـق اولئك هؤلاء

واما الترجمة الاولى للـكيخوطى في الالمانية فيرجع تاريخها الى سنة 1621 لصاحبها فون درشوهلى وليست من الترجمات الـكاملة بل مقاطع مؤلفة من 22 بابـا، وحتى سنة 1669 لم تعرف سوى ثلاث ترجمات لـكتاب سرفانطيس، وبعد سنوات قليلة ظهرت ترجمةاخرى تحمل الحروف الاولى من اسم صاحبها خ. ر. ب. وهى وان لم

تكن تامة فمقبولة وتنم على ان صاحبها كان جاهلا باسرار اللغة الاسبانية، وظهرت سنة 1734 في لبزغ ترجمة جديدة ذات توطئة قيمة تقابل بين متن الرواية والترجمات المتداولة وقد استعان صاحبها الذي اغفل ذكر اسمه بالترجمة الفرنسية لفيلو دي سان ـ مرتين. وحتى سنة 1775 لم تظهر في المانيا ترجمة يصح ان يقال فيها انها كاملة او مقبولة ومن حقنا ان نشير الى ان هذه الترجمة التى طلعت في هذه الحقبة لم ترض النقد لانها علاوة على حذفها مقاطع من الكيخوطي تتصرف تصرفا بعيد المدى في نقل التعابير فتكون ترجمة برتوش وهو اسم صاحبها، غير وافية الا انها تفوق بمراحل الترجمة الصادرة سنة 1734، وفي وسعنا ان نؤكد ان الالمان لم يحرزوا على ترجمة ضافية للكيخوطي حتى سنة 1799. فلو نظر الى ترجمة تييك نظرة مجردة لوجدت انها لاتستحق الاطراء البالغ الذي خلعه عليها شلجل كما انها لا تستأهل الانتقاد المر اللاذع الذي وجهه اليها هين اما الترجمة فلم تكن صائبة على طول الخط وقد وقعت في نفس الهنات التى تزحلق فيها فون درشوهلي مثل جعل اسماء العلم في مقام النعوت

واسماء الجنس الا انها من جهة اخرى تستوعب اصابات موفقة مـن حيث ترجمة الكتاب بفصه ونصه تدل على سعة اطلاع على خفايا اللغة الاسبانية اكثر من الترجمات الانفة الذكر. وظهرت سنة 1819 ترجمة ليوتز يضاهي اسلوبها من حيث الرشاقة اسلوب تييك وتفوقها امانة، وطفقت تترى الترجمات الى ان ظهـرت سنـة 1884 ترجمتان الاولى لبرونفلز جد امينة خير ما فيها التوطئات او البحث الانتقادي الذي صدر به مؤلفه، والثانية تصحيح لترجمة برتوش بقلم ولزوجـن.

وفي اللغة الايطالية ظهرت ترجمة الكيخوطي الاولى سنة 1622 بقلم لورنزو فرنشيوزيني ومقامها كمقـام ترجمات شلتون الانكليزي واودان وروسه الفرنسيين وبالرغم من التحويرات الطفيفة التى ادخلها المترجم في متن الرواية فترجمته جديرة بكل تقديـر. وسنة 1818 ظهرت ترجمة جديدة مقبولة لكتاب سرفانطيس لبرطولومه غمبا، تحيد في مجموعها عن نص القصة وتقل عن ترجمة فرنشيوزيني امانة الا ان اسلوبها ارقى وابلغ، ومن ميزات غمبا ايضا ترجمة الاشعار التي في كتاب سرفانـطيس،

ثم صحح هذه الترجمة واعاد نشرها في ميلان سنة 1840 فرنشيسكو امبروسولي.

ونشير كذلك الى الترجمات المعدة للاطفال التي قام بها المانزي ودي سان جيستو.

ويلي الترجمات الايطالية حسب الترتيب التاريخي الترجمات الهولندية والروسية والدينماركية والبولندية والبرتغالية والسويدية والمجرية والرومانية واليونانية والتركية والبلغارية والاسبرنتية واليابانية والهندوسية والعبرانية والنروجيةوالقطلونية الخ..

وفي معرض الكلام عن ترجمات الكيخوطي الى اللغات الحية تنبغى الاشارة الى ترجمة عربية موجزة منقولة عن الكتب المدرسية الفرسية بقلم عبد القادر رشيد طبعت في المطبعة السلفية بمصر عام 1341 امامن حيث قيمة هذه الترجمة فيكفى ان نقول انها مكتوبة بلغة صحيحة وتقع في مئة وخمسين صفحة من القطع الربع دتخللها صور تكاد تستغرق نصف الكتاب على صغر حجمه.

صور الكيخوطى الفنية

لئن كان ضون كيخوطي يفتح ميدانا واسعا امام ارباب الاقلام لاينضب معينه فالمجال الذى يفسحه للفنانين لايقل عنه رحابة ، فصورة البطل تحمل على اعمال الفكر منذ اللحظة الاولى وان كان سرفانطيس قد وصف بعض تقاطيع سحنته فكل قاريء يتصوره ويتوهمه حسب ما تملي عليه مخيلته فمن القراء من تخيله بلحية ومنهم بدون لحية وبشوارب مسترسلة وغيرهم تصوره اسبل او مجزوز الشارب وان اتفقوا جميعا على انه قاحل، وما قلناه في المشاء او الرحالة يصح ان يقال في حامل درعه او مرافقه الامين. وكم شغلت من افكار لحيتا السيد والخادم! ولو تسنى لنا مشاهدة اللوحات التي اعدتها ريشة الفنانين من اسبان واجانب لتمثيل هاتين الشخصيتين لاخذتنا الدهشة ولتأكدنا ان ما من لوحة او رسم عرض في المعارض المختلفة نال شرف الفوز في مصادفة التقاطيع المناسبة لشخصتى ضون كيخوطي وسانتشو كالتي يتصورها القاريء من بحر هذه القصة الخالدة بلغتها الاصلية

ويؤكد هذا ما قدمناه من ان كل قارئ يتصوره تصورا مخالفا لتصور الاخر.

واما الصور التي تشاهد في كتاب سرفانطيس الخالد فهي تلك التي ازدانت بها الطبعات التي صدرت سنة 1605 عن لشبونة وبلنسية الا ان النماذج لم تصنع بطريقة خاصة لهذه الطبعات كما ان الرسم الذي ظهر على دفة الطبعة البرشلونية الصادرة سنة 1617 لم يكن مصنوعا لها وانما صنعا للطبعة الثانية التي صدرت عن لندن في نفس السنة وفي السنة التالية نقل هذه الصورة صاحب الصورة التي ظهرت على الطبعة الفرنسية الصادرة سنة 1618. ففي هذه الصورة يبدو ضون كيخوطي وقد لحق به سانتشو والى الوراء جوفا على رأس الجبل مطحنة هوائية. وقد كتب الرسام الشهير ج. ل. بليثر: «ان هذه الصورة التي نقشت من الخشب قد جاءت بديعة للغاية وبغض النظر عن سذاجة الرسم الظاهر في الركوب تجب ملاحظة قسمات الشخصين في هذه اللوحة التي تختلف اختلافا بائنا عن القسمات التي حددت لكل منهما، فضون كيخوطي فارس شريف وذكي واما سانتشو فليس بذلك الرجل البدوي الخشن الجلف المتعارف عند

العامة، ان نظرته لثاقبة تتوقد فيها المهارة ومظهره ينم عن سخرية ماكرة ومن هندامه بصورة اجمالية يبدو كانه رفيق لسيده. ولولا الخوف من ان يعزى لوهم غير مقصود او لقصد سبق تصوره لاكدت ان رأس ضون كيخوطي ليذكرني بشكسبير كما وانني رأيت في في قسمات سانتشو قسمات جون بول وقد اختلقتها فكاهة الفنانين الانكليز .

وظهرت سنة 1657 في امستردام ترجمة هولندية فيها 22 صورة من صنع احد الاخوين سفري ويتضح من مجرد النظر الى شخصيتي ضون كيخوطي وسانتشو ان صاحب تلك الرسوم ليس باسباني. وانتقلت لوحات الطبعة الهولندية سنة 1663 الى بروكسيل فاستعان بها الطابع وكلف بوطانس ان يصنع له صورا اخرى يزين بها الكيخوطي الذي سيصدر عن مطابعه، وهكذا كان، فاذا بصور الطبعة البلجيكية تصلح لغيرها من الطبعات.

وصدرت عن لندن سنة 1687 طبعة انكليزية فيها ثماني صور لم تحمل اسم صانعها الذي لم يحسن تخيل هيئة النبيل الشهير بطل رواية سرفانطيس والى جانب كل هذه الطبعات التي ظهرت في هذه الحقبة، صدرت

عن لندن سنة 1700 طبعة صورها تفوق صور الطبعات المتقدمة وتعد خطوة موفقة جاءت لتحلى كتاب سرفانطيس.

واما الطبعات التي ظهرت في غضون القرن الثامن عشر فهى افضل الطبعات التي عرفت لحد الان من حيث الاتقان والابداع في الصور ولنا ان نمتدح رسوم كويبل التي لاريب كان ظهورها سنة 1725 او 1724 وكذلك الطبعات اللندنية التي صدرت بين 1738 و1712 والطبعة الممتازة التي اخرجها المجمع اللغوي الاسباني سنة 1780 في مدريد.

اما كويبل فقد صنع 25 لوحة عن ضون كيخوطي لتزيين قصر كومبنيه الملكي وقد استحالت هذه اللوحات فيما بعد بقليل الى بسط واعتنى الرسامون والمصورون الفرنسيون بعد ذلك باعادة نسخ هذه البسط لتزيين الطبعات الفرنسية العديدة.

وافضل هذه الطبعات الطبعة الاسبانية المقدمة الى الكوندسا دي مونتيخو وقد ارفقها صاحب التقدمة بهذه العبارات: «لاشك في انك تغضين الطرف عن العيوب التي قد تعثرين عليها في الصور سيما وان الطبعة صادرة عن بلاد اجنبية حيث يتعذر على المبدعين الاطلاع على

الازياء الاسبانية وغيرها من الامور التافهة تمام الاطلاع والتي قد تجدين فيها بعض النقص». ولئن كانت الصور فائقة تثير الاعجاب فقد نقصها اللون المحلي وهذا مما يسهل فهمه اذ انها تحس وتنطق بما في البيئة الانكليزية من حياة والوان لحد يقال معه ان رأسضون كيخوطي في اللوحة التي تمثله وهو يطالع تذكرنا بهيئة شكسبير في شيء من الابهام.

واما الطبعة الانكلزية التي ظهرت سنة 1742 فقداخذت صورها عن الطبعة الاسبانية الصادرة سنة 1738. والطبعة الاسبانية التي خرجت في مدريد سنة 1784 تحت رعاية المجمع اللغوي الاسباني تشرف كل من ساهم في اخراجها فصورها بديعة خارقة ساهم في رسمها اشهر الفنانين الاسبان على الاطلاق. وقد يقال ان الفنانين لم يهتدوا الى خلق البطل المنشاوي فمثل هذا يصح ان يقال ايضا في اعظم فناني العصر التاسع عشر، ففريق منهم جعله دائما ذا قامة طويلة وفريق آخر لم يراع التوازن في رسم اعضاء جسمه. ولقد قال المجمع اللغوي في تصدير طبعته انه من اجل التصوير استلهم الرسوم والصور العادية اي انه التجأ الى الصور التي من عهد سرفانطيس

لتكوين فكرة عن الملبوس والتجأ الى سلاح الملك لتكوين فكرة عن المعدات الحربية.

وفي الطبعة الرابعة التى اخرجها المجمع اللغوي الاسباني في مدريد سنة 1819 صور لسرفانطيس ذات قيمة ومع هذا فقد قصرت عن الصور التي في طبعة سنة 1780 وهذا لايعنى خلوها من الصبغة المحلية وسنة 1826 ظهرت في فرنسا طبعة من كتاب سرفانطيس مزينة برسوم بريشة طونى جوهانو رغم ما فيها من عيوب فنية صادفت ارتياحا عظيما واعبد طبعها مرات في مختلف البلدان الاجنبية واغدق عليها النقد المدح والثناء. ومن افخم الطبعات التي ظهرت للكيخوطي سنة 1859 الطبعة البرشلونية تقع في جزئين، وساهم في رسومها الفنانون الاسبان، والطبعة التي خرجت في باريس سنة 1863 رسومها لغسطافو دوره وسرعان ما تحولت لوحاته الى ضرورة ماسة لسائر الطبعات الفخمة. فاعيد طبعها في اسبانيا، والمانيا، وايطاليا، وانكلترا، وروسيا، واميركا، فلوحاته هذه تصون في صورها جلالة الفن والعبقرية رغم انها لم تتوفق الى خلق بطل سرفانطيس.

ويكتب سنة 1873 طوماس مرتينث في مؤلفه «بعض

معلومات لتزيين الكيخوطي بالرسوم، ان كتاب سرفانطيس «لم يلق حتى الان الفنان الذي يفهمه ويعرض تماما بواسطة قلمه ولوحة تصويره الخلق الحقيقي للبطل المنتشاوي. أيقوم هذا على ان المؤلف لم يصفه وصفا موافقا؟ كلا وانما سبب الخطأ في عدم اجادة تصويره هو ان الفنانين الذين اعتنوا واهتموا بذلك انما افرغوا جهدهم في تصويره رجلا قاحلا وعندي ان في الكيخوطي شيئا اكثر من هذا وحده، وهو التمثيل لوسواس عصره وجنونه جنونا محموما بكتب الفروسية التي افرغت خلاصتها كما ينبغي في رجل معتوه له من هذا القبيل ثقافة تعلو على الحد الوسط، يقع في حيرة عند ما يتكلم او يفكر او يحترف هذه المهنة الوهمية» ولقد اصاب الناقد، فالرسامون والمصورون والنحاتون لم يتصلوا اتصالا مباشرا بشروح الكيخوطي عند ما ارادوا ان يخرجوا على لسان الفن احد الموضوعات التي يوحي بها كتاب سرفانطيس، فمن تحصيل الحاصل ان يتقلب خلق المشاء الشهير وفقا للمواقف والمقاطع وان كان الفنانون قد رسموه قاحلا فهذا لا يعني انهم قد اصابوا في تمثيل السويداء التي كانت مستحوذة عليه

بشكل دائم ولا توفقوا الى اخراج روح الكبرياء والفروسية التي ما كانت لتفارقه لحظة واحدة، وما اعظم الفرق بين موقفه وهو يقول في قلب بادية المانتشا: «ما اسعد ذلك القصر وما ايمن تلك الايام»...وموقفه الاخر اذ يقول: «لاوجود للعصافير اليوم في اعشاس الامس» وكم يختلف خلق البطل في هذاعنه في موقفه وهو في الفندق يجادل ويؤكد ان طست الحلاق انما هو خوذة ممبرينون وعن موقفه في دار الدوكي وهو ممعن في مجادلة الكاهن. ويقول اونامونو: «ان قوة الحقيقة في ضون كيخوطي توجد في نفسه الاسبانية والانسانية وفي حقيقة صورته التي تعكس مثل هذه النفس». ولكن قد يسأل سائل: أعلينا ان نستخرج نفسه من هيئته أم هيئته من نفسه؟ ويضيف ان من قسمات وجهه وخلقه الطبيعي يمكننا بواسطة مزاجه ان نلمح شيئا اكثر من حقيقة نفسه، الامر الذي يجيب عليه ضون كيخوطي ذاته لدى وصفه في الباب الاول من الجزء الثاني ملامح اماديس وريلندوس ورولدان اذ يقول: «من الافعال التي قاموا بها والطباع التي تحلوا بها يمكن ان يستدل باعمال الحكمة على ملامحهم والوانهم وقاماتهم».

- VI -

موضوع الكيخوطى

يبتدئ موضوع الرواية في مكان من المنتشا يرى بليثر وكليمنثين وغيرهما انه ارغماسيا دي البا حيث كان يعيش رجل شريف عازب ذو مكانة متوسطة ولوع بقراءة كتب الفروسية، الامر الذي دفعه الى تبذير امواله وبيع بعض املاكه للحصول على اخبار الابطال المشائين الرحالة، ومن قلة النوم وكثرة المطالعة ـ كما يقول الروائي ـ نشف دماغه وجف فاذا به يصاب بخبل يحمله على الاعتقاد بان كلما كان يقرأه صحيح ولشدة حماسته لهذه الفكرة التي رسخت في رأسه رسوخ الايمان بل اقوى، اوحى الى الطيب النية الونصو كيخانو ـ وهو اسم الشريف ـ جنونه بامتهان حرفة الفارس المشاء الرحالة ووضعها موضع التنفيذ وفقا لما قرأ وطالع.

ولكن قبل خروجه الى العراء للبحث عن الاخطار والمجازفات، راح يعود حصانا هزيلا كان له وصفه بالقوة والجمال ثم اتخذ اسلحة كانت عنده ورثها عن

اسلافه فنظفها وجلاها قدر المستطاع واصطنع له من اسمه اسما جديدا اضاف اليه اسم مقاطعته فاذا به يصبح ضون كيخوطي دي لامانتشا، وتذكر ان الفرسان الرحالة ينتقون سيدة لافكارهم يقدمون لها احتراماتهم فطرأ له انه في شبابه كان مغرما بفتاة فلاحة من احدى القرى المجاورة فرأى من المناسب جعلها سيدة افكاره ولما لم يرق له الاسم الذي كان لها ـ وهو الوندرا لورنثو ـ اسماها دولثينايا دلطوبوسو.

ولما فرغ من تدبير كل هذا في صبيحة يوم من أيام شهر يونيه (حزيران)، دون ان ينذر احدا من اهل بيته، خرج الى العراء مزودا بالعزم الاكيد لمجابهة وركوب كل الاخطار والمجازفات التي تتصدى له.

واما وهمه المحموم فكان يحمله دائما لا على رؤية ما كان يقع تحت بصره بل ما كان يحوم عليه خياله وبينما هو كذلك جاد في طلب الاخطار، شاهد في قصر ـ هو في الواقع فندق ـ فتاتين من ادنى طبقات المجتمع فحسبهما سيدتين من رفيعات القوم ونادى صاحب الفندق بصاحب القصر وبهذه الوسيلة دخل ضون كيخوطي الى عالم الفكرة السامية فرفع نفسه الى رتبة

فارس في نفس الفندق ثم يخرج منه بعد قليل عازما على اقتحام اعظم المواقع والاتيان بالاعمال الخارقة التي لايتصورها بشر.

ما كاد يترك الفندق ويتوغل في غابة حتى سمع استغاثة موجعة فاذا به امام رجل يعصو فتى، فتحركت فيه همة الفارس التي اراد ان يظهرها فوعظ الرجل وحمله على فك عقل الفتى الذي كان قد شد الى جذع شجرة وما ان اتم للفارس المغوار هذا حتى اعتلى صهوة جواده وذهب ولكن الرجل عاد الى متابعة مشروعه ولم يقلع عنه الا بعد ان ترك الفتى بين الموت والحياة، ولما خرج الشريف المنتشاوي من الغابة التقى بتجار من طليطلة فاوقفهم وطلب اليهم ان يعترفوا بان دولثينايا دلطوبوسو هي اجمل امرأة في العالم، فاجابه المسافرون ساخرين فاثارت هذه السخرية غضبه وانقض عليهم ورمحه في راحته الا انه قبل ان يصل اليهم وينزل بهم الاذى، تعثر الحصان وسقط الفارس فاسرع خدام التجار الى مكافأة المشاء بضربه ضربا مبرحا الى ان تركوه في الخلاء بين ميت وحي. وبات على الحضيض مهشم الاعضاء وبعد قليل شرع – لا في الانين اذ ان هذا شائن في حق الفرسان

المشائين الرحالة ـ بل في انشاد الموشحات مـن نظـم المركيس دي منطوا وبينماهو على هذه الحال مر به عرضا احد جيرانه فحمله الى داره، وكان في يقين وصيفة ضون كيخوطي وابنة اخيه (أو اخته لان الكلمة في الاسبانية تحتمل المعنيين) ان سبب جنونه انما يعود الى كتب الفروسية فقررتا ان تجعلاها طعما للنيران. واما ضون كيخوطي فبعد ان استراح عدة ساعات نهض من فراشه وراح ليستفقد خزانة كتبه فلم يعثر على باب الغرفـة فتوهم ان احـد السحرة فعل هذا، ومـع هذا فكان الكاهن والحلاق يحاولان حمله عـلى ترك تلك المهنـة الوعرة، غير ان ضون كيخوطي كان قد اقنـع جارا له وهو رجل سليم الطوية لكنه قليل ملح الجمجمة ليذهب الاثنان في طلب المجازفات على ان تكون لسانتشو بانثا ـ وهو اسم ذلك الجار ـ صفة حامل الدرع مقابل تعيينه حاكما لاول جزيرة او اراضى يفتتحها وتكون لحاكمها مرتبة دوكي، وقد دفع الجشع سانتشو الى قبول الاقتراح الذي عرضه عليه ضون كيخوطي، وفي احدى الليالى دون أن ينذرا اقاربهما بالامر، تركا القرية، الاول ممطيا صهوة جواده «روثيننتي» والثانى راكبا حماره «روثيو».

وفي رابعة النهار ابصرا ما يقارب 30 او 40 مطحنة هوائية عدها ضون كيخوطي مردة جبابرة ثم اصطدم برهبان فتوهمهم قطاع طرق وبارز خادم احدى السيدات وهو في طريقه الى اشبيلية وفيما بعد التقى بمعازة فقضى ليلته عندهم وحضر دفن راع عاشق. وبعد ان استودعهم اصطدم باناس قساة القلوب، من ينغواس فعصوه وعصوا سانتشو الى ان هشموا اضلاعهما واخيرا تمكن من بلوغ الفندق حيث ضمدت جراحه، وفي نفس البيت الذي اعد للسيد والخادم كان يبيت أكار من اريبلو فبينما كان الكل هجعا والليل ينوخ بجوءجوئه على الاجفان وقد استثنى جفني ضون كيخوطي والاكار، ظهرت خادمة تلك الدار، الوفية العهد مريطورنيس ـ وهو اسم تلك الخادمة ـ فعانقها ضون كيخوطي ظنا منه انها ابنة صاحب القصر التى جاءت لتبوح له بلواعج صدرها، وما ان تيقن الاكار من ان الفارس المغوار لن يخلى سبيل الفتاة قصده وطفق يلكمه ويلكم سانتشو الذي كان يغط في نومه، فعلا الصراخ الى ان نهض كل من كان بائتا في الفندق وتساقطت الصفعات والضربات من كل حدب وصوب في الظلام الدامس الى ان عادت السكينة فاسرعوا

الى نجدة ضون كيخوطي الذي خالوه ميتا، وفي اليوم التالي تركا تلك الدار المنحوسة بعد ان قذف سانتشو المسكين قذفة اللحاف.

ولدى خروجهما من الفندق شاهدا عجاجا متطايرا كاد يحجب نور الشمس ولما اقتربا لاحظ سانتشو ان قطيعى غنم يكدحان صوبهما غير ان ضون كيخوطي اصر على انهما جيشان عرمرمان يستعدان لخوض معركة فاصلة فجرد رمحه وانطلق مغيرا على احدهما فقتل بعض الاغنام وما كان من الرعيان الا ان استقبلوه برشقهم اياه بالحجارة التي انهالت عليه كشآبيب المطر فسقط عن صهوة جواده بلاحراك، فبادر مرافقه وحامل درعه الى اغاثته من تلك الحادثة وهجرا تلك الاماكن وواصلا جدهما في طلب مجازفات جديدة، ولم يطل بهما المسير حتى شاهدا في الليل البهيم انوارا تتلألأ فظنا ان هناك امرا خارقا فتربصا وباتا ينتظران وصول ذلك الشئ الذي استرعى انتباههما، فاذا بذلك الشئ جنازة فتصور ضون كيخوطي حملة النعش اطيافا ينقلون فارسا جريحا فهجم على الفريق الاول واجبر الباقين على تركهم اولئك بعد ان جرح احدهم وبهذا تأكد له انهم ليسوا بلصوص

بل من رجال الدين، وبعد قليل وفي تلك الليلة ذاتها سمع صليل سلاسل وضربات عنيفة وخرير مياه، فدب الذعر في صدر سانتشو وبات ضون كيخوطي رابط الجأش يترقب مجيء النهار ليقوم باحد الاعمال التى لم يعرفها التاريخ ولاشهدت مثلها الايام غير انه لما برز الصباح رأيا مصانع مائية لقشر القنب، ثم بينما هما في طريقهما شاهدا رجلا يقترب وعلى رأسه شيء براق فتوهم ضون كيخوطي ان ذلك الشيء هو خوذة ممبرينو، فهاجم ذلك الرجل فولى هاربا وسقط ما كان على رأسه فاذا به طست حلاق، الشيء الذي لم يصدقه ضون كيخوطي بل اصر على انه الخوذة المزعومة، ولم يطل به المقام حتى التقى بجمهرة من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة في الجواري وما ان انتهى الى الفارس المشاء انهم ذاهبون قسرا حتى تجرد للدفاع عنهم ووثب لمقاتلة الحرس وما ان رأى المحكوم عليهم هذا النزاع حتى حلوا قيودهم وانضموا الى ضون كيخوطي فهرب الحرس وتركوا للمساجين حريتهم الا ان ضون كيخوطي طلب اليهم ان يذهبوا الى قرية طوبوسو ليقدموا طاعتهم وولاءهم

لدولثينايا، فسخروا من هذا الطلب فشتمهم النبيل فما كان منهم الا رشقوا بالحجارة السيد والخادم وفروا بعد ان سلبوهما كل ما كانا يملكانه.

ولكن احدهؤلاء المساجين اقترف امرا اصاب به من سانتشو الصميم وهو انه سرق له حماره تحت جناح الظلام وحين تغلغل السيد والخادم في سلسلة جبال «سيرامورينا» تذكر ضون كيخوطي كيف كفر اماديس دي غولا في «صخر الفقير» عن ذنوبه وعزم على ان يحذو حذوه واوفد سانتشو كي يقرئ دولثينايا السلام. ذهب الخادم او حامل الدرع او المرافق وسرعان ما التقى بالكاهن والحلاق فسألاه عن سيده فارشدهم الى المكان الذي تركه فيه. فعزما على ان يخرجاه من تلك الجبال الوعرة بواسطة حيلة قوامها كتب الفروسية واعمالها، فبدل الكاهن زيه ولبس حلة اميرة من مملكة ميكو ميكون جاءت لتطلب حماية الفارس، وكان على الحلاق ان يرافق الاميرة المنكودة الحظ. دخل الثلاثة في قلب تلك الغابة فصادفوا كرينيو الزاهد في الحياة بسبب حبه التعيس والذي راح يعيش عيشة الانفراد والعزلة في تلك البقاع الموحشة وبينما هم في البحث عن ضون كيخوطي

عثروا بالقرب من احدى الغدران على امرأةبلباس رجل فدنوا منها وتحدثوا اليها فاخبرتهم بسبب وجودها في هذه الغابة وبهذا الزي. وبينما هم على هذه الحال كان سانتشو قد ذهب وراء سيده ثم التقيا بالكاهن والحلاق غير انهم تعجبوا من رؤية كردينيو ودورتيه ـ وهو اسم الفتاة ـ التى مثلت دور الاميرة وقام الحلاق بدور الخادم، وتوجه الجميع الى المكان الذي كان يقيم فيه ضون كيخوطي فعثروا عليه وافضت الاميرة بما يحز قلبها، فقدم الفارس نفسه للدفاع عنها مهما كلف الامر، وسار الجميع في طريقهم الى الفندق، نزلوا في الفندق فترك ضون كيخوطي رفاقه وذهب يطلب الراحة وشرع الاخرون في قراءة رواية لقتل الوقت، عنوانها: الفضولي الممل، الا انهم قبل ان يتموا قراءتها سمعوا صياحا في غرفة النوم، فدخلوها ووجدوا الفارس المنتشاوي راقدا وقد اعمل سيفه في رقاب اعداء اميرة ميكو ميكون ومزق ظروف وقرب الخمر وفيما هم لكذلك وصل الى الفندق جماعة من الضيوف عرف من بينهم كاردينيو حبيبته وعرفت دروتيه زوجها وما ان تعارفوا حتى عادت المياه الكدرة الى صفائها، الا ان الدنيا ضاقت في عيني سانتشو

عند ما تأكد لديه ان دورتيه ليست باميرة مملكة ميكو ميكون، وما كاد المرافق المسكين يستريح بعد من عبء هذه الوعكة الهائلة حتى فوجىء بدخول اناس آخرين الى الفندق قوامهم: رجل مسيحي قدم حديثا من بلاد المسلمين وبصحبته امرأة مسلمة. ولما ارخى الليل سدوله دارت مباحثات في افضلية الجندية على الادب، فوقف ضون كيخوطي والقى خطابا استولى بفصاحة لسانه وصائب ارائه على الالباب وسحر القلوب ثم بعد هنيهة قص الرجل الذي وصل حديثا من بلاد المسلمين قصته وقصة غرامه بثريده ـ وهو اسم المرأة المسلمة التي جاءت معه ـ

ولما فرغ الاسير من رواية قصته دخل الى الفندق جمهرة من الناس في رفقة الحاكم ضون خوان بيريث دي فيدما الذي ظهر انه شقيق الاسير. وكان في معية الحاكم ابنته التي تبعها شاب من اشرف العائلات الاراغونية، واستمع ليلا من في الفندق الى اغنية عذبة انشدها البقال الذي لم يك سوى عاشق كلارا ـ وهو اسم ابنة الحاكم ـ وبينا هم لكذلك شاهد ضون كيخوطي فتاتين في الشباك فدنى منهما فاوثقتاه بمكر الى قضيب

الشباك، واسرع الناس على صراخ البطل ولكن في تلك
الاونة صادف دخول اناس آخرين الى الفندق هم خدام
ضون لويس ـ وهو اسم عاشق ضونيا كلارا ـ الذين
جاءوا يبحثون عنه ليردوه الى داره. وكأن ما روى
حتى الان لم يك كافيا لكي يظهر في هذه اللحظة
الحلاق الذي كان قد فقد الطست على اثر هجوم ضون
كيخوطي عليه، وقد جاء مطالبا به، ولم يتخل الفارس المشاء
الرحالة عن غنيمته بينما كان الحلاق يحاول انتزاعها
منه قسرا والناس يصرخون ولا احد يسمع ماذا كان
يقال الا انه عادت اخيرا المياه الى مجاريها فقرر الجميع
ان تترك الامور كما هي عليه، وان يشرع في اخذ
التدابير لارجاع ضون كيخوطي الى داره ومن اجل هذا
حملوه على الاعتقاد بانه مسجور، فاركبوه عجلة وهكذا
ترك الفندق في قفص قاصدا اداره، وفي الطريق توقفوا
عن السير طلبا للراحة في احد المروج حيث صادفوا
معازا طفق يشرح قصة غرامه فتدخل في الامر ضون كيخوطي
الذي كان ساعتئذ خارج القفص وصرح انه يتعهد بوضع
حد لما قاله المعاز بقوة عضده المفتول فما ان رأى المعاز
ان ضون كيخوطي يسخر مما رواه حتى شتمه ولعن

ساعة مولده فاستاء ضون كيخوطي الذي ما كان عنده للهزل مكان واشتبك الاثنان في عراك دام الى ان رن صوت صور فطلب ضون كيخوطي من المعاز هدنة وما ان منحه اياها حتى أدار وجهه وقصد المكان الذي سمع منه ذلك الصوت، فشاهد من بعيد اناسا يحملون تمثالا للعذراء في طواف فتقدم ضون كيخوطي منهم ليتحقق ما هو ذاك وما ان دنا منهم حتى طلب ان يردوا الى السيدة حريتها المسلوبة، فحسب رجال الدين والقساوسة كلام ذلك الفارس اهانة وسخرية، واستقبلوه بالعصي فدافع المشاء الرحالة عن نفسه حسبما سمحت الظروف ولكنه اخيرا سقط على الحضيض فتركوه على انه ميت. ثم اعيد ضون كيخوطي الى القفص واركب العجلة التي لم تتوقف الا امام داره في مسقط رأسه حيث استقبلته بفرح الوصيفة وابنة اخيه. واسودت الدنيا في عيني امرأة سانتشو وانكسر قلبها حين رأت ان زوجها عاد خاوي الوفاض صفر اليدين حتى من لقب الشرف الذي كان قد وعد به.

بل ضون كيخوطي من مرضه ومل من البقاء في داره وكره حياة البطالة فعزم الرجوع ثانية الى حياة المجازفات وابلغ سانتشو رغبته فقررا هجر عائلتيهما من

جديد والذهاب مرة أخرى في طلب مبتغاهما: الخادم في اثر لقب الشرف الذي طالما اضاع مُخه من اجله، والسيد وراء الاتيان باعمال تحير الالباب وتذهل العقول ويقف التاريخ امامها في بهتة واندهاش وقصدا اول ما قصداه قرية الطوبوسو الا انهما بعد ان تجولا في ساحاتها وشوارعها لم يهتديا الى قصر الدولثينايا فغادراها عند طلوع الفجر.

ثم بينما صارا خارج البلدة عزم ضون كيخوطي على ايفاد سانتشو بمهمة الى سيدة افكاره فدبر الخادم حيلة يخدع بها سيده ولما قفل راجعا إنذره بان دولثينايا ترغب في ملاقاته وبينماهما لكذلك اذا بثلاث فلاحات يظهرن وقد امتطين ثلاثة حمير، فقال سانتشو لسيده ان احداهن لدولثينايا فصدق المشاء الرحالة قول حامل درعه ولكن لما اقترب منهن تيقن انهن من عامة الناس فاقسم له سانتشو واغلظ ان دولثينايا قد جاءت برفقة وصيفتيها فرضخ اخيرا السيد لقول المرافق وبدا له ان السجرة قد بدلوا سحنة سيدة افكاره، ومن بعد التقى بفرقة المسرحيات الهزلية لانغولو الشرير ثم في الغابة

اصطدم بفارس مشاء فنازله وبعد ان قهره اتضح له انه صديقه المتخرج شمشون كرسكو فعزا وقوع الحادث الى لؤم السحرة الاشرار.

وبعد ان تغلب على الفارس ذي المرايا التقى بطلنا النبيل برجل زنديق وقوريسمى ضون ديبغو دي ميراندا فسار بمعيته وفيما هما لكذلك شاهد ضون كيخوطي عجلة عليها اقفاص فيها اسود فتصدى للمروض وحمله على ان يفتح الاقفاص ووقف ينتظر وثوب الاسد وسيفه في راحته، وبعد ان تم له ما اراد اغلق المروض القفص مخافة وقوع ما لاتحمد عقباه وقد احتفي احتفاء عظيما بفارس الاسود ـ وهذا لقب ضون كيخوطي الجديد بعد ان كان معروفا بالفارس ذي السحنة الكئيبة ـ في دار ضون ديبغو وعند ما تهيأ مرة أخرى للخروج في طلب المجازفات ارسل ضون ديبغو في صحبة السيد والخادم ولده وهو فتى نجيب حاذق.

وما ان اصبحا وحدهما حتى التقيا بمسافرين في طريقهم لحضور حفلة زواج كمتشو المثري بكيتاريا الحسناء. حضر حفلة الزفاف المذكورة جمهور غفير ولكن لم يتم في الحقيقة زواج كيتاريا من كمتشو بل تزوجت من باسيليو الفقير الذي كان مغروما بها. دافع انصار

كمتشو عن هذا كما كافح انصار باسيليو عنه وانحاز الى هؤلاء ضون كيخوطي ولم تتفاقم الحال لانه عاد اليهم رشدهم. وبعد ان ترك السيد والخادم مكان العرس دخلا غار مونتسينوس لان مخيلة السيد املت عليه امورا ما سبق وصفها ولا قرأتها، ومن ثم دخلا بلدين كان سكانهما قد انقسموا على بعضهم لان رئيس بلدية احدهما نهق وسخر سكان القرية الاخرى منه. وبينما كان ضون كيخوطي جادا في طلب المجازفات رأى قاربا مشدودا الى جذع شجرة قرب ضفة نهر فبدا له انه سياتى عملا ماجدا من اعمال الفروسية فحل قلس القارب وركبه، فساقه التيار وما ان تأكد سانتشو من دنو الخطر حتى أخذ يصرخ ويصيح وكان القارب على وشك ان يتحطم في كوة المطحنة، فخرج الطحانون وبايديهم الهراوات لايقاف القارب ولما رأهم ضون كيخوطي حسبهم عفاريت فاستل سيفه الا انه سقط هو ومرافقه في النهر وكادا يموتان غرقا لولا ان الطحانين انقذوهما فغادرا المكان بعد ان جفت ثيابهما، وتغلغلا في غابة حيث تصدى لضون كيخوطي صيادون قدم لهم جزيل احتراماته بعد ان سقط عن صهوة حصانه، واما زوج السيد فقد طلبت

من ضون كيخوطي ان يقبل ضيافته ويستريح في قصره الذي كان على مقربة من ذلك المكان فقصد الجميع القصر وتمكن بطلنا هذه المرة من ان يرى بعيني رأسه ما كان قرأه في كتب الفروسية. واما الدوقي وزوجه - وهو لقب الصيادين اللذين التقى بهما ضون كيخوطي - فعزما على ان يتسليا على حساب الفارس فاعدا لهذا الامر الحفلات التي تنم عن روح واعمال الفروسية ووصل بهما الحال الى تعيين سانتشو حاكما غير ان حكمه دام قليلا لقيام ثورة ضده قضت عليه وقوضت دعائم دولته. قنط ضون كيخوطي من عيشة البطالة فودع الدوقيين وراح يقصد برشلونة وذات يوم بينما كان ضون كيخوطي على الشاطئ رأى فارسا ابيض اللباس من قمة رأسه الى اخمص قدمه، يدنو منه، وقد وضع رفراف خوذته الى اسفل وهلالا فوق درعه فلما اقترب منه قال له انه يجد في طلبه ليحمله على الاقرار بان سيدته اجمل من دولثينايا دلطوبوسو وان ابى الاقرار بهذا دعاه الى البراز وعندئذ تقرر الرماح مصير كلا الفارسين. قبل ضون كيخوطي البراز فورا لدى سماعه هذا وما ان اشتبكا حتى سقط ضون كيخوطي عن صهوة جواده مقهورا الا

انه لم يقر بل لم يعترف بما كان قد طلبه منهالفارس ذو الهلال الابيض وفضل الموت مناديـا بتفـوق حسن دولثينايا دلطوبوسو، واكد الفارس الغالب ان دولثينايا اجمل امرأة في العالم غير انه اجبر الفارس المغلوب على ملازمة داره وعلى ترك السلاح مدة سنة. وما ان قطع عليه هذا العهدحتى ذهب. واسودت الدنيا في عينى ضون كيخوطي وضاق صدره فلم يرض البقاء في برشلونـه وغادرهـا في طريقه الى بلدته ولما كان عائدا داسته الخنازير وسخر منه الدوقيان. وبعد وصوله الى قريتـه دب السقـم في جسمه من هول ما قاساه من مرارة الغلبة فتبددت اوهامه وعاد اليه رشده. وهكذا قضى نحبه ضـون الونصو كيخانو الصالح».



- V -

اشخاصه

شخصان رئيسان يشكلان قوام الرواية واما الاخرون فليسوا سوى الاطار لهاذين الشخصين ضون كيخوطي وسانتشو اللذين هما بطلا الرواية في آن واحد. ولقد قيل بادىء ذي بدء ان السيد والخادم، الفارس وحامل الدرع ليسا في الحقيقة صورتين بل انهما ابتداعان ركبا من نبذ بشرية، الاول مجنون والثاني رجل طيب الا انه قليل ملح الجمجمة. وكلاهما فارس، الواحد يمتطي صهوة جواد هزيل والاخر يعتلي ظهر حمار صبور وما زالا طيلة اربعة قرون يتقبلان ترحيبات وتصفيقات الناس وتحيات رجال الادب. وقيل فيهما انهما يمثلان ارسخ عامل تاريخي في ادوار الانسانية على الاطلاق وقد شوهدت في احدهما فكرة الخير وفي الاخر فكرة الاستفادة ويمكن ان يرى حسب النقاد روح التجرد في كليهما المكونة من السمو في السيد ومن الحقيقة في الخادم ولاحظ احدهم في ان السيد قد اعتنق ديانة نكران الذات واتيان الاعمال لوجه

الله وقام كضد له حامل الدرع الذي انما يأتي الاعمال حبا بالمنفعة الشخصية الايجابية، فاذا كان ضون كيخوطي علويا مجردا، فسانتشو يكون رجلا ايجابيا ولهذا اصبح الشعب ان رأى انسانا فيه روح جديدة مصلحة او انه يعمل لصالح الانسانية، لقبوه بالكيخوطي ولقبوا كل من يأتي عملا حبا بالمنفعة الشخصية سانتشو، فصفات الاول تتجلى في اصحاب النظريات العلوية وفي اصحاب الاحلام الذهبية وفي ناكري ذواتهم، وصفات الثانى في الانانيين وفي الحاسبين للامور حسابها وفي الايجابيين.

فاشخاص هذا الكتاب الرائع لاينتمون، كما هى الحال في كتب الفروسية، الى طبقة واحدة من المجتمع، لا وجود لبنات الملوك ولا للاميرات ولا للاشراف الرفعاء بل يستعرض في مزيج متنوع جمهرة من القساوسة والحلاقين والدوقات واصحاب الفنادق واللصوص والفتيات المغرمات والوصائف والفلاحات والسيدات وتجار الحرير والاكرة والخدم والفرسان والرعيان والهزليين والاسارى والمساجين اي انه استعرض مجتمع القرن السادس عشر وتصدى للطبقة المنحطة اكثر من تصديه للطبقة الرفيعة وكل

هذا بصورة تهويلية الا انها في الاساس تمثيل ساذج لمجتمع ذلك الزمن ولمجتمعنا ولمجتمع الاجيال المقبلة.

والمشهد الذي يستعرض فيه النساء رحب ومختلف الالوان في هذه الرواية: سنتشيكا، ابنة سانتشو، فتاة دبيرة تطيع اوامر والديها وتساعد على القيام بادارة المنزل، وتريزا بنثا تمثل مرأة المنزل، لا تكل ولاتمل في عملها تحب الملابس والعقود لا لامر ما الا لدب الحسد في قلوب جيرانها، تميل الى ضرب الامثال كزوجها، وترضى بالعيش كضريباتها. لوثيندا فتاة مثال للطاعة الابوية ومع انها مغرومة حتى الجنون، تكظم عواطفها وتقنع بتعاستها، ودوريتايا من احسن النسوة اللائى ظهرن في الكتاب، وخيرهن اعتدالا ورزانة وحصافة وجمالا وهى ضحية فرنندو المنقلب. وكميلا هى المرأة الحسناء التي لاتقوى على صد اغراء المحيطين بها ولعلها تجسد ضعف الارادة، مرثالا ترمز الى المرأة التى لاتشعر بالحب ولا عرف احد كيف ينفذ الى قلبها، التيسبيدورا هي الفتاة الخفيفة الرأس المتهورة، المطرابة على استعداد دائم للازدراء بالمساكين الذين يقعون تحت رحمتها، وصيفة ضون كيخوطي اكمل شخصية في الرواية وهي تمثل تلك الوصائف اللائي

لمرور زمن طويل على وجودهن في البيوتات يعتقــدن
انهن عضو من اعضاء العائلة· فيسدين النصائح ويقاسمن
الدار افراحها واتراحها· ابنة اخت الكيخوطـي تمتثــل
لارادة الوصيفة لاعتقادها ان ما تقوم بــه انمــا تعملــه
لصالح الجميع· ليندرا هي الفتاة التعسة التــي تتــوق الى
الحرية فتصيخ سمعها لكل دخيل· ثريدة هى الحب المجرد
فتتحمل اكبر التضحيــات في سبيل رغبتهــا · موليـنــارا
وطولوسا فتاتان تعيستان يستولى عليهما الذهول والحيرة
عند ما تعاملان برفق واحترام ما عرفاهما قبلا· وفي بادئ
الامر خالتا سخرية وازدراء كلام البطل ولكن من بعد
باتتا كمسحورتين لكونهما رأتا كيف رفعتا من الوحل
حيث كانتا تعيشان· كيتاريا الفتاة المغرومـة بباسيليــو
تستلم لتيار العواطف الجارف وبشجاعة فائقة تلقي بنفسها
تحت مخالب الالام والفقر لزواجها من الرجل الذي لايملك
من حطام الدنيا فتيلا· مريطورنس الوفية العهد هى تلك
الفتاة المعطاء. وكامرأة ضعيفة الارادة كلفت بسانتشو الذي
طلب منها وهو مزمع على الذهاب مع سيده ان تاتيه بكأس
ماء بعد ان كان سخرية ضيوف الفندق· الدوقة تمثل تمثيلا
لاغبار عليه· المرأة المحبة للفراغ والتسليــة والطــرب

المعدومة الثقافة غير انها مهذبة في امور سخيفة. والنساء البرشلونيات سيدات يحببن الهزل والتسلية بشكل شريف وضونيا رودريكث تمثل وصائف البيوتات الكبيرة اللائى يعشن في ظل الحياة الرغدة وعند ما تسنح لهن الظروف ينتقدن من يخدمنه وضونيا كلارا دي فيدماهي الفتاة التى تبدأ اسماعها في التقاط الكلمات الغرامية الاولى. فكل هذه الاشخاص الموصوفة وصفا رائعا بما قل ودل كغيرها من الموصوفات التي يلم بها قلم الروائى العبقري، تمشي جنبا الى جنب مع الحمامة الطوبوسية البيضاء، امبراطورة الطوبوسو دولثينايا المثلى.

ولقد وصفت اليد العبقرية كذلك الذكور وصفا حلق في سماء الابداع. فنرى ونحن نتصفح الرواية الاسير الصبور الشهم. وقسيس الدوقيين الصارم الذي لاتلين له قناة، ورئيس كهنة طليطلة الرزين الاديب. والكاهن بيرو ببريث الرجل الساذج الكريم، وضون فرنندو الدوق المتعجرف وضون دييغو دي ميرندا المهذب الرصين كردانييو التاعس. لوطاريو العادم الاخلاص. انسلمو المخدوع، خيناس دي بسامونتي الماكر الماهر.

ويفصل هرتزنبوش باصالة رأي صفات اصحاب

الفنادق الاربعة الذين ظهروا في الرواية فيقــول: «اما ابن سان لوكار فساخر وكريم، يرضي ضون كيخوطي ويحميه من الاكرة ويسامحه بالمصروف، وبلوميكي الايسر رجل انتفاعي وحقود يطالب بدفع ماله ويحتفظ بخرج سانتشو، ويحتد مع اللصوص ضد ضون كيخوطي بعد ان كان الفارس الطيب السريرة قد سكن روع الضيــوف الذين كانوا اساؤوا معاملة صاحب المضيف الوقح، وصاحب فندق الاقزام المضحكــة رجل ذو اخلاق سليمة، يعجب النبيل العبقري في وسط بحر ضلاله، وصاحب الفندق الذي في طريق سرقسطة مغرور وشحيح على مأكولات منزله وهو لايطبخ سوى طبخة واحدة يساهم فيها». وما قاله هرتزنبوش في اصحاب الفنادق ليقال عن اللصوص والمعازين وغيرهم.

لئن كانت الاشخاص الاناث تشكل الاساس الذي يوصلنا الى شخصية دولثينايا الخالــدة فكافــة الاشخاص الذكور تؤلف الاطار الذي يحيط باظرف شخصيتيــن وابدع ما اوجدت العبقرية التي حاكت الرواية وهما ضون كيخوطي وسانتشو فهماشخصيتان على غرار شخصيات الملك ليار وساخيسمونــدو واديبــو وهما من المبتدعات

التى لاتنتمى الى امة دون الاخرى بل تنتمى الى العالم باسره، مبتكرات مثالية لا تشيخ ولا يعرف الهرم اليها سبيلا بل عكس ذلك كلما ابتعدنا عنهـا وطال الزمن وجدناها اشد بروزا واعظم قوة.

ولكن كم من مجلدات الفت في شخصية ضون كيخوطى! لقد كتب احدهم عنه فوصفه بانه شخصية هزلية اذ لم يحسن النظر اليه الا من خلال النزاع حول خوذة ممبرينو دون ان يفكر في ان هذه الشخصية السخيفة هى التى نادت : لا وجود لعصافير اليوم في اعشاش الامس». وهو الرجل الضعيف الذى لا حول ولا قوة له فينازل الجبابرة ليتغلب عليهم ويدفع بنفسه وراء المجازفات وقد حمل في صدره غاية سامية ومقدسة : الدفـاع عن الضعفاء، حماية التعساء ومواساة الفقراء، وقد قيل فيه انه يمثل الشرف الاسبانى كما لو كان من السهل اعتبار الشرف من الامـور الطبيعية الخاصة التى تميز شعبا معينا، فضـون كيخوطى شخصية عالمية، لان كثيرا من الافكار العلوية التى احتوت عليها نفسه هى في صدور غيره من رجال العالم، وهو ذلك الرجل الذى لا يقدر

الاخطار التى يتعرض لها ويكافح بحماس عن المذهب الذى يريد فرضه، مذهب عال، عظيم، سام، يبلغ بصاحبه الدرجة القصوى من حيث نكران الذات وحب الغير ولو لم يكن كذلك لما ترك عيشه الرغيد في مقر داره واهمل ممتلكاته ليطوف في العراء على اثر المجازفات وقال فيه احد الكتاب : «ان جنون ضون كيخوطي يتجلى في عدة اطوار: فهو مثالي حين ينتظر القرويات، وخطر في مغامرة القارب المسحور وشجاع في تجولاته ليلافي ازقة الطوبوسو، ومتهور في مجازفةغار مونتيسيونس، ومجازفة الاسود، وجامح في منازلته للفشكاييبنو وغبي في مقاتلته مع كريدينيو» وقد اصاب ذلك الكاتب في تعليقه اذ الا يدفع الجنون الى القيام باعمال لو رويت لبدت غير عادية لايمكن تصديقها؟

كان يتعذر على سرفانطيس ان يصف بطل لامانتشا كرجل عاقل وكان عليه حتما ان يقول لنا ان دماغه ينتمى الى فئة الادمغة التى ينبغى ان تخضع لدراسة الاخصاء بالمجانين، وبهذا تظهر حقيقته ويتضح ذلك الاطار الجلي العتم الذي يلاحظ في الرواية الا وهو الرجل

المثقف الخبير، القاريء الذكي ما دام توهمه لايرى شيئا يمت الى الفروسية بصلة ومتى لاح له امر من بقايا اثار كتبه الغالية على قلبه استحال الى مجنون لادواء له. ولقد قدمنا ان احد الكتاب اكد ان ضون كيخوطي يمثل الشرف الاسباني ونقول الان ان لابوينتي في مؤلفه «ملك كتبنا» يقول ان المشاء الشهير «يمثل الاسباني المبتكر المجازف ان لم يكن في الواقع فعلى الاقل في الميل، المزدري بالخطر الثائر على من يحول دون بلوغ هدفه، المحب للقتال...الخ» اجل يمكن ان يكون مجازفا ومبتكرا في امور ليست مثل اصلاح البيت والسير في جبال سراموري‌نا، الوعرة بعد ان رد للمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة في الجواري حريتهم، اما كونه لايبالي بالاخطار فهذا صحيح لان شعاره «انا اساوي مئة رجل وانه لسخيف ورزين مجنون وخبير ومنصف في اعماله ومعارض لاحكام العدالة انه لشخصية انسانية لابعد مدى . يتجسد فيه سمو الحقيقة بشكل مضحك» وهو تلميذ لافلاطون ـ كما يقول مونطلفو ـ في رداء السخافة والبلاهة: «لئن جردناه من سيفه ولباسه كفارس مشاء رحالة لبقي الفيلسوف»

واما شخصيةسانتشو فتبرز الى ابعدحد شخصيةالفارس السامى في حين ان اغلب النقادقد رأوا في حامل درع ضون كيخوطى الرجل الايجابي،الاناني الذي يسعى لمنفعته.

والان فلنبحث في هـذه الشخصية : فعند بدرو آ. غرثيا: «انما هو التجربة المجردة من السمو، والفكر السليم دون التعمق في الاسباب، والشهوانية العملية الخالية من الذي المثل الاعلى ولايهزها سوى غرضها الخاص» ويقول بيرنس وهورطادو انه «ذلك العامل الذي يحسب عمله اليوم بالمرافاديس ـ وهو نقد ذلك الزمان ـ رب العائلة الذي لايملك سوى الحمار وقد علمه الضيق وضنك العيش السعى في طلب الرزق وتحسين الحال» وعند طوبينو: «المادة حسب ما تفهمها الجماعة المثقفة او غير المثقفة، مفتاح وسر الحياة الايجابية والتاريخيه بما فيها من ضعة وانانية عملية مدعومة بمقدار لا حد له من التعقل والجهالة» وعند مينث: «يمثل الشعب الخشن المادي في زمانه، ففى نظره لا توجد غير سعادة واحدة: سعادة المأكول والمشروب والنوم والاثراء مع قليل من العمل» ولكنا نصارح هؤلاء النقاد المحترمين ان شخصية سانتشو هي من اسوأ ما درس من شخصيات الرواية

لو كان طامعا وأنانيا لما ترك حكم الجزيرة لاول مضادة قامت في سبيله ولو كان محباً للمادة لهجر سيده عند ما تحقق ان حياة الارتحال لا ترد عليه من مكافات سوى أوجاع وسوء طالع وهذا يتألف من لكمات وعصوات وقذف باللحاف فسانتشو رجل سليم الطوية، ظريف، طائع، ساذج صدوق وغير انتفاعي في آخر الرواية، يضمر الوفاء والحب لسيده، يهجر امرأته واولاده ليلتحق به ويعلم انه في رفقة الفارس الرحالة يمتطي المجازفات فلا يلقى سوى العصي والحجارة فيتجلد في كل مرة وعند ما يتوفى البطل يذرف الدموع، دموع الاسى والاسف اي انه يبكي ولا يتباكى.



- IV -

روايتا الكيخوطى

«الفضولي الممل» و «الاسير»

لقد كتب الشئ الكثير حول الروايتين المدرجتين في الكيخوطي وكلتاهما تقعان في الجزء الاول: فالاولى تستغرق من الفصل 33 حتى الفصل 35 وعنوانها «الفضولى الممل» والثانية تستغرق من الفصل 39 حتى 41 وعنوانها «تاريخ الاسير» وتلاحظ في كلتاهما يد سرفانطيس الماهرة من حيث الجمع بين الامور النفسانية والطرافة والحوادث الحقيقية والخيالية، ولقد حذفت هاتان الحليتان من متن الكتاب في كثير من طبعاته ووصفتا بكونهما من حلى سرفانطيس نظرا للدور الذي تلعبه الاولى الى جانب المتخرج فيدريبرا ومحاورات الكلاب ولكون الثانية تحتوي على قسط كبير من تاريخ الاسارى في الجزائر وحتى عن تاريخ سرفانطيس نفسه.

ولايسوغ ان ينكر ان رواية «الفضولى الممل» ذات اصل ايطالي ويكفى ان نتذكر مطلعها الذي يقول: «وفي

فلورنسيا المدينة الغنية الجميلة...» ولقد احسن واجاد في اختيار ايطاليا مركز ثورة وفوران الشهوات ولو كانت الرواية تصح ان تحدث في اي وقت كان وفي كافة البلدان.
اما موضوعها. فهو كما يلي: «انسلموا الغنى المثري مغرم بزوجه كميلا من اجمل نساء فلورنسيا ولكنه يعتقد انه تنقصها الفضيلة، فتقض عليه مضجعه الغيرة ويفضي بلواعج صدره الى صديقه لوطاريو ويطلب اليه بالحاح ان يختبر فيما اذا كانت زوجته تعبث بايمان الاخلاص والوفاء مقابل هدايا ووعود معسولة، فيرفض لوطاريو في اول الامر الا انه ازاء الحاح صديقه يجيبه الى طلبه فتقابله كميلا بالازدراء يبلغ صديقه بالامر فيعاند هذا وكي يفسح المجال لصديقه وزوجته يتظاهر بانه قام بسفر بعيد ثم يعود لوطاريو الى مغازلة كميلا بكل ما اوتي من حرارة الى ان يحدث اخيرا ما كان يتوقع حدوثه وقد قال فيه العالم النفساني «لاتوجد قوة بشرية في وسعها ان تتحمله» وقعت الكارثة فكانت قصاصا لالحاح الزوج الفضولي، ودخلت الزوجة الدير بعد ان رأت نفسها موضوع سخرية وذهب الصديق الكاذب الى حرب فلنديس في طلب

الموت . ويصح ادراج هذه الرواية في صف القصص المثلى نظرا للامثولة التي تلقيها، علينا وقد نظمها سرفانطيس شعرا فقال:

«انما المرأة من زجاج
لا يجوز ان يجرب
ان كانت تكسر أم لا.
لان كل شيء ممكن»

تنبغي الاشارة الى امر وهو انه في هذه الرواية تتلمس الحقائق ذات المغزى الفلسفي البعيد الغور والاخلاق الرفيعة التي في مراعاتها حصلت نجاة العاشقات في الكيخوطي ومن عدم مراعاتها والتظاهر بها سقطت كميلا الى الحضيض في الفضولي. فلهذا لاشك ان الذين يقرأون هذه الرواية الخالدة قراءة سطحية، لايدركون الصلة التى تجمع بين قصة المنتشاوي والفلورنتيني، في حين ان الذين يقرأونها قراءة روحية يكتشفون ان بين القصتين رابطة متينة قوامها قوة جمال لاتجارى وقو علوية سامية ترشد القارىء وتنوره دون ان يشعر وتوصله الى النقطة التي ترفع له النقاب عما قد حجب، عن الامثولة الاخلاقية الغالية العزيزة على قلب النساء على اختلاف طبقاتهن.

لا ريب في ان سرفانطيس قد جاء بهذه الرواية

ليؤكد نظريته في القضية الاخلاقية وفي تأثير المجتمع على المرأة فيما يتعلق بتواطؤ الرجل على عفافها وفضيلتها، كما انها حجر الزاوية في متن الكيخوطي لتنافي وتوازن الاصالة التى تجلت في كل ما يمثله الكتاب في هذا الخصوص وتنعكس عليها صورة الاشخاص الاناث اللائى يقمن بادوارهن في موضوع سرفانطيس.

وفيما يتعلق برواية الاسير فقد تقدمت بنا الاشارة الى اهميتها نظرا لما فيها من المعلومات القيمة عن حياة الاسر وموضوعها: «ان فتى من مقاطعة ليون مولوع بحياة الاسفار يبحر من اليكنتي قاصدا جنوة، فيجول في عدة مدن ايطالية ثم يتجند في جيش ديغو دي اوربينا وبعد ان يساهم في حروب فلندس يعود الى ايطاليا ويشترك في موقعة ليبانطو ويقع اسيرا فينقل الى القسطنطينية وبعد ان يطوف في سواحل افريقيا ينتقل الى ملكية حسان باشا ويبقى في الجزائر وبينما هو ذات يوم في الحمام يبصر قصبة تلوح له فيقترب وتقع القصبة وفيها كمية من النقود، تعاد العملية مرات واخيرا يتعرف الى الشخص المحسن الذي يكرمه ليخفف عنه تعاسة الاسر فيشتري بالنقود التي كانت تعطيه اياها ثريده

ـ وهو اسم المرأة المحسنة ـ قاربا ويخبر اصدقاءه الاسارى بالامر وفي احدى الليالى يغلون ايدي البحار المسلمين ويخطفون ثريدة بعد ان يوثقوا والدها ويتوجهون الى السواحل الاسبانية وبعد ان يواجهوا مصاعب عديدة يبلغ بهم الحال الى غرناطة فتعتنق ثريدة الديانة المسيحية».

تسترعي الانتباه في الرواية الامانة التاريخية ووصف حياة الاسر في الجزائر وقد قال بعضهم ان هذه القصة لاتنسجم مع كتاب سرفانطيس فاخطأوا نظرا لمافيها من الامور المهمة التى تبعث في نفس القارئ الارتياح وتتعلق بحياة المؤلف علاقة مباشرة او بحياة رفاقه في الاسر.

- IIV -

تقليدات الكيخوطى

كتب سرفانطيس بعد ان اتم الجزء الاول من الكيخوطي ينذر بقرب صدور الجزء الثاني وكان وعده هذا سنة 1605 الا انه مرت اعوام ودخلت سنة 1914 دون ان يفي بما وعد به، أإنه راح يعد كتابه على مهل فهذا مما لاريب فيه، وانه لو لم يصدر افيانادا تتمة الكيخوطي لظلت مخطوطة سرفانطيس دون ان تنجز، فهذا اكثر من اكيد. وعلى كل حال، فسرفانطيس كان من المتنبئين عندما تكهن ان رجلا غيره سيواصل رواية قصة الكيخوطي الا انه لم يتفوق في سكبه حيث ان نفس سرفانطيس قال فيه: «لقد كتبه بريشة نعامة غليظة اساء بريها».

فالانذار باصدار حوادث المرة الثالثة لخروج ضون كيخوطي ومرور عدة سنوات في انتظار ذلك الجزء دون جدوى، دفعا بفرنندث دي افيانادا الى كتابة مؤلفه وغايته الاولى تحوم حول الاستفادة من نجاح الكيخوطي

ولدينا في التاريخ شواهد عديدة لمثل هذا الحادث اي ان يشرع احد الكتاب في تصنيف مؤلفه ثم يأتي من ينجزه من بعده وخصوصا في ذلك الوقت الذي لم تكن لتحترم فيه حقوق التأليف .

ولئن قوبل كتاب سرفانطيس بمؤلف دي افيانادا لما شك احد في ان هذا الاخير ادنى بكثير من ذاك ولقد قال سرفانطيس في مقدمة الجزء الثاني ملمعا الى كتاب خصمه: ما حسن قط مطلب ثان» ولم يتوفق احد الى عبارة اصدق من هذه. ويقول مونتيانو ولويندو في مقدمة طبعة الكيخوطي الصادرة عن مدريد سنة 1732 : «ما من رجل حكيم ينحاز الى جانب سرفانطيس» انها لعبارة مغرضة الى ابعد حد كما ان حكم ميانس غير صائب في سيرة سرفانطيس عن اسلوب افيانادا بقوله انه: «محشو بالسرقات والعبارات التي لاتمت الى اللغة الاسبانية بصلة وهو اسلوب خشن مضطرب وصفوة القول انه اهل لكل ازدراء» ومما لاريب فيه ان كيخوطي دي افيانادا لايمكن ان يقارن بكيخوطي سرفانطيس وهذا لايعني انه خال من كل قيمة ادبية. ولم يقم ناقد ادلى برأيه في الكيخوطي الملفق دون تحيز وباخلاص واصالة رأي مثل

العالم الاسباني الشهير مننـدث اي بلايو حيث قال: «النكتة خشنة ولكنها غزيرة وبديهية، القوة الهزلية همجية ولكن لاينكر لها وجود، والمحاورة وان كانت حبلى بالبلاهة التي تشمئز منها النفس لدى قراءة كل صفحة، فهي خاصة ومناسبة للشخصيات الرابلية(1) التي ادخلها الروائي في سير الحوادث واعطى كلا منها دورا، واما ما يحط من قيمة مثل هذا الكتاب وينزله الى اسفل الدركات لا بالنسبة الى الكتاب العبقري الذي دنسه دي افيانادا عن بلاهة فحسب بل بالنسبة الى امور كثيرة من خاصيات ذلك الزمن لا تتعدى حدود الابداع والتسلية، ومنها الفكرة المنحطة المسكينة التي يقدمها المؤلف عن الحياة، وابتذالية افكاره وغياب كل مثل اعلى وكل سمو جمالي وتمرغه في كل ما هومزنخ وقبيح بلذة وانشراح طبيعيين، والاعتناء الذي يكرسه لكل ما هو غشيم ولكل ماهو دنيء ومهوع من وظائف الاعضاء التي يتركب منها الجسم الحيواني. ليس هو بالكتاب الخلاعي المتهتك لان هذا مما لا يرضاه زمانه وطبائع سلالته ولكنه كاتب الاقذار ومن انتن الكتاب الذين يمكن ان يعثر عليهم رائحة».

---

(1) نسبة الى المؤلف الفرنسي الشهير «رابلي»

ولقد مرت ثلاثةقرون وما زال الاسم الحقيقي لمؤلف الكيخوطي الملفق مجهولا كجهله عند ماكتب سرفانطيس: «لو ساعد الحظ واهدى الى معرفة المؤلف» وكما يقرأ في آخر الجزء الثاني أو في تلك العبارات التي جاءت في المقدمة: «لا يتجرأ على الخروج الى الحقل المفتوح ولا ان يظهر تحت السماء الصافية الاديم، لقد أخفى اسمه وجحد وطنه كأنه قد اقترف جريمة الخيانة ضد شخصية الملك. لئن ساعدكم الحظ واهتديتم اليه ...».

وأورد الكتاب والنقاد أسماء لا تحصى ولا تعد الا انه قد تعذر عليهم جميعا الاتيان بالادلة التي تفي بالغرض المطلوب وتكشف عن هذه النقطة العمياء وصفوة القول انهما من احد يقدر ان يدلنا على الكاتب الذى تستر تحت اسم فرنندث دى افيانادا لاصدار الجزء الثانى من الكيخوطي، ومع هذا فقد اتفقت الاراء على ان مؤلف الكيخوطي الملفق انما هو احد المؤلفين المسرحيين ومن ألد أعداء سرفانطيس.

بات كيخوطي فرنندث دي افيانادا في عالم النسيان أكثر من مئة سنة ـ رغم أنه لم يلق في عصره نجاحا ـ الى ان ترجمه الى الفرنسية بل حوره لاساج ويرجع

الفضل في نجاحه عندئذ الى ما أضاف عليه هذا لا الى ما أودع فيه دي افيانادا ، وما أضافه الكاتب الفرنسى وما اقتبسه عن الجزء الاول من كتاب سرفانطيس، حمل على الاعتقاد بان سرفانطيس في الجزء الثاني نقل عن كتاب خصمه الامر الذى أوضحه مننذث اى بلايو في مقابلته بين المؤلفات الثلاثة ضنا بسمعة صاحب الكيخوطي الاصيل. وستظل هذه القضية المعقدة على ما هى عليه من ابهام وغموض ريثما يعثر على وثيقة تزيح اللثام عن شخصية خصم سرفانطيس بالضبط.

وأما المؤلف الذى وضعه صاحب الاسم المستعار فرننذث دى افيانادا فهو أول تقليد للكيخوطى فيما اذا استثنينا المطبوعة الكاذبة الصادرة سنة 1609 عن باريس تست عنوان: «مقتل الوفاء والدفاع عن الشرف» وهي قصة مقتبسة من حكاية مرسالاو الراعى كريسستمو ومطبوعة باللغتين الفرنسية والاسبانية ، غايتها تيسير تعلم اللغة الاسبانية للطلاب.

وأصدر الكاتب الفرنسى سورل ده سوفينى سنة 1627 مؤلفا من أتفه المؤلفات في هذا الموضوع، عنوانه: «الراعي الشاذ» وهو انتقاد للروايات الطبيعية الدارجة

آنئذ وأصدر فيما بعد كتابين في أحدهما بعض مقاطع تصح مقابلتها بكتاب ،سرفانطيس اذ ان صاحبه عند ما ألفه كان ينظر الى هذا الاخير .

ومن افضل المؤلفات التي صدرت خارج اسبانيا كتقليد للكيخوطى المؤلف الذى نشر في انكلترا تحت عنوان: «الهيد برس» لصموئيل يولثر، صادف هذا المؤلف الشعرى الذي ظهر سنة 1663 و1664 و1678 في ثلاثة أجزاء قبولا منقطع النظير وترجم الى الالمانية والفرنسية، وأعيد نشره سنة 1819 وفي هذه الطبعة التى صححها غريس وقعت الاشارة الى المقاطع التي من بنات أفكار سرفانطيس .

لئن كان «الهيد بريس» أحسن تقليد في الانكليزية لضون كيخوطي فتاريخ ضون كيخوطى دي لامانشا الذى ألفه فيلو دي سان مارتان وطبع جزءه الاول سنة 1695 وجزءه الثانى سنة 1713 أبدع تقليد في الفرنسية.

وظهرت سنة 1697 في امستردام طبعة كاذبة للكيخوطى بان فيها قصر باع المقلد واخفاقه في الدخول الى نفسية الابطال، ونشر سنة 1710 في باريس كتاب مقتبس من كتاب سرفانطيس. وتحت عنوان خلاب طبعت في باريس سنة 1713 كراسة شعرية ذات اربعين بيتا

لاغير من تأليف طميزل دي سان ياسنت المعروف بالدكتور متاناسيوس كلها اطراء ومدح للمؤلف ولمؤلفه وقد كتبت بالعبرانية واليونانية والفرنسية واللاتينية والانكليزية والهولندية الخ وهي هجاء لاذع مقتبس من مقدمة الجزء الاول لضون كيخوطى حيث يسخر سرفانطيس من أشعار المديح التى تظهر في مقدمة امهات كتب عصره وخصوصا في كتب لويس دي بيغا .

وظهر سنة 1734 في لندن كتاب يقدح في الادب المحموم كقدح سرفانطيس في أدب الفروسية وأعمال بطل ذلك الكتاب شبيهة كل الشبه بأعمال بطل سرفانطيس، وصدرت في باريس سنة 1737 طبعة لهذا الكتاب ثم سنة 1757 ترجم الى الايطالية نقلا عن الطبعة الفرنسية الطافحة بسيرة سرفانطيس لانها مقتبسة من كتابه كما يدل على ذلك عنوانها وهو: ضون كيشوط فرنسوا، وقد جن بطلها من قراءة كتب الفروسية. وأشخاصها هم نفس أشخاص ضون كيخوطى من أوجه عديدة .

وأخذت تتوالى الكتب التى تنظر الى ضون كيخوطى حتى سنة 1914 الا اننا نضرب صفحا عن ذكر عدد كبير منها، مكتفين بالقدر الذى سجلناه .

- IIIV -

ضون كيخوطى فى المسرح

لقد قدمنا أن أعمال أبطال الفروسية تسربت الى أكواخ الرعيان كتسربها الى قصور الاعيان ووطئت اعتاب الزرائب كما تربعت في صدر المسارح فقوبلت بالترحاب، فلماذا لايسوغ اذن ان يحمل الرحالة المنتشاوي على نفس المحمل؟ ولئن كان راي دى ارتيادا ، ولوبي دي فيغا ، وبيرث دي مونطالبان وروخس ثوريا وكلديرون دي لابركا وغيرهم لم يانفوا من استغلال مواضيع الفروسية للمسرح فلماذا لا يصح للبلنسى غيان دى كسترو وللمدريدى فرنسيسكو دي افيلا حمل الحكيم المجنون الى خشبة المسرح ايضا؟ وعلام لاينبغي ان تظهر على المسرح شخصية الرحالة الكريم وقد سبقته الى الظهور شخصيات زملائه؟ هذا ما مر في خلد مؤلفي المسرحيتين اللتين عنوانهما: «الكوندي دي ايرلوس» و«التسابيح الميلادية والاناشيد الطريفة» فألف احدهما مسرحية «ضون كيخوطي دي لامانتشا» وصنف الاخر مسرحية «اعمال

ضون كيخوطي دي لامانتشا التى لاتجارى» ومع هذا فيمكن القول انه لو كان وصف العبقري الخالد بطله على الشكل الذي اوحاه خيال فيلثيانو دي سلفا المحموم لما فقد كتاب سرفانطيس شيئا ولكن نظرا لكون الكيخوطي هو دراما عالمية لسائر الاوقات والازمان، لكافة البلدان وعموم ابناء آدم، دراما تصف الفرق بين ما يدرك الفكر الشامخ وما يطمع اليه القلب الكريم وبين ما يقبله ويرضاه العالم المسكين. فكيف تحمل هذه الشخصية الساحرة الشعرية الى خشبة المسرح؟ وكيف يمن ان يشعر المشاهد بوجود عزة النفس والبطولة اللتين تسيران مع الدم في عروق النبيل المنتشاوي؟ وتقرأ اليوم المسرحيات عن سحر دي مرلين، وعن اماديس دي غولا، والمركيس دي منطوا وغيرهم فلا يعثر فيها الا على حب القتال وكبرياء البطل، أهذه هي الحال في المسرحيات التي يظهر فيها المنتشاوي المغرم؟ هل استوت الحال بين الدراما والرواية؟ كلا، لانه تفصل دين الواحدة والاخرى هوة سحيقة.

ولقد قام بتمثيل دور ضون كيخوطي اشهر الممثلين ومنهم انجم سينمائية فلم يتوفق حتى ايروين نفسه

معماوهبته السما من عبقرية الى حمـل المتفرجـين على نسيان لذة الكتاب وُقرائته ولا استطاعت الشاشة البيضاء بدورها ان تمحو من ذاكرة الذين تمتعـوا بمطالعـة الرواية الاثر البليغ الذي تركته فيهم.

وعند احد المؤلفين المعاصرين يتعذر تعذرا كليـا نقل الكيخوطي الى خشبة المسرح لان هذه الشخصيـة الفذة التى اوجدتها العبقرية تفقـد كل عظمتها ويعـود السبب في ذلك الى ان صورة الرحالة الشهير لاينبغـي ان يتأملها البصر فحسب بل والخيال ايضا. وتنقلب شخصية الرحالة عند انشاد الاشعار او ساعة التغنى الى سخريـة تنـال من سمو ابـداع سرفانـطيّس، ورؤيتهـا علـى اللوحات والتماثيل حملت على الهتاف: «يراد فيها تشبيه ضون كيخوطي» وكلمة يراد يقصد منها بجلاء انه ينقصها شيء لتصبح هى هو بذاته، وهذا الشيء ما هو سوى تلك العبقرية الخاصة التى اوحت الى سرفانطيس روايته الفخمة، فضون كيخوطي ككتاب يمكن ان يكـون معينا غزيـر المادة للاستلهام، ولكن ضون كيخوطى، شخصية، لاينبغى ان تمسها الايدي البشريـة.

وتحتوى هذه الرواية الفاخرة على موضوعات لا يحصى لها عدد، يمكن ان تنقل الى خشبة المسرح الا ان المقدرة تقوم على ان لايظهر قط ضون الونصو كيخانو وان لايبين مجسما في شخص ما، وذلك ان كل شخص قد خلق في مخيلته صورة لهذا الفارس العالمى فاذا ما قابل الشخص الذي خلقه في خياله بالشخص الذي يظهر امام عينيه اي اذا ما تحول الشخص المثالي الى شخص وضعي فقد قيمته الروحانية ولما كان ضون كيخوطى روحا فوضعه قبالة الانوار المسرحية يجرده من السحر الذي يتاثر به في الرواية. ومن المعلوم ان ما من مسرحية ظهر فيها مغرم دولثينايا وارضت الجمهور والنقد ارضاء تاما وهذا مما لا يعسر فهمه حيث انه يتعذر على خشبة المسرح تلمس اهم الصفات التي تبعث على الاعجاب والدهشة لدى دراسة ضون كيخوطي وهى ما يراه عقل هذا وما هو ذلك المرئى في الحقيقة.

ولقد اسلفنا ان ضون كيخوطى صادف نجاحا عظيما وقد يكون هذا هو السبب الذي جعله ينتقل الى خشبة المسرح بعد ظهوره بقليل ويحتمل ان يكون

سرفانطيس سمع بطله ينشد اشعار المؤلــف المسرحــي البلنسي الشهير· غيان دي كسترو، صاحب مسرحية «ضون كيخوطي دي لامانتشا» وللدلالة على اعجاب الشاعر بكتاب سرفانطيس نذكر انه وضع مسرحية اخرى مع بلفيس مقتبسة من ضون كيخوطي وحمل الى خشبة المسرح روايــة «الفضولى الممل».

ولم ينهل المؤلفون المسرحيــون الاسبــان فحسب من معين كتاب سرفانطيس بل حذا حذوهم المؤلفون الفرنسيون والهولنديون والايطاليون ولكن مسرحياتهم لم تلق نجاحا يستحق الذكر حيث ان التى ظهر فيها ضون كيخوطى كبطل كان ظهوره منها اقرب الى الهزل منه الى شى آخر وسانتشو رجل مجنــون كسيده ولــم تبد قط عزة نفس الفارس ولا مكر وسذاجة حامل درعه وحتى المنطق الذي انطقوا به الاشخاص لايتناسب بوجه من الوجوه مع المنطق الــذي استعمله سرفــانطيس الا في قليل من المواقف.

- IX -

الصحــافة وضون كيخوطى

كتب سرفانطيس في روايته الخالدة انه لن يمضي زمن طويل الا وتصبح ذات شهرة واسعةالاعمال الموصوفة في كتابه العجيب وتكتسح اشخاصه مقاما شعبيا رفيعـا ولما لم يكن للصحافة وجود في ذلك الحين لم يستطع ان يجزم انه مع ممر الايام سوف تصدر مجلات اسبوعيـة تحمل اسمي الرفيقين اللذين لم تنفصم قط الروابـط التى جمعتهما، وتشهد على شعبيـة مؤلـف سرفانطـيس الكتب العديدة والرسوم والتماثيـل الراميـة الى اعـلاء وتخليد ما انجلته مثل هذه العبقرية، ولقد كتب منندث اي بلايو يقول في هذا الصدد : «ان البهيمتين اللتيـن ركبهما ضون كيخوطي وسانتشو والارض التى وطأتهـا اقدامهما والاماكن التى ولدا فيها باتت خالدة مخلدة»

وليست بطويلة لائحة الجرائد والمجلات التي تذكر اسماؤها بكتاب سرفانطيس الا انها تدل على ان المقـام السامى الذي تربع فيه الكتاب لم يقتصر على اسبانيـا

فحسب بل انه تعداها الى الخارج حيث ساهمت كثير من المنشورات اليومية والاسبوعية في اكساب مؤلف سرفانطيس شعبية مترامية الاطراف بعيدة المدى ممتدة الصدى.

واسبق العواصم الاوربية في هذا المضمار كانت مدينة لندن اذ صدرت عنها اول جريدة سنة 1803 تحمل اسم «الانبيغو» التى ظلت تصدر بهذا الاسم حتى سنة 1818، ثم اجرت تحويرا واصبحت منذ صدور عددها التاسع عشر تعرف ، بالانبيغو او ضون كيخوطى دي لامانتشا الجديد ثم اخذ في الشيوع استعمال اسمي ضون كيخوطى وسانتشو وظهرت في مناسبات مختلفة في فرنسا والمانيا وايطاليا الخ مجلات اسبوعية وشهرية ونصف شهرية باسمهما بل وكان بعض كتاب الجرائد التى ظهرت في برشلونة ومدريد يوقعون باسماء مستعارة هى اسماء لاشخاص رواية الكاتب الاسبانى المبدع.



- X - .

الكخيوطى

والنقــد الوطنــى والاجنبــى

سبقت بنا الاشارة الى النجاح المنقطع النظير الذي لاقاه كتاب سرفانطيس والى كون الطبعات ـ سواءً بلغته الاصلية او باللغات الاجنبية ـ عديدة تترى، الا انّ النقد لم يشرع في اعلاءً شأن مؤلف كهذا من حيـث النبوغ والابداع حتى اواسط القرن الثامن عشر. وقد يعترض معترض فيقول انه في غضون القرن السابع عشر اطرى عليه من الاسبان فاريا وسوثا ونيقولاس انطونيو ومن الاجانب دانيل هيــت وسان افريمونــد فتس واحسنوا الثناءً عليه ومدحوا مؤلفه الخالد، ومــع هــذا فيقتضــى الالماع الى انالنقد السرفانطى الحقيقى ابتدأ في اسبانيا مع ميانس وذلك سنة 1737، وفي الخارج مع مترجم ضون كيخوطى ب. آ. ر. موتيه سنة 1700.

وينقسم النقــد حسبما لاحظنــاه ونحــن في دراسة الرواية الخالدة الى لغوي ونفسانى، فالاول من خصائص

الاسبان محضا ومع وجود اجانب لهم اطلاع واسع على اسرار اللغة الاسبانية، وطرق تعبير سرفانطيس، لم يكرسوا مجهوداتهم لدراسته كما فعل كليمنثين وكلديرون وكورنيخون ورودريگث مرين الخ ونضرب صفحا عن كافة النقاد الاسبان واقوالهم في سرفانطيس وروايته التي تتجلى فيها روح العقبرية الصرف لنورد رأى شيخهم ومعلمهم دون ما منازع الا وهو مننديث اي بلايو الذي كتب في معرض بحثه عن الكيخوطي هذه السطور:

«صارع سرفانطيس ضد هذا النوع من ادب الفروسية الكاذب التافه مستعملا كل معدات سخريته الرؤوفة ممزوجة بالحب والشفقة، الامر الذي جعله متفوقا لايقهر ولايطاق في مضمار هذه الفكرة الخاطئة العديمة الاركان عن المرأة التي نصبت صنما ـ زائلا ـ يعبد عبادة مدنسة ومستحيلة. هذا ما ضحى به الى الابد سواء عن طريق المثل الاعلى المستحب في دولثينايا وسواء عن طريق الحقيقة الخشنة في مريطورنيس.

«وفي معرضه النسائي الحافل اظهر في دورتيه وفي ثريده وفي ضونيا كلارا مقدار الملاحة والغرام والحنان في نفس المرأة ضمن شروط الوجود المعقولة. فهذا النشاط الجامح

الذي لاحدود لمدلوله، المجرد من كل نظام اجتماعي ومن كل غاية حكيمة، هو ما جسّده في شخصية مجنون علوي، الذي انما هو لـكذلك من قراءة كتبه ومن الصوفية الدائمة التي تحمل النفوس الخيالية على لبس رؤيا الفن برؤيا الحياة. اما ضون كيخوطي فلايثير فينا الاسف فحسب بل الاجلال والاعتبار: الحكمة تجري في كلماته العسجدية، ويتأمله القارئ باحترام وضحك في آن واحد، كفصل حقيقي وكاضحوكة للبطولة، وحسب العبارة الموفقة للشاعر الانكليزي وردسوث. ان اصالة الرأي قد عششت في اعماق موئل جنونه الفخم. واما دماغه فهو كناية عن عالم اسمى حيث تنعكس عليه مكبرة، اسطع اوهام الادوار والاطوار الشعرية التي ما ان تحتك احتكاكا عنيفا بالعالم التاريخي الا وتفقد ما تضمنته من افك وخطر وتنفك عقدة لغزها في مرتبة الهزل العليا من غير مرارة، بفضل التأثير النفعي المطهر للضحك. وكما ان نقد كتب الفروسية كان حجة لاسببا اساسيا لخلق خرافة الكيخوطي فهكذا بدأ بطل الرواية كسخرية رؤوفة لاماديس دي غولا، الا انه سرعان ما حلق بجناحيه وارتفع فوق مثل هذا الدور. ومن حق مؤلف اماديس

ان يفصل باعتناء عن جمهرة تباعه حيث انه قام بعمل لا يقتصر على كتاب في الفروسية مقلدا لاولئك الذين عاشوا تحت سماء بريطانية فرنسة، فلقد كتب اول رواية مثالية سامية عصرية هي مذهب للفارس الكامل، وملحمة الاخلاص والوفاء للحب، وقانون للشرف والادب وهي التي ساعدت على خلق نظام اتبعته وراعته عدة اجيال. وما من بطل روائي فرض الاعجاب بشخصيته على الناس بمثل هذا القدر من البهاء والفخفخة كبطل مؤلف اماديس قبل ان يظهر ضون كيخوطي. ففي هذا الاخير يعيش اماديس ثانية الا انه يحطم ما في نفسه من مصطنع ليوطد ما فيها من ازلي، ولاتمس باذى الفكرة العليا التي تسخر العضو المفتول المسلح لخدمة النظام الاخلاقي والعدالة، الا ان غشاوتها المؤقتة تتوارى وقد استحالت الى الف شظية من جراء ملامستها الخشنة للحقيقة الدائمة النقص البعيدة عن الكمال الدائمة الحدود ومع هذا فهي في طور الانبعاث اقل كمالا وحدودا وخشونة منها في القرن الوسيط.

ابصر «ضون كيخوطي» النور في فترة حرجة بين عالم تتداعى اركانه وآخر اخذ يطل على الحياة من خلال حركات غير منتظمة فاذا هو يتأرجح بين التعقل

والجنــون بدافع انتقال مستمر مما هو مثالــي الى ما هو حقيقى ولئن نظر اليه نظرة واعية لثبت ان جنونه ما هو سوى خبل وهمي بالنسبة الى العالــم الخارجــي وبعبارة اصح، ما هو الا تكييف وتفسير زائف للوقائع الحقيقية، اذ في اعماق دماغه الطاهر لا تــزال تسطع في وميض لا تخبو له جذوة تلك الافكار البلورية الازلية السعيدة التي يتحدث عنها افلاطون . وهذا وان تـرك سرفانطيس الحـدود غير واضحة بين التعقل والجنـون والقاء افضل الدروس الحكمية على لسان مخبول ما كانا ليحسبا مــن حيــث السداد والاصابة باقل توفيقــا من الامور التي ولج بابها وابدع. ولم يقصد بهذا السخرية من الذكاء البشري. لا ولاتشنيع البطولة التي ما كانت لتبدو مضحكة قط في الكيخوطي لولا الطريقة غير المناسبة التي يستعملها البطل لتحقيق مثله الاعلى الجيـد في حد ذاته. وليس التطلع الى المثـل الاعلى مــا يحمل ضــون كيخوطى على الغضب بل الفردية الصاخبـة الجامحة. ولا يكدر عليه صفاءه وينزله منزلة المجانيــن سوى تلــك الفـكرة الخاطئة عن النشاط وهي التي تدفعه الى منازلة العالم باقدام وجرأة وتجعل فضيلته ومجهوده كـلاشيء.

يخر ضون كيخوطى صريعا في النزاع بين الحرية والفاقة لعدم ملائمته مع محيطه غير ان انكساره ليس الا في الظاهر لان امانيه النبيلة لم تمس باذى، وسوف تتحقق في عالم افضل حسبما انذر به احتضاره العاقل المسيحي الى اقصى حد. ولئن كان هذا نوعاما رمزا في الواقع فيتعذر نكران انه لكذلك بالنسبة الينا وعليه يدور معظم اهمية الكيخوطي من الناحية الانسانية، الا انه في نظر المؤلف لا اثر لمثل هذا الرمز بل هو مخلوق ذو حياة كله جمال وروح، هو ابن مخيلته الشعرية المختار، يفرح بـه ويخلع عليه ابـدع صفـات الكائن البشري وابهاهـا. ولم يؤلف سرفانطيس الكيخوطى بالطريقة الرمزية الباردة الآلية وانما الفـه بعد ان رأى هذه الطريقة تصعد صعودا مع شعاع العبقرية البديهى المفاجئ فاقتفى اثره وسحرته بهرجتـه ثم توصـل الى الرمز من غيـر ان يبحث عنه او يتعمده واستنـزف المكنون الروحى الذي في البطل. رأى سرفانطيس الجمال فاحبه ومتع به ناظريه واما ما تبقـى فقد جاءه صاغرا وهذا ما جعل من خرافة فكاهية كان قد ابتدأها كسخرية ادبية لا لسائر انواع ادب الفروسية بل لنوع خاص منه

تتحول بحكم الضرورة المنطقية الى قدح في المثل التاريخي السامي الذي تحدثت عنه تلك الكتب وتواصل تطورها في حلقة من المضادات البهية غير المنتظرة فلا تقتصر على تمثيل الحياة الوطنية تمثيلا كاملا ومنسجما في فترة اوجها المترامى وانحطاطها المهدد بقرب الاناخة، بل تعدتها فاذا بها ملحمة هزلية لبني البشر وكتاب الضحك والحكمة الخالد»

❀ ❀ ❀

واما النقد الاميركى لكتاب سرفانطيس فحديث العهد جدا، ففى اميركا الشمالية تنبغى الاشارة الى تعليقات تيكنور وبسكوط وشيفل الاستاذ العالم في جامعة بركيلى، وفي اميركا الوسطى تستحق الذكر دروس سلدياس وفي اميركا الجنوبية ابحاث فورس ثيبايوس ومونر صانص غير اننا سنأتى على ذكر نبذ مما قاله الناقد الشهير امينادورو اوردنينا الذي يعد اقدر وابرع دارسي سرفانطيس في اميركا الاسبانية : «وكما ان هوميرو انتصب بين الشرق والغرب لاشادة حاجز ازلي يفصل بين الابهام السري المسيطر على الديانات الاسيوية والالاهات الكثيرة العدد المطبوعة كل منها بطابع خاص مميز رغم

كثرتها، التي كانت تغص بها سماء اليونان، فقد انتصب كذلك سرفانطيس بين العصر الوسيط والعصر الحديث اي بين عالمين، احدهما قاتم غير ثابت مفعم بالابهام والثاني ساطع الضياء راسخ على اساس التعقل والسيادة الشعبية لقد شرب هوميرو نخب عصر الفن وحياة القوة الجسدية والقوة الاخلاقية، وهيأ العالم اليونانى لفتوحات الاقدام والذكاء، واما في حضرة سرفانطيس فتضمحل الاساطير وميتولوجيا العصر الوسيط الهائلة بما فيها من اقزام واغوال ومردة، ويبقى بلا نفس ولا حياة ذلك النوع الادبى المضحك الذي تبناه، ثم تظهر اشعة الفن وتنجلى قوة فاعلية الذكاء لتنير السبيل امام عبقرية الكاتب المرح، فخر الانسانية الذي انما كتابه لملك العقل السليم والذوق السليم وحقل الشعور الحصين ومشعل الشعر الحقيقي... ضون كيخوطى هذا الكتاب هو التعليق على تاريخ البشرية، وعالميته تشمل كافة العصور والوانه تنعكس على كافة الوجوه من اعلاها الى اسفلها... ولم يكن الكيخوطى قط ذلك النقد الفارغ التافه لعيوبنا وشهواتنا بل هو ارفع مقصد واسمى غاية يرمي اليها

الشعر فهذا الذي صانه وجعله يعلو على الحدثان ويظل دائم الطرافة في سائر الازمان الخ..»

ورغم كون الكيخوطى لم يترجم في الروسيا حتى سنة 1769 ورغم وجود دراسات ذات اهمية لا بد من الاشارة الى بحث قيم لتورغينف تحت العنوان الاتى: «هملت وضون كيخوطي» نقتطف منه هذه السطور: «ان لظهور هملت وضون كيخوطى في آن واحد مغزى كبيرا فهاتان الشخصيتان هما جيد الطبيعة وقفاها، هما قطبان تدور عليهما الارض. او لاينتمى كافة ابناء البشر الى هاتين الشخصيتين؟ أليس فينا شيء من ضون كيخوطى وشيء من هملت؟ ومن المؤكد اليوم ان وجود هؤلاء يتعدى بكثير كل حساب غير ان اولئك لم ينقرضوا بعد وسبب هذا انه في كافة العصور والازمنة سيكون طريقتان للتفكير او لادراك المثل الاعلى: احدهما تضعه خارج نطاق دائرة الطبيعة البشرية، والثانية تنزله داخلها ويمكن ان يقال اما «الانا» الذي تفضله اما «الانا» الذي تعزه نوعا فهاتان الطريقتان للتفكير في المثل الاعلى قد التقتا في شخصيتين مختلفتى الاطوار والطبائع الى حد بعيد كما هما عليه هملت وضون كيخوطى

فبادئ ذي بدء علينا ان نقضي على تلك العادة المألوفة في ان لايشار الا الى شريف المانتشا، الى الفارس المشاء، الى دي السحنة الكئيبة، الشخصية التى خلقتها مخيلة الشاعر ليسخر خاصة من روايات الفروسية. اجل انا نعلم ان اهمية هذه الشخصية ارتقت في رعاية وتحت ظل عظمة من خلقها وابتدعها كما نعلم ان ضون كيخوطى في الجزء الثاني من الكتاب انما هو سمير الدوقيين والدوقييات والمشير الحكيم لحامل درعه وخادمه وليست له ادنى علاقة بضون كيخوطى الذي في الجزء الاول.

فلفهم طبائع المشاء الشهير يتحتم الامتزاج الكلى بروح الرواية، فضون كيخوطى هو قبل وفوق كل شيء شعار ورمز، رمز للايمان ولكن للايمان الخالد الازلي نوعا، للايمان الذي لايموت ولايتحول، للايمان بالحقيقة الخالصة الطاهرة التى تعلو على الفرد، الحقيقة التى تتطلب التضحيات والتى تبلغ على اثر كفاح طويل ونكران ذات قوي. وضون كيخوطى هو ذلك الرجل المشرب بحب المثل الاعلى ولكى يتوصل اليه تراه على استعداد دائما وابدا لتحمل كل انواع الازدراءات ومقاساة مرارة الحرمان، انه لعلى اهبة التضحية بحياته انما الغاية الوحيدة

منها هى انها تفسح له المجال للسعي وراء ذلك المثل الاعلى ضنا منه في نصرة العدالة والحقيقة. فما يهم ان يكون ما اوحى الى البطل هذا المثل الاسمى هي مجموعة الخرافات التى تقرأ في كتب الفروسية؟ فلو عاش ضون كيخوطي لنفسه لحسب ذلك مخلا بمروءته، فلذا قد عاش خارج نفسه تماما قد عاش لامثاله، لابناء جنسه، لتخفيف وطأة الشر، لمنازلة اعداء البشرية: المردة والسحرة اي مضطهدي الضعيف. ضون كيخوطي لايعرف للانانية معنى ولا يفكر بنفسه ولا يشعر الا بالتضحية وبنكران الذات، انه لرجل مؤمن يتقدم برباطة جأش نحو المثل الاعلى دون ان يلتفت لاشمالا ولايمينا، فلهذا هو صبور، ناكر لذاته، حقير اللباس، لايشعر بدافع يحثه على طلب حاجياته، سليم القلب ويملك نفسا جبارة شجاعة، وقد يظهر مجنونا اذ ان الواقع يذوب كالشمع على حرارة الحماس فلذا يتوهم قطعان الغنم فرسانا مدججين بالسلاح. وفي بعض الاحيان يبدو كانه اقل من الوسط، رجل عادي نظرا لبهتته في مواضع الشفقة او الفرح وسبب هذا لانه يصعب عليه خاصة ان يقفز سريعا من امر الى آخر، انه لشبيه بالشجرة المسنة التى لاتسمح جذورها بنقلها من مكانها.

ومتى كون ضون كيخوطي فكرة عن امر مايستحيل ان يغير رأيه، ورسوخ اعماله الاخلاقية يكسب افكاره قوة وجلاء كما يكسب عباراته التضحية بالذات بغض النظر عن المواقف المضحكة التي يقفها في كل آن وحين.

ضون كيخوطي رجل فقير الحال وفقره يكاد يكون مدقعا، موارده محدودة وعائلته قليلة، انه لشيخ يعيش دون معين ولما كان عبد نفسه كلفها امر اصلاح الامور المعوجة والدفاع عن المضطهدين لغرابة هذه الامور في نظره، فما ان يهمه لو ان فاتحة اعماله الفروسية انزلت على رأس بريء اراد الدفاع عنه مصيبتين بدلا من واحدة وهكذا كان فعند ما يخلص لانديس، من القصاص الذي فرضه عليه خوان هلدودو لم يمر بباله انه متى ذهب سيضاعف السيد قصاص الفتى. ولا يترك في نفسه اثرا قيامه بمهاجمة مطاحن هوائية مفيدة بدلا من مردة جبابرة وقد يطرب القارئ العادي ويصفق لما هو مضحك في الكتاب لا للمعنى العميق الذي يتضمنه وان كان ايمان ضون كيخوطي وسذاجته يقودان الابتسامة طائعة صاغرة الا اننا نتساءل: من ياترى في وسعه ان يؤكد بعد ان

يفحص ضميره فحصا دقيقا، انه دائما وابدا قد توفق الى تمييز طست الحلاق من خوذة مهبرينو؟...

ولئن قوبل سانتشو بنشا ببولونيو لابدى الاول ناحية مختلفة كل الاختلاف عن الثاني، يضحك سانتشو من سيده ويعلم انه مجنون الا انه يترك بلدته وعائلته مرتين ليلتحق به متحملا منه كل انواع الازعاج ويظهر مخلصا امينا حتى ساعة احتضار ضون كيخوطي وله به ثقة عمياء ويبكي على اقدام السرير الذي اسلم فوقه الروح سيده ولاينبغي لنا ان نبحث عن هذه الثقة العمياء في المنفعة لان سانتشو رجل يحسن وضع الامور في اماكنها ويعرف ان ضون كيخوطي لن يلقى سوى لكمات وعصوات، ولكن امر هذه الثقة يخضع لهدف اسمى وهذا الهدف هو ما يتكون عند العامة لدى اعتناقهم قضية مشرفة عادلة اعتناقا اعمى ولسانتشو مواضع عمى اخرى كتحمسه لكل ما هو سام وكبير حتى لينسى كل ما يهمه وهذا يعنى نسيانه لكل ما هو ضروري...

ضون كيخوطي يحب ومحبوبته آنسة خيالية اسمها دولثينايا دلطوبوسو وعلى مذبح حبها يقدم دائما وابدا

حياته قربانا وعند ما يرى نفسه مغلوبا وتضغط عليه ركبة قاهره، يصيح: «دولثينايا دلطوبوسو اجمل امرأة في العالم وانا اتعس فارس على سطح الارض، فليس من المروءة ان يغبن وهني هذه الحقيقة، لزايها فارس بالرمح وانتزع منى الحياة ما دمت قد جردتنى من الشرف».

المشاء الرحالة الشهير يحب وحبه علوي طاهر لدرجة لايشك معها قط بعدم وجود مدلول حبه وعند ما تجيئه محبوبته وقد تحولت الى فلاحة قذرة، لايصدق ما تراه عينه ويؤكد ان ذلك التحول انما هو من عمل الساحر الشرير. ولقد شاهدنا كذلك في الحياة اكثر من رجلين يضحيان بحياتهما من اجل دولثينايا الخيالية ومن اجل شيء كبير في معتقدهم عظيم وجميل وعند ما اضمحلت اوهامهم واصطدموا بالحقيقة عزوا ذلك التحويل الى الاشرار والى الكوارث بل والى السحرة..

وقال احد اللوردات الانگليز ان ضون كيخوطي انموذج الشهماء ولئن كانت الاداب الرزينة والبساطة من حلى الرجل المؤدب فضون كيخوطي اول من يستحق هذا اللقب..

يعرف ضون كيخوطي كيف يحترم كافة المؤسسات: الديانة، طبقة الاشراف، الملكية وفي نفس الوقت يتوق الى الحرية ويعترف بحرية امثاله من بني البشر.

❀❀❀

وجهت الى سرفانطيس عدة انتقادات لكثرة العصوات واللكمات التي جعلها تنهال على عاتق البطل المشاء، واما في الجزء الثاني من الكتاب فلا يضرب قط الا انه في آخره بعدان يقهره الفارس ذو الهلال الابيض ويحمله قسرا على التخلي عن مهنته، وقبل ان يموت بقليل، يجعله عرضة لان تدوسه الخنازير فهذا المشهد دفع الكثيرين الى توجيه انتقادات مرة الى سرفانطيس واتهموه بتكرار سخريات سابقة الا ان الانتقادات في غير محلها نظرا لكون هذا المشهد يلقى نورا موضحا على عبقريته الموفقة كل التوفيق اذ انه ينم عن معنى عميق وهوان امثال الكيخوطي يداسون بالاقدام وغالبا ما يكون ذلك في آخر عهدهم، وما هذا سوى ضريبة لامفر لاصحاب الرسالة من دفعها الى الغريزة الفظة، الى ذلك الجمهور الجاهل الذي لايفهمهم ويبيت وكان الامر لايعنيه، هذه هي صفعة الفريسي التي بعد ان يذوق طعمها الكيخوطيون

يمكنهم ان يموتوا مطمئنين لمرورهم في البوتقة وخروجهم منها طاهرين مطهرين ثم يفتح الخلود آفاقه امام عيونهم...

هملت وضون كيخوطي يموتان ميتة مؤلمة ولكن كم من فارق بين الاول والثاني في الاخير! ان الكلمات الاخيرة التي ينطق بها هملت لجميلة وبديعة، يتذلل ويطمئن ثم يطلب الى هوراسيو الامين ان يعيش ويكون حليفا لفورتمبرس ولكن نظرته لا تكتشف المستقبل: «وكل ما عدا ذلك فسكون» يقول عند الوفاة شاكا ثم يسكت الى الابد. واما نهاية ضون كيخوطي فتغمر النفس شعورا غضا وعندئذ فقط تظهر للجميع عظمة نفسه. وعند ما يقول له حامل درعه معزيا ان استعد نشاطك ونخرج حالا في طلب المجازفات، يجيبه المحتضر: «رويدا، رويدا! ليس لعصافير اليوم ان تسكن في اعشاش الامس. قد كنت مجنونا واصبحت عاقلا، كنت ضون كيخوطي دي لامانتشا وانا الان، كما قلت، الونصو كيخانو الصالح» وهي كلمات مفاجئة وهذا الاسم الذي نطق به للمرة الاولى والوحيدة، يؤثر عظيم التاثير. اجل، هذه هي الكلمة الوحيدة التي لها قيمة امام الموت وما عداها فهباء يمر: الالقاب، السلطة والعبقرية التي ترى كل شيء، كل هذا يعود ترابا «وكل

عظيم على الارض يتبخر ثم يضمحل كالدخان الا الاعمال الصالحة فهي التى تدوم وقدوم اكثر من الجمال. ولقد قال بولس الرسول ان كل شيء يضمحل ولايبقى سوى الحب».

❀❀❀

واعتنى النقاد البرتغاليون والالمان والفرنساويون عناية خاصة بدراسة كتاب سرفانطيس من الوجهة النفسانية واثنوا على عبقرية المؤلف كما اثنى عليها مننديث اي بلايو والناقد الروسي وغيرهما.

ونكتفي بهذا القدر عن الكيخوطي لننتقل الى دراسة المؤلفات التى انجلها سرفانطيس في المرحلة الاخيرة من نشاطه الادبي المثمر.



القصص المثالية

صدرت هذه المجموعة عن مدريد سنة 1613 وفي مقدمتها، بعد ان يلمع المؤلف الى اصابته في معركة ليبانطو التي قال فيها انها «اعظم واسمى فرصة اتيح للاجيال المتقدمة رؤيتها ولن تحلم الاجيال المقبلة بمشاهدة مثلها» ينوه بصبغة مؤلفه الاخلاقية في هذه العبارات: «لقد خلعت على هذه القصص اسم الامثال ولئن نظرت اليها مليا لما وجدت واحدة خلت من مثال ذي فائدة... ولئن مر في خلدي ان قراءة هذه القصص قد تفسح المجال لمن طالعها لاثارة رغبة باطلة او ايقاظ فكرة سافلة لكنت افضل قطع اليد التى كتبتها بها قبل ان اطلع بها على الجمهور... لم تعد تسمح لي سني بالاستهتار بالحياة الاخرى..»

ان هذه الاحتياطات الاخلاقية لصادقة في الجملة ولو تعذر امر قبولها بنصهاوفصها في رواية «الزواج الخادع» ولا بصورة من الصور في روايتي: «رنكونتى وكورطاديو» واضاف سرفانطيس حاشية الى قوله هي عين الصواب

الذي لاينازعه فيه منازع فقال: «وانا أول من كتب الروايات القصصية باللغة الاسبانية..»

واما هذه الروايات فيمكن ان تقسم الى اربعة انواع:

اولا – التي هي من ابتكاره الصرف وعلى طراز النمط الايطالي وهي اوهى رواياته واقلها قيمة ومنها: «المحب المتهتك، قوة الدم، والسيدة كورناليه.

ثانيا – يدخل في هذا القسم الروايات التى يستطعم فيه الطعم الواقعي والشيء الكثير من البلاط الايطالي وتنضوي تحت لوائها الروايات الاتية: «الغجرية الصغيرة، الاسبانية الانكليزية، والفتاتان»

ثالثا – تنتمى الى هذا القسم الروايات ذات الصبغة الواقعية، والتى تكثر فيها الحواشي التعريضية وهى من افضل الروايات اذ فيها يطأ سرفانطيس حقلا خاصا به وهو سيد لايجارى في هذا المضمار، ومن هذه الروايات: «رنكونتي وكورطاديو، والماسحة النبيلة، والزواج الخادع والغيور الاسترمانى.

رابعا – ينضم الى هذا القسم مؤلفان غريبان ليسا من الروايات كما يفهم من كلمة رواية غير ان قيمتهما عظيمة فائقة وهما: «المتخرج فيدريارا، ومناجاة الكلاب».

المحب المتهتك

من اهم ما يلفت النظر في هذه الرواية وصف التعاسة والاخطار والخيانات التى يستهدف لها الاسارى في الجزائر

يعود سرفانطيس في هذه الرواية وفي الاسبانية الانكليزية وفي تاريخ الاسير في الكيخوطي، الى استخراج مشاهد الاسر التي تذوق طعمها هو نفسه.

فالمحب المتهتك من اضعف رواياته واقلها قيمة.

الغجرية الصغيرة

«برثيوسا مدربة على الرقص والغناء وغير ذلك من الفنون الغجرية، امتلكت القلوب وسحرت الالباب بخفة دمها وجواباتها السريعة الحاذقة، يكلف بها ضون خوان دي كركمو، وهوفارس شاب، ويرضى بالشرط الذي تفرضه عليه لتصدق حبه لها وهو ان يترك والديه وثروته ويتخلى عن مقامه الاجتماعي ويلتحق بها ويشاطر حبيبته حياتها التائهة مدة معينة فيتخذ اسم اندرس كبيارو عوضا عن اسمه الاول يلقى عصا الترحال في مكان بالقرب من مرسية حيث تكلف الفتاة خوانا كردوتشا ابنة صاحبة الفندق كلفا يكاد يكون جنونا بالغجري الكاذب،

فتبوح له بلواعج غرامها وتطلب اليه ملحة ان يتزوج منها؛ فتمتنع وتصمم هي على الانتقام منه لازدرائه اياها فتتهمه بالسرقة، وعند ما يلقى القبض عليه يشتمه ابن رئيس بلدية ذلك المكان، فيقتله اندرس ويذهب وكافة الغجر الى سجن مرسيه حيث يتضح امر برثيوسا فاذا بها ابنة حاكم اثيفيدو، وكانت قد خطفتها وهي حديثة السن الغجرية العجوز التي تعهدتها وعلمتها ضروب الرقص. واخيرا يتضح كذلك امر اندرس كبيارو (اي خوان كركمو) فيزوج من برثيوسا كما يتزوج مناسيس من ضونيا كونسطنثا دي اثيفيدو».

اشار السنيور ايكاثا الى مقطع في «مناجاة الكلاب» يتحدث عن اصل الكوندي المزعوم بين النور وهو الحادث الذي سكبه سرفانطيس في قالب روائي في الغجرية الصغيرة.

واما البيئة والصفات في الغجرية الصغيرة فتنتمي الى المثل الاعلى انتماء قاطعا وهذا ما يدنيها نوعا من طراز «لاغالاطيه» وغيرها من الروايات المختصة بالرعيان ولشخصية برثيوسا شبيهات في «طرسيانا» من كتاب

ابولونيو. وفي «بطرانوالو» لطيمونيدا وعند بعضهم في «لا اسميرالدا دي نوطر دام دي باريس» لفيكتور هيغو.

الاسبانية الانكليزية

ابرز نواحي هذه الرواية وصف البلاط الانكليزي والملكة وكون المؤلف تعمد اظهار الميول المثالية المحضة وذلك من جعله حب ريكردو لايزبالا يدوم بعد ان ذوى جمال جسدها. ففي هذه الرواية بزغت شمس سرفانطيس كوصاف للرحلات البحرية كما ظهرت شخصيته الفذة ممثلة في الاشخاص

الفتاتان

«فتاتان متحليتان بصفات حميدة، تغادران منزل والديهما بلباس الرجال وتتجشمان الاخطار والاهوال للالتحاق بالرجلين اللذين علق في شراكهما قلب كل واحدة منهما ثم تعودان بصحبة زوجيهما ولم تحيدا - في كل هذا - قيد انملة عن ارفع درجات الرقة والرفعة الخالصتين»

رنكونتي وكورطاديو

«رنكون وكورطادو، فتيان شريدان عمر الاول خمس عشرة سنة والثاني ست عشرة سنة، يلتقيان ذات يوم من ايام

الصيمف في فنـدق محـلة مولينيو. كلاهمـا ظريـف في ثياب رثة، يلعبان الورق مع أكـار فيغشانه ويربحان قدرا من النقود، ثم يصلان اشبيليْة حيث يتصلان بحمالة القفف فينضمان الى هذه المهنة ويدخلان في خدمة طالب وجندي فيخطفان محفظة نقود الاول ويتعرفان الى فتى آخر من حملة القفف اسمه غنتشوالو فينصحهما ان يقدما دار مونيبوديو رئيس اوباش اشبيلية ويسجلا اسميهمـا ويحضر الى تلك الدار لصوص آخرون بعضهم لايقترف ذنبا ولا يسرق نهار الجمعة ثم يظهر مونيبوديو وهوطويل القامة، اسمر الوجه مقرون الحاجبين، اسود اللحية غائر العينيين. اسوأ واغلظ حلاق في العـالم، يختبر وينصح ويقبل في المدرسة الإجرامية دخول رنـكون وكورطادو. وينذر احد الجواسيس بقدوم مامور السلطة فيسكن مونيبوديو روع الحاضرين طالما المأمور صديق جاء ليأخذ كيس نقود مسروقا الامر الذي لم يكن في علم الزملاء سابقا. ثم تدخل العرصة لاغننيوسا وفتاة اخرى من النساء المقاتلة، وكلاهما صديقتا تشيكبثنا كي ومنيفرو الزميلين البطلين الحاضرين ثمة حيث اولموا وتظهر كـاريهرطا وقد كست جسدها القروت وهى تشتكي من العصوة التى اذاقهـا

طعمها ربوليدو، فيوآسيها مونيبوديو وينصحها غير ان الشابة تصرح بحبها لربوليدو رغم الم العصوة وتقول بانها ذاهبة لتبحث عنه. ويراقب رنكونتى بعض الزملاء القدماء او اللذين يتجسسون لمصلحة الجمعية، ثم يصل ربوليدو وتحدث مشاجرات مع كريهرطا والبطلين فيوفق بينهم مونيبوديو الرزين فيقام احتفال ويرقصون ويعزفون وتغني غنثيوسا وينشد معها الاخرون وتلمح كاريهرطا الى عصوتها بقولها:

«رويدك ايها الغضوب ولاتفرط في عصوتي
اذ لو نظرت مليا لاتضح لك انك تقرع جسدك»

وهنايسرع احدهم ليسال فيما اذا كان قد طعن التاجر اربع عشرة طعنة في وجهه فيجيب تشيكيثناكي انه اضطر الى طعن الخادم لا السيد لضيق وجه هذا الاخير وعدم اتساعه لتحمل الطعنات المذكورة، ثم يتشاجرون في شأن الاجور ويعود الرجل الى مطالبة التاجرة فتسلمه سلسلة ذهبية ومن بعد تقرأ لائحة المطلوبات المفروغ منها والمدفوعات الى الجمعية المحترمة اي مذكرة الطعنات التي ينبغي ان تنفذ خلال هذا الاسبوع الخ».

يوزع مونيبديو على الجميع اربعين ريالا ويعين حيا

لكل من رنكون ورفيقه، ثم يأتيهم الانذار بوصول لوبيو المالقي الى اشبيلية «الذي بورقة لعب يجرد رئيس الابالسة من نقوده ويعلنون انهم سيعقدون الاحد القادم مجلسا جديدا»

ان هذه الرواية تشكل لوحة فائقة الابداع من حيث دقة الملاحظة واصابة اظهار الصفات الحقيقية الواقعية لحياة اللصوص في اشبيلية في السنوات الاخيرة من القرن السادس عشر

اجاد سرفانطيس كل الاجادة في وصف مونيبوديو والاخلاق التي تنتمي كلها الى الحياة الشريرة المطبوعة بتحلى الاشخاص بطابع خاص ومغزى مجرد ولا سيما مونيبوديو الذي جاء وكانه صورة من صور فلاثكث او ريشة غويا،

ولقد ميز منندث اي بلايو ببراعته الخارقة عدة اساليب واخراجات في حقل الادب اللصوصي الاسباني في ذلك الزمن في بحثه ووصفه لروح واخلاق رنكونتي فقال: «تجري في صفحات الرنكونتي بهجة طافحة وسرور منيروشي مما يسمى بالغفران الجمالي الذي يطهر كل ماهو بغيض واجرامي. في القالب ومن غير ان يمس

الاخلاق يحول الى مشهد مسل وفكه، وبمقدار ما تختلف طريقة مشاهدة وملاحظة حياة اللصوص التي راقبها سرفانطيس وسدد اليها نظره العلوي، يتنوع اسلوبه الى حد بعيد، ذلك الاسلوب الجريء السهل في رنكونتي، الجاف المعير عند لاثاريو، الفظ الخليع المرير عند ماطيو المان احد الكتاب البارزين المحلقين الا انه يبعد كل البعد عن سرفانطيس من حيث المغزى والمبنى حتى ليظهر وكأنه لم يكن من معاصريه ولا من اللذين يقتربون منه او يمتون اليه بصلة ادبية»

المساحة النبيلة

شابان صديقان ضون طوماس دي افندانيو وضون ديغو دي كرياثو، بدلا من ان يذهبا الى طلمنكة ليتابعا دراستهما، يذهبان الى فندق الاشبيلى في طليطلة حيث يكلف دي افندانيو بكونسطنثا الحسناء، خادمة الفندق ويطلب من صاحب الفندق لن يقبله في خدمته ولما كان صديقه كرياثو ميالا لحياة التشرد والمجازفات وكي لا يترك رفيقه، يقتني حماراً ويتعاطى مهنة السقاية ويتضح امر الماسحة الجميلة ويعترف بها والدها. فاذا بها فتاة نبيلة، ويتزوج الفتى المتخفى افندانيو من الماسحةالنبيلة.»

الزواج الخـادع

كتبها سرفانطيس كتوطئة لمناجاة الكلاب .

الغيور الاسترمانى

درس عميق للنفسية الشهوانية .

المتخرج فيدريارا

«الطالب طوماس روداخا يتجند ويذهب الى ايطاليا ثم يعود الى طلمنكه لمتابعة دروسه القانونية . تكلف به احدى السيدات ولما لم يصغ فيدريارا لنداء قلبها التجأت بنصيحة امرأة منحدرة من اصل اسلامي الى الشعوذة لكسب ارادة من تهوى . يمرض فيدريارا مرضاً ادناه من الموت وتهرب المرأة ثم يبل الا انـه يصاب بالجنون ويخـال نفسه من زجاج ويوصى الناس ان لا يمسوه لئلا يتحطم ومع هذا فهو ذكى حاذق وأجوبته دامغة . وبعد انقضاء سنتين يعود الى رشده بفضل معـالجة أحد الرهبان لـه ويذهب الى فلندس.»

تقتضى الاشارة الى ناحيتين مختلفتين في هذه الرواية الاولى حياة الاسفار التى تهذب الرجال الرزناء ، والثانية الاجوبة الحاذقة وهذه أهم من الاولى لانها تكسب الروايـة ميزة خاصة الخ .

منـاجاة الكلاب

يلاحظ في هـذه الرواية الفريدة الغريبة البديعـة عوامل معقدة مشتبكة فلكل كلب صفاته الخاصة : ففى برغنثا الخيال وفي ثيبيون الرزانة والوقار.

ولقد قال خصمه لوبي دي بيغا في هذه الروايات: «لم تنقص سرفانطيس الظرافة ولباقة الاسلوب» وقـال عدوه اللدود افينـادا في مقدمة الكيخوطي: «ان هـذه الروايات لانتقاديـة أكثر منها مثالية» واسمى طريودى مولينا مؤلفها «بوكاثيو اسبانيا»

وجاء في كتاب وجهه غوت الى شيلـر: ان هـذه الروايات انمـا هى كنز بهيج ثقافي تهذيبي ويعرب عن سروره لكون المؤلف الاسبانى قد تتطرق الى نفس المبادئ الفنية التى يعتمد عليها في انتاج مؤلفاته الخ.»

تكثر في الروايات المثالية الشواهد التاريخية العميمة الفائدة التي تكشف النقاب عن عوائد ذلك الزمان ولا غرابة في هذا نظرا لميول المؤلف الواقعية .

برسيلس

آخر مؤلفات سرفانطس قـدمه الى الكوندى دي لاموس أربعة أيام قبل وفاته ويقول في التقدمة: «رجلى في

الركاب وفي صدرى غصة الموت... أمس أعطيت لى الاسعافات الاخيرة واليوم أكتب هذه، الوقت ضيق والغصة تشتد والامل يقل ومع هذا تنازعنى رغبة البقاء، وكم اود ان ارجىء هذا ريثما أتمكن من تقبيل أقدام سعادتكم.»

واما البرسيلس فمقتبسة من الرواية البيزنطينية وتستطيع في نظر مؤلفها «ان تضاهى هليودورو» وقدتكون أردأ أو أفضل ما ألف في لغتنا واعني المؤلفات المسلية»

وحقيقة الامر فالرواية لم تكن حسبما ارادها سرفانطيس ان تكون، فيها بعض حوادث حافلة بنزعة الفروسية وبوصف حياة الرعيان، وتكثر فيها كذلك الحواشى عن حياة سرفانطيس نفسه الا انها غامضة نوعا، وقد أثرت هذه الرواية في الادب الذى جاء بعدها.

(انتهى)

فهرس

صفحة

القسم الاول

صفحة

صفحة

صفحه

القسم الثانى

الفصل الاول

الفصل الثانى

الفصل الثالث

صفحة

صفحة